

A
327.6205694
S252s



THE STOLTZFUS LIBRARY



Beirut University College

P.O. Box 13-5053 BEIRUT, LEBANON
Tel. 811968 Cable Address : BECOGE
Telex : 23389 LE

A
327.6205694
S252s

مذكرات أخطر سفير إسرائيلي في مصر

٧ سنوات في بلاد المصريين

B.U.C. - LIBRARY
11 AUG 1994
RECEIVED

بقلم
موشيه ساسون

تقديم
آبا إيبان



دمشق - القاهرة

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعـــــة الأولـــــى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

القاهرة - دمشق

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار



دار الكتاب العربي

وليد ناصيف

دمشق: الحلبوني - تلكس ٤١١٥٤١ - هاتف ٢٢٣٨١١
القاهرة: ٥٢ ش عبد الخالق ثروت، شقة ١١ ت + فاكس ٢٦٩٤٤٤٨ - ٣٩١٦١٢٢

تقديم الترجمة العربية

عندما انتهى فريق الخبراء بدار (الكتاب العربى) من ترجمة هذه المذكرات الهامة لثانى وأخطر سفير إسرائيلى فى مصر « موشية ساسون » ، والتى قام بتقديمها د. رفعت سيد احمد كان ما إحتواه من أسرار وحقائق جديدة ، شيئاً مذهلاً بالنسبة لنا، وذلك لأن الكثير من هذه الحقائق . لم يكشف عنه رسمياً فى مصر وفى عالمنا العربى حتى يومنا هذا، والقليل جداً هو الذى تسلل إلينا وعرفناه ، أما الاهم والاخطر فلم نعرفه، عن قصد وعن عمد، وجاء السفير الاسرائيلى فى مصر ليقدم لنا ما خفى عنا . وباعتبارى واحداً ممن اهتموا بقضايا التطبيع بين مصر وإسرائيل وصدر لنا عدة أعمال فى هذا الصدد، واستفدت كثيرا من الإشراف والمتابعة على هذه الترجمة العربية الكاملة لمذكرات السفير الإسرائيلى « موشيه ساسون » فى مصر(١٩٨١ - ١٩٨٨) وبداية يهمنا الإشارة إلى أن هذه المذكرات صدرت خلال عام ١٩٩٢ فى القدس تحت أسم (سبع سنوات فى بلاد المصريين) واحتوت على ثمانية فصول رئيسية والعديد من العناوين الجانبية ، فضلاً عن مقدمة بقلم / أبا إيبان ويمكن تلخيص ابرز حقائق وموضوعات الكتاب فيما يلى :

١) الحوار ات السرية الكاملة بين السادات وموشية ساسون

٢) الحوارات السرية بين السفير الإسرائيلى - أركان الحكم المصرى حسنى مبارك - كمال حسن على - يوسف والى - ماهر أباظة - عبد الهادى قنديل - عصمت عبد المجيد - صفوت الشريف - وغيرهم .

٣) الاتفاقات السرية بين الحكومة المصرية وإسرائيل ودور السفارة الإسرائيلية الهام فى هذا الصدد .

٤) النشاطات الخفية والعلاقات الخاصة التى أقامها السفير الإسرائيلى فى مصر خلال الفترة (١٩٨١ - ١٩٨٨) .

٦) عملية اغتيال السادات كما عاشها السفير الإسرائيلى لحظة بلحظة وهو يجلس خلف السادات فى المنصة .

٧) تفاصيل الاحتراف الإسرائيلى للزراعة والصناعة والثقافة المصرية ودور السفارة الإسرائيلية فى ذلك .

٨) رؤية السفير الإسرائيلى لعمليات مقاومة التطبيع المسلحة (سليمان خاطر تنظمه ثورة مصر) وللعزلة التى عاشها فى مصر قبل نقابات الصحفيين والمحامين والاطباء وغيرها .

تلك هى أبرز موضوعات هذه المذكرة ، مع تفاصيل أخرى دقيقة وهامة ولنا بشأن هذه المذكرات بعض الانتقادات والملاحظات العامة نذكرها فيما يلى :ـ

(١) إدعاء السفير الإسرائيلى بالتحلى بالقيم فى مسألة عدم التصنت على كابينة السادات فى الطائرة (الفصل الأول) إدعاء ذكى وخبيث ولكن تاريخ ساسون يؤكد بعده هو وقومه عن مثل هذه القيم فالتصنت والتجسس سمة لازمة لهم ، ونعتقد أن مسألة الكابينة هذه مفتعلة . وأنه بالفعل كان يتجسس على السادات وعلى نظام حكمه برمته بل ومصر ذاتها هكذا كشفت وثائق المركز الاكاديمى الإسرائيلى بالقاهرة خلال الثمانينات وكذلك ما كشفته أجهزة الأمن المصرية من عمليات تجسس وشبكات تجسس معروفة ونشر عنها فى صحف المعارضة المصرية الكبرى (الاهالى) ـ (الشعب) ـ (الوفد)

(٢) إن أخطر ما كشف عنه ساسون فى تقديرنا فى الفصل الاول هو هذه الامتيازات الخطيرة التى حصل عليه هو وقومه من جراء اتفاقية كامب ديفيد ولعل أخطرها ذلك التحييد الكامل لأكبر قوة عربية وإسلامية وإيقاف نشاطها المعادى الذى نراه نحن العرب نشاطا طبيعيا ومتسقا مع هوية مصر ومصالحها القومية المباشرة ويكفى للتدليل على المكسب الهائل الذى حصلت عليه إسرائيل هو أن السفير الإسرائيلى صار بإمكانه أن يتجول فى القاهرة ويعبر المسافة من المعادى إلى القدس (حيث يقطن) وهو آمن على نفسه ، بل هو قادر على التبجح على التاريخ وإدعاء الانتساب المزور لإبراهيم وموسى

(هناك أدلة ودراسات تاريخية موثقة تؤكد أن اليهود الموجودين بفلسطين الآن ليسوا هم يهود إبراهيم عليه السلام . انظر دراسات د . كمال الصليبى) .

(٣) من أهم ما كشف عنه مذكرات السفير الإسرائيلى (موشيه ساسون) فى الفصل الأول تلك الاتصالات السرية التى كانت تجرى بين رجال الملك فاروق والياس ساسون بهدف إقناع الملك بتوقيع سلام مع إسرائيل عام ١٩٤٨ ، والخطر فى هذا الأمر هو أن هذا العام كان عام الحرب الشرسة التى راح ضحيتها الألوف من العرب والمصريين على أرض فلسطين ، وفى الوقت الذى كان يستشهد هؤلاء فى سبيل العقيدة (المصالح العربية المباشرة) كان بعض الحكام (نموذج فاروق) يجرون الاتصالات الخفية مع الكيان الصهيونى ، ثم يأتى اليوم من يدافع عن ذلك العهد ، فأى ابتذال هذا للتاريخ ولأرواح الشهداء ؟ .

(٤) إن اللقاءات السرية للشباب المصرى ، ولانيس منصور مع الشباب الإسرائيلى ومع السفير الإسرائيلى كما وردت فى الفصل الأول من الكتاب ، نعتقد جازمين أنها لم تأت بنتيجة طيبة ومرضية لإسرائيل لأن العداء تزايد (نموذج تنظيم ثورة مصر الذى نشأ وتطور فى نفس الفترة التى عمل فيها ساسون بالقاهرة ـ ونموذج " الشاب " المصرى سليمان خاطر وغيره) فضلاً عن المقاطعة المنظمة والدائمة حتى اليوم (١٩٩٢) للنقابات المهنية المصرية وبخطة نقابة الصحفيين التى ينتسب إليها أنيس منصور لأية علاقات تطبيعية مع إسرائيل ، من هنا لا تتصور أن هذه اللقاءات قد أتت بنتيجة ايجابية لصالح إسرائيل وهى فى المحصلة مواقف فردية عديمة النفع ، عديمة الأثر ، أما أنيس منصور " وموقفه " فإن الحديث عنه له موضع آخر يتفق وقيمة ما قدمه ولا يزال سيقدمه فى سبيل التطبيع .

(٥) وبالنسبة للفصل الثانى من المذكرات فإن كان من كلمة تقال بشأن هذا الجزء من مذكرات (ساسون) فهى أن اليهود يحاولون نسبة التاريخ إليهم ، أى تاريخ ، يحاولون

ايجاد امتداد لهم رغم حدوث انقطاعات رأسية وأفقية عديدة ، وهم لذلك لا يألون جهداً فى تزوير الوقائع والآثار والوثائق ، بيد أن الحقيقة تظل دائما أقوى وأخلد . ومصر التى جابها (موشيه ساسون) طولا وعرضا ولم يجد فيها سوى (حجر) و٧٠ رجلا وأمرأة وبضعة معابد تحرسها نساء مسلمات ، مصر هذه لم تعرف الوجود اليهودى بالمعنى الذى يقصده (ساسون) إلا كجواسيس على المواطنين فى مصر القديمة (انظر كتابات العالم الاثرى المصرى القدير / الدكتور إبراهيم صالح) ، أما موسى عليه السلام ، ومن اهتدى بهديه ،فهو تاريخا وواقعا ينتسب إلى الاسلام أما الذين انشقوا وعادوه وكذبوه فهم ـ حتى بغرض صحة رواية ساسون ومن شابهه من علماء إسرائيل ـ هم اجداد السفير الاسرائيلى ، وكتب العلماء (ووثائق البحر الميت) التى كشف عنها النقاب أخيرا تؤكد هذه الحقائق .

إذن يهود اليوم يعتبرون يهودا مزيفين ، منقطعى التاريخ أساسا وأى إدعاء غير ذلك عار عن الصحة وبلا سند .

ومع ذلك أخطر ما نستشفه من رواية / موشيه ساسون فى الفصل الثانى هو أن مصر كانت ولا تزال مفتوحة أمام رجالات السفارة الإسرائيلية وبخاصة فى اواخر عهد الراحل/ أنور السادات، وهذا (الانفتاح) غير المنضبط مع التراكم المستمر للتزييف والتزوير للآثار والتاريخ ، يحدث تشويها ، وبلبلة أمام الاجيال الجديدة من الشباب العربى والمسلم فى مصر . ومن ثم ينبغى ضبط حركة هؤلاء (الحاخامات) الذين يرتدون زى السفراء فى قلب القاهرة ، ونعتقد أن أجهزة الامن المصرية قديرة على ذلك وهى حريصة بالفعل على مقاومة الاختراق الإسرائيلى لمصر والشواهد الاخيرة تشجع على تأكيد ذلك .

(٦) وفى الفصل الثالث من مذكرات (موشيه ساسون) والمعنون ب نظرة على الحياة اليومية ، يهمنا أن نسجل النقاط التالية : ـ

أ ـ لابد بداية من تحرير كلمة (السلام) التى تتردد كثيراً على لسان ساسون وفى

أكثر من موقف وتجاه أكثرمن شخص ، فالسلام الذى يقصده ساسون وكما يدركه غير السلام الذى يفهمه العربى المسلم ويجنح إليه وفقا للمقصد القرآنى الصحيح ، إن السلام الذى يقصده ساسون هو سلام المعتدى على الحق ، والارض والعقيدة وهو السلام لا يستنكف ، ولا يخجل أصحابه من شن الحرب المسلحة على مخيمات للعزل فى جنوب لبنان وحول بيروت ومن ضرب المفاعل النووى السلمى للعراق فى نفس الوقت الذى يتشدق فيه سفيرهم بالقاهرة بمقولات الحب والتسامح والسلام ، وهو (السلام) الذى دفع عاملة التليفون إلى الدهشة والتهجم على ساسون عبر أسلاك التليفون ، قائلة له وبدقة وفطرية سليمة، (أليست هناك اتفاقية سلام معكم ، ان هذه العاملة تفهم السلام بمعنى مغاير تماما لما يفهمه (ساسون) ، و (سلامها) غير (سلامه)، إنه سلام المسلمة المؤمنة بأن أعداءنا (إن جنحوا للسلم فاجنح لها) . أما ان اعتدوا (فالعين بالعين والبادى اظلم) ، (ولكم فى القصاص حياة) من هنا وجب تحرير كلمة (السلام) ، وإعادة الاحترام لها لأنها تلوثت كثيراً من عبث السيد / ساسون بها عبر مذكراته .

ب ـ ما لم يفهمه السفير الإسرائيلى السابق/ ساسون هو أن مصر ليست باب فؤاد وأولاد ، وهذا الذى سماه بالمتطرف أو كمال حسن على و صلاح حسن وبدر همام ، مصر هى الشعب الذى تعداده الآن فوق ٥٦ مليوناً وهى المائة الف شهيد الذين ماتوا دفاعاً عن العقيدة وعن المصلحة القومية لمصر أولا (وليس لفلسطين كما كان ولا يزال يتشدق البعض) ضد الوجود الصهيونى من مصر هى النقابات والجماعات والجيش الوطنى ورجال الشرطة الوطنيون وليست هى النماذج التى قدمها ساسون ، ومصر أخيراً هى زينب الخادمة التى استشهد زوجها على أيد أخوه ساسون الذى تخدمه زينب بحثا عن لقمة خبز لابنائها ! ! ومصر هى التليفون ، وهى آلاف من الحركة الإسلامية الذين يضعون تناقضهم على ساسون وقومه فى مقدمة إدراكهم السياسى ، (وليس كما زعم على لسان (متطرف) لم نعرف له إسماً ولا رسماً بين ثنايا المذكرات ومن ثم نتصور أنه

ليس حقيقة وان كان حقيقة فهو شخص غير متطرف والا لما جلس وتباحث مع موشيه ساسون الذى ساهم من قبل فى وضع خرائط مزعومة يؤكد فيها أن حائط المبكى يوجد تحت جدران (المسجد الاقصى) ومن ثم لابد من هدمه حتى يعاد بناء الهيكل . فكيف يستقيم ذلك : (متطرف دينى مسلم) يتحاور مع من يريد هدم أولى القبلتين وثالث الحرمين ! !)

على أية حال ... مصر بالتأكيد ليست هؤلاء ، وبالتأكيد ساسون يعلم ذلك لأنه ذكى ولا يعتقد أنه من الغباء بحيث لا يرصد تلك العزلة التى عاش فيها طيلة سنواته السبع التى قضاها بالقاهرة والتى لم نسمع أنه قد دعى فيها إلى مائدة أحد قادة من مصر ، أو أحد السياسيين الشعبيين ، أو حتى أحد السفراء العرب .. فقط أهل الحكم .. وللامانة بعضا منهم فقط!! .

(٧) أما بالنسبة للفصل الرابع والمعنون ب(فى مواجهة الواقع) فان كان لنا من تعليق عليه فهو أن ساسون اعترف وبنفسه أن الشعب المصرى الحقيقى (ممثلا فى نقاباته المهنية الرائدة : المحامين ـ الصحفيين ـ الاطباء ثم الفنانين (رغم بعض الهفوات) كانت معارضة لتطبيع العلاقات معه ، حتى الرئيس المصرى مبارك كان مشمئزاً منه ، ومن احتفالاته بعيدما يسمى ب (استقلال إسرائيل) ، وكان حريصا على عدم حضور مندوب عنه هذه الاحتفالات ، وكأنه (الرئيس المصرى) قدقبل هذا السلام وقبل بهذا السفير على مضض.

إنها رسالة بليغة حقا تلك التى اعترف بها ساسون عبر ثنايا مذكراته وهى أبلغ من أى تعليق يذكر ! ! .

أما (سليمان خاطر) وما قام به وما جرى له فنحن نحتسبه عند الله شهيداً أيا كانت درجات اختلافنا وتقييمنا لجدوى ما فعل ! ! وقبل أن يصفه السفير الإسرائيلى بهذه الصفات السيئة عليه أن يقارن ما فعله ، بما تقوم به اسرائيل يوميا تجاه اطفال ورجال

الانتفاضة فى الأرض العربية المحتلة وكا يحدث لهم داخل السجون وفى المؤسسات الرسمية اليهودية ... يكفى للتدليل على أن ما فعله سليمان خاطر لا يقارن بما يفعلونه هم!!.

(٨) أما بالنسبة للفصلين الخامس والسادس فإنه يمكن حصر رأينا بشأن ما ذكره ساسون فيما يلى :ـ

أ ـ اثبتت الايام خطأ توقع الاديب الكبير / نجيب محفوظ بشأن حاجة إسرائيل إلى السلام ولعل مفاوضات السلام بعد مؤتمر مدريد (٢٠ / ١٠ / ١٩٩١) وما جرى بداخلها ، والتطويل الذى تم بشأنها حتى اليوم (نهاية عام ١٩٩٢) يؤكد هذه الحقيقة . وفى الواقع أ ن أديبا كبيرامثل نجيب محفوظ ، مثل غيره من الأدباء الكبار ، يفضل لهم دائما ألا يتعاطوا أمور السياسة ، بكل تفصيلاتها المباشرة وغير الواضحة فالامر بلا شك له رجاله وله مناهجه وأساليبه التحليلية التى يعجز العديد من الادباء عن إدراكها أو حتى احترامها ، ومن بين هذه الامور تأتى مسألة الصلح أو " السلام " مع إسرائيل بكل تعقيداتها وميراثها الطويل ، ومستقبلها الغامض . إن الادب ، أسمى كثيرا من تحولات السياسة ، أكثر خلودا من (الآراء السياسية) الطائشة وغير الواعية ! !

ب ـ أخطر ما ذكره ساسون فى هذين الفصلين هو أن مصر قد وقعت مع إسرائيل فى فترة لا تتجاوز شهراً واحداً ٥٧ اتفاقية للتعاون المشترك فى مختلف المجالات : وهو رقم لو ثبتت صحته لكان مثيرا للدهشة والرعب فى آن واحد فالمعروف أن هذه الاتفاقيات تؤكد وقائع وتحدد (مستقبل) ومن الواجب أن يكون قد تم دراستها جيداً وإقرارها من مجلس الشعب المصرى بعد مداولات ومناقشات واسعة ومتخصصة فهل تم ذلك فعلا ؟ الواضح أنه لم يتم وهنا تكمن الخطورة وإذا كان هذا العدد الهائل من الاتفاقات قد تم خلال شهر فى عام ١٩٨١ ؟ ترى ماذا تم خلال الفترة من ١٩٧٩ حتى عام ١٩٩٢ ؟ أسئلة نعتقد أنها مشروعة وملحة والاجابة عنها لا تهم فقط الذين يحيون اليوم فى مصر

والعالم العربى بل تتصل بأولئك الذين سيأتون غدا ، وقد تحد هذه الاتفاقات من حرية حركتهم ومن مستقبلهم ككل... المطلوب إذن إعادة فتح ملف هذه الاتفاقات السرية : حرصا على المستقبل ذاته .

جـ- بعد التفاصيل المثيرة التى ساقها (ساسون) عن عملية اغتيال السادات والتى لم أوردها فى الكتاب يهمنا أن نسجل ما يلى :

أولا : لم يكن من اللائق بالسيد / ساسون ورجال سفارته إن يقيموا احتفالا صاخباً بعيد الغفران كما يسمونه- ودم (صديقهم) الرئيس السادات لم يجف بعد . . ان هذه قضية أخلاقية بكل معنى الكلمة وهى تؤكد فى جوهرها الحقيقى نوعية هؤلاء البشر «اليهود» أنهم لا يفهمون سوى لغة المصالح الخاصة ولا يقيمون وزناً لمشاعر الاخرين بل يتعمدون إهانتها وان اظهروا غير ذلك .

ثانيا : أما السادات نفسه وتفاصيل واقعة اغتياله ، فإن أهم دلالتها إنها تؤكد فى معناها الاخير خطورة الانفراد بالرأى من قبل الحاكم ، وخطورة الاستهانة بالقضايا القومية لبلاده ، تلك أبرز المعانى المستقاه ، بعيدا عن التفاصيل المثيرة لرواية السفير الإسرائيلى.

ثالثا : أما مناحم بيجن فلقد كشفت برقيته المتعجلة إلى الرئيس السادات متصورا أنه أصيب ولم يقتل ، ارتهان السلام لدى الإسرائيليين بشخص الرئيس " السادات " غير المتصور رحيله أوقته ولذلك كانت صدمة (بيجين) فيه قوية للغاية ، ليست حبا (بدليل احتفالهم بعيد الغفران ثانى يوم لاغتياله أمام السفارة المصرية فى تل أبيب ، وكذلك فى القاهرة داخل المعبد اليهودى بشارع عدلى) ولكن خوفا ممن سيأتى بعده ! ! .

(٩) وبالنسبة للفصل السابع من مذكرات ساسون . من المهم أن نشير إلى عدة ملاحظات :

أ- يعمد كل محتل قدم إلى مصر عبر تاريخها المعاصر إلى أن يتوجه بداية إلى

(الزراعة) لكى يضربها ، لأنه يدرك أهمية وخطورة أن يأكل الشعب من كد يده ، ولأن الزراعة، تعد أصعب المجالات فى عملية الاحتلال ، ودائما تأتى بعد احتلال المصانع والمؤسسات المدنية ومؤسسات الحكم وصناعة القرار ، والتجارة ، وغيرها ...... (الزراعة) لأهميتها ولصعوبتها فى مصر- تحديدا - كانت تأتى دائما بعد خطط ودراسات وبرامج طويلة : وهو ما أدركته بذكاء إسرائيل ورجال سفارتها وخبراؤها الزراعيون ، ومن ثم جاء تخطيطها بعيد المدى واستراتيجيا وما ظهر فى أوراق ومذكرات السفير ساسون يعد (قمة جبل الثلج) كما يقول- الذى يخفى جبلا حقيقيا لم يعلن بعد عن تفاصيل حجمه والتى لا شك أنها تظهر يوميا وتحدث نتائجها المدمرة للبنية الزراعية المصرية ويكفى أن نعلم أن محاصيل الارز ، القطن وغيرها فى مصر قد تم تدميرها إلى النصف تقريبا - قبل توقيع اتفاقات كامب ديفيد - نتيجة الاستماع إلى نصائح الخبراء اليهود ، ونتيجة الاستعانة ببنور لهذه المحاصيل أتت من إسرائيل والنماذج عديدة .

ب- علينا ألا ننسى أن أخطر المشاريع الزراعية التى أحبطتها المعارضة المصرية ، ولم يأت السفير الإسرائيلى ساسون باشارة لها فى مذكراته كان مشروع توصيل مياه النيل إلى إسرائيل وآثاره المدمرة للاقتصاد الزراعى المصرى فيما لوتم ، وغيرها من المشاريع والاتفاقات السرية التى وصلت كما تذكر بعد المصادر المحايدة إلى مائة وسبعين اتفاقية فى مجال الزراعة خلال فترة الثمانينيات فقط .

بعد . . . ملاحظات أخيرة

وبوجه عام بالنسبة للكتاب ككل يهمنا أن نؤكد على أنه وبالفعل كان ساسون هو (مهندس عملية التطبيع) بين مصر وإسرائيل وما نشرناه من اجزاء رئيسية من هذه المذكرات يؤكد هذه الحقيقة التى قال بها رئيس وزراء إسرائيل رابين عندما رآه مؤخرا فى السفارة المصرية بتل أبيب فى حفل استقبال ! !

كان مهندسا للتطبيع وكان خادما مطيعا لمصالح بلده وكان واعيا بهذه المصالح حتى

آخر لحظة من لحظات خدمته فى مصر .

إلا أن أبرز ما نخرج به من هذه المذكرات الخطيرة ما يلى :ـ

(أ) أغلب جماعات المثقفين والقطاعات العادية من الشعب المصرى لم تتجاوب بجدية مع عملية التطبيع مع إسرائيل ، هكذا السفير موشيه ساسون فى مذكراته (سبع سنوات فى بلاد المصريين) بل ويعلن مرارته من ذلك ومن الشعور الدفين بالعزلة الذى ظل يلاحقه طيلة هذه الفترة (كنت أعيش فى فقاعة صناعية : ساسون) .

ب ـ إن مهام السفارة الإسرائيلية فى القاهرة تتجاوز الامور السياسية والتعاملات السياسية بين الحكومتين (المصرية والإسرائيلية) إلى امور أخرى خطيرة مثلا : بعث الوجود اليهودى المصرى من جديد رغم اندثاره (٧٠ يهوديا مصريا فقط يعيشون فى مصر (وفقا لأقوال ساسون) ـ القيام بأعمال الصلاة وترميم المعابد وإنشاء مراكز الابحاث (نموذج لذلك المركز الاكاديمى الإسرائيلى) واختراق المؤسسات الزراعية والصناعية والتعليمية والثقافية والاتصال بأئمة المساجد وبقطاعات من المهنيين المصريين (نموذج الحلاقين والحرفيين وغيرهم ممن ذكرهم السفير الإسرائيلى فى مذكراته) .

جـ ـ كانت القيادة السياسية المصرية فى مجملها تتعامل على مضض مع عملية التطبيع التى يقودها (ساسون) باستثناء ثلاثة من الوزراء المصريين وهو عدد هزيل قياسا بالاخرين ، وهذا مؤشرهام للتاكيد على أن السلام القائم بين مصر وإسرائيل لم يتعد القشرة الخارجية للنظام ولم يتمكن بعد من الوصول إلى (اللب) ، والفضل يعود إلى أشياء كثيرة منها الدور الفعال للقوى المعارضة المصرية فى مقاومة التطبيع ومنها دور إسرائيل ذاته (خرب) هذا التطبيع باعتداءاته المتكررة على البلاد العربية وعلى فلسطين فى الداخل والخارج ، انهم يقوون روح الرفض لهم حتى لدى أصدقائهم .

د ـ كان " السادات " بلا جدال ٦٠ ٪ (على الاقل) من أسباب نجاح التطبيع مع إسرائيل. لارتهان هذا التطبيع به صانعا ، واختفاء السادات كان بالفعل ضربة خطيرة لعملية

التطبيع تلك ، وهذا ما تكشف عنه سطور مذكرات ساسون وما وراءها .

هـ ـ تظل هذه المذكرات بكل مما فيها وما أخذناه عليها ، تظل هامسة ومفيدة لصناع القرار العرب ، وللمثقفين العرب ، وللشعب العربى بإجمال ، خاصة فى هذه الايام التى اختلط فيها الحق بالباطل فى قضية قضايا العربية ، فلسطين . إن مذكرات موشيه ساسون تفيد فى كشف ما خفى ، وفى التنبيه مما هو قادر واخطاره ، إنها مذكرات للمستقبل الذى يراد فيه أن يتكرر (النموذج المصرى) فى مناطق عربية أخرى ، وليست مذكرات للماضى!!

وبعد . . .

تلك هى . . رسالة هذه المذكرات الهامة لأخطر سفير إسرائيلى قدم إلى مصر . . ترى هل فهمنا محتواها أم مازالت على عيوننا غشاوة . . وضعها القهر والاستبداد ؟

والله هو المستعان ...

المترجم .

تقديم

كتاب « سبع سنوات فى بلاد المصريين » لموشية ساسون ممتاز سواء فى اسلوبه الرقيق أو فى نظرته الفاحصة للمواقف وللموضوعات .

إن مصر وإسرائيل أمتان يعتبر لقاءهما فى التاريخ ثروة لا تنسى بالنسبة للبشرية . تلتقيان الآن على نطاق مختلف تماماً عن أى فترة فى الماضى ، كأمتين ذات سيادة عرفتا الحرية والسلام بينهما . ولكن حتى لحظة التوقيع على معاهدة السلام لم تتح الفرص للإسرائيليين وللمصريين أن يتقابلوا فى مواقف عادية من الحياة اليومية .

وموشية ساسون هو أحد الإسرائيليين القلائل الذى خبر بحياه العرب وثقافاتهم على كافة المستويات.

وفى هذا الكتاب يُظهر قدرته على النظر بذكاء وبتفهم إلى ما يجرى وراء الهياكل السياسية والدبلوماسية بغية السعى وراء دوافع زعماء وردود أفعال البسطاء من عامة الشعب . وفى الواقع كان المؤلف مجهزاً لهذا جيداً : فإن معرفته باللغة وبالثقافة العربية كانتا معرفة طالب نبيه . وخبرته كأحد أبناء الشرع مهدت له الاقتراب مباشرة من فكر وخواطر العرب فى أى مكان .

إننى لا أعرف إنساناً آخر ، لديه القدرة على معالجة مثل هذا الموضوع بهذه الصورة الودية والحميمة .

توقيع

أبا إيبان ـ هير تسلبا

تمهيد

هذا الكتاب مجرد من الفزلكة . فهو ليس بالمؤلف السياسى الخالص الملئ بالوثائق وإمعان النظر فى العلاقات بين إسرائيل ومصر . وهو إيضاً ليس بالكتاب المخصص لسرد مذكرات تستوجب التعليق على المواقف والأحداث التي لاتزال فى نطاق الخلق والإبتكار ومن الأفضل سترها .

إن جوارنا لمصر لايزال أبعد ما يكون عن أى جوار عادى بين دولتين تعيشان فى سلام متجاورتين في الحدود . فمن ناحيتنا ، وبعد حروب سفكت فيها دماء غزيرة متعطشون إلى جوار حميم وإلى إنفتاح عملى، وفى المقابل من ناحية المصريين فإن جوارنا لهم يشبه كما لو فرض عليهم بحكم ظروف تاريخية . وفى هذا الوضع غير المتساوى ، يصير الجوار بين الإسرائيليين والمصريين معقداً بصفة خاصة .

إن موضوع هذا الكتاب هو عرض وتجسيد للمشاكل المرتبطة بالحوار السياسى القائم بين الإسرائيليين والمصريين بعد ثلاثين عاماً من الحرب ولم تتم تسوية الجوانب الأخرى للنزاع العربى ـ الإسرائيلى بعد .

لقد اخترت كتابة هذا الكتاب على شكل شرائح تصويرية ، كل شريحة منها تصف إتصال، تجربة أو أحداث صاحبت وتزامنت مع لقاءات إنسانية مع بدء عصر السلام . فلا توجد حتماً ، صلة بين الشرائح التصويرية المختلفة ، كما أنه لايوجد فيها تقديم أو تأخير. فكل شريحة تصويرية هى فى حد ذاتها قائمة بنفسها وفى إستطاعة القارئ إن يطالع فى هذا الكتاب الفصل الذى يختاره .

مثل هذه الكتابات لا يمكن ، بطبيعتها ، ان تكون موضوعية أو ذات صبغة «أكاديمية»، لأنها تعرض على القارئ إبناء شعب مصر كما رأيتهم « أنا » . كما تحدثت إليهم ، كما عشت بينهم طيلة فترة عملى فى مصر التى دامت لأكثر من سبع سنوات « ١٩٨١ ـ ١٩٨٨ » وهذه الكتابات جاءت لتعبر عن تجربتى الشخصية والتى أردت أن أتقاسمها مع القارئ

ليس إلا .

وإننى اسير شكر وعرفان للكثيرين من الاصدقاء المصريين الذين فتحوا لى ، سواء بالرمز أو بالإفصاح ، خلجات قلوبهم ، وأتاحوا لى أن أحاول وأن أفهم جيداً مشاكلهم ، ومكابداتهم ومواقفهم .

وأخص بالشكر أيضاً بطبيعة الحال زملائى فى فريق السفارة بالقاهرة ممن عملوا وأجتهدوا معى والذين تعلمت منهم أكثر مما تعلمت . وكذلك أقدم شكرى للسيدة عيطرا كليجمان التى أعدت الكتاب للطبع بمثابرة وبمهارة وبعين واعية .

وإننى أكن عرفاناً عميقاً خاصاً أشعر به حيال إبنتى وزوجها طيمر اللذين لم ينقطعا عنى حتى انتهيت من الكتابة وتقديم هذا الكتاب للطبع .

المؤلف : م . س .

الفصل الاول

خطوات اولى

بطاقة هوية :

فى الثامن عشر من مايو ١٩٨١ ، عندما توجهت أنا وزوجتى وإبنى روين إلى طائرة العال فى رحلتها رقم ٤٤٣ التى تقلع من مطار بن جوريون إلى مطار القاهرة الدولى ، اقترب منى أحد المراسلين الإسرائيليين الذين تزاحموا فى المطار : قبل سفرك للعمل كسفير رقم ٢ لإسرائيل فى مصر ، ما هو شعورك سيدى السفير ، وما هى توقعاتك ؟

- « السلام ليس عملا لإجراء من جانب واحد ، لتوقيع من جانب واحد القول من جانب واحد » كان هذا ردى عليه فهذا الحق محفوظ لله وحده فقط فهو القادر على أن يخلف واقعاً جديداً بقوله للشئ كن فيكون - وقال الله ليكن نور فكان نوراً - وإننا نحن الزائلون مطالبون بالعمل الدؤوب، بالحرص يومياً، بالمل والصبر والمثابرة ، وشعورى هو العمل - كى أساهم فى تحويل واقع الحروب التى دامت لأجيال إلى حياه يومية فى ظل سلام حقيقى . إنه عمل يومى مضن، صعب ، دقيق وهام . بمعنى آخر : تحدى، التحدى بالعمل من أجل السلام.

وبعد ساعة عندما هبطنا فى مطار القاهرة الدولى، فكرت فى قرارة نفسى وقلت :

سبحان الله ! هل كل هذه الحروب التى كانت بيننا وبين مصر ضغطت فى ساعة طيران عادى لمدة ساعة واحد ؟

وهذه المرة تقدم منى صحفى مصرى وقال لى بالعربية :

- سيدى السفير ، كمستشرق ، هل تعلم أن اللغة العربية سوف تسعفك على أداء وظيفتك الحساسة فى القاهرة ؟

لست مستشرقاً - أجبت - منذ خراب الهيكل لم تترك عائلتنا هذه المنطقة على الإطلاق ، فإن أجدادى كانوا من بين المنفيين فى بابل . وفى القرن الثامن عشر قرر أحد الأجداد ، الحاخام ، يسرائيل سيسون ، العودة من بغداد إلى الوطن ، وبينما كان فى طريقة عام ١٧٣٨ عائداً إلى المنزل . إلى القدس، استوقف هو ونسله وظلوا قرابة مائتى عام فى

دمشق . وكان والدى الياهو سيسون هو الذى واصل الطريق ، ففى سنة ١٩١٩ عمل على تهجير والديه وإخوته سنة ١٩٢٧ ثم وصل مع أسرته إلى القدس .

بطبيعة الحال اللغة مهمة جداً . والأهم منها حقيقة أننى جئت من بعيد . جئت من مسافة طيران لمدة ساعة واحدة فقط . لا ، لست مستشرقاً بل أن الشرق ، جزء لا يتجزأ منه، وهكذا أيضاً إسرائيل التى أعادت استقلالها . إنها ليست غرساً غريباً. بل جزء لا يتجزأ من هذه المنطقة......

عرض موجز :

عندما وصلت إلى مكتبى لأول مرة فى سفارة إسرائيل بالقاهرة ، فى التاسع عشر من مايو ١٩٨١، عقدت اجتماعاً ، كما هى العادة ، مع جميع أعضاء السلك . وأبلغتهم رأيى بخصوص استمرارى هنا غالباً خمس سنوات .

بعدها تفرست وجوه المساعدين لى فى المستقبل ، وشاهدت الرعشة تعلو وجوههم ، مما قلته بشأن إمكانية بقائى فى القاهرة .

وشعرت أننى الشخص الوحيد فى هذا المنصب الذى كان واثقاً ومؤقتاً فى « إعلان النوايا » وعملى فى القاهرة انتهى بالفعل بعد سبع سنوات وشهرين ويوم واحد .

لقد احتفظت فى القاهرة خلال هذه الفترة الطويلة بأمرين :

- الاعتراف بأن عملية بناء السلام هى مسألة مضنية ... ، و مضنية جداً.

- ومعرفة أن ـ والعياذ بالله ـ لو حدث شئ ما لهذا السلام الأول مع أكبر دولة عربية فى منطقتنا . سيكون لزاماً علينا حمل السلاح ليس جيلنا فقط .... بل أجيال ، نحن وأبناؤنا وأبناء أبنائنا .

هذا هو فى الواقع يحمل التحدى الذى كان يتحتم علىّ التصدى له .

نشيد « هاتكثاه » والرى بالتنقيط :

قصر عابدين فى العشرين من مايو ١٩٨١ :

يمثل السفير الثانى لإسرائيل فى مصر إلى قصر عابدين ليقدم أوراق اعتماده إلى رئيس جمهورية مصر العربية محمد أنور السادات وقتها .

إصطف حرس الشرف فى طابور عرض طويل مكون من عدد من الجنود فى الجيش المصرى بزى المناسبات الرسمية ، مستعداً لاستقبالى .

وبدلاً من ملابس القتال إرتدى هؤلاء الجنود ملابس التشريفات ، وكانت ملامح وجوه الجنود تنم على الصلابة والرسمية . وبدلاً من مهيب القتال والنار ـ أخذت فرقة موسيقى عسكرية تعزف النشيد الوطنى لاسرائيل « هاتكثاه » .....

ووقفت قبالتهم ، منتصب القامة .م.. مرتفع الهامة ، بإبتسامة خفيفة صاحبت علامات الجدية على وجهى . وقفت أمامهم وتمتمت فى قرارة نفسى ، عند سماعى لفرقة موسيقية مصرية عسكرياً تعزف : « لنكن شعباً حراً فى وطننا أرض صهيون والقدس » .

وعلى يسارى وقف رئيس مراسم رئاسة الجمهورية متأنقاً هادئاً ، ومثل هذه المراسم بالنسبة له عمل هى عمل روتينى بالنسبة له « أحقاً !؟ » ، ومن خلال السور المحيط بفناء قصر الرئاسة شاهدت جمعاً كبيراً من الشعب المصرى : بسطاء الشعب المصرى ، معظمهم يرتدون الجلابية. وعند سماع عزف نشيد « هاتكثاه » ، بلادى بلادى.. بدأ فجأة تصفيق حاد . وقلت لنفسى : هل تجمعوا هنا بناء على الأوامر ؟ وهل التصفيق شئ عارض ؟ وهل يعبر عن احترام للنشيد ؟ أو ربما لأحدهما ؟ أو ربما ... ومن المحتمل .. أن يكون تعبيراً عن سعادة الرجل المصرى البسيط ، رجل الشارع ، بالسلام ؟

وحرصت على إظهار رباطة جأش ، إحتراماً للذين يحترمون صفتى ، لكن خارجى متواضع وإبتسامة خفيفة لبداية صداقة وشكر لقائد المراسم المصرى ، الذى كان بالأمس

القريب يسن الحراب ضد قادة جيش الدفاع الإسرائيلى على رمال سيناء الصفراء . صورة هذا القائد لازمتنى : ملابسه بدون أى شائبة . جميعها براقة لامعة ، مفرق رأسه ، قبعة يرتديها جنود حرس الرئاسة ... آنذاك . والتى تذكرنا جداً بقبعة الصلب الألمانية... ووقفته الثابتة كانت تدل على الطاعة . والصرامة والاعتداد بالذات . فقد كانت كل حركة من حركاته محسوبه. فجأة ترك مكانه وبدأ يخطو بخطوات ثابته تحوى ... شاهراً سيفه ... إلى أين سيقترب منى ؟ وما هى المسافة التى سيقف عندها ؟

والمدهش فعلاً تلك اللحظات القلائل جداً فى حياه الإنسان التى تظهر فيها دفعة واحدة من ذكريات الماضى . تمر داخله واحدة تلو الأخرى . وتلك الثوانى المعدودة .. ظهرت أمامى صورة زملائى ، زملاء نفس الفصل بالمدرسة الثانوية فى القرى ، سقط بعضهم فى حرب الإستقلال فى المعارك مع الجيش المصرى. ظهر أمامى والد زوجتى صموئيل سوكولوف رحمة الله ، الذى مات إثر سقوط قذائف الجيش المصرى على الطريقة العربية «ملحا»، والتى تقع بالقرب من مشارف القدس . كما مثلت أمام عينى أول طائرة مصرية قصفت تل أبيب عند اندلاع حرب الاستقلال ، وكان علىّ أن أقوم بالتحليق مع طيار آخر أسقطت طائرته . وعاد ورّن فى أذنى فيب تلك الثوانى المعدودة ، صوت الضابط الشاب محمد أنور السادات رجل من الضباط الأحرار الذى تلى فى الإذاعة المصرية البيان رقم واحد للثورة فى مصر عام ١٩٥٢ ....

وصوت بن جوريون الذى مدّ يده بالسلام إلى الثوريين المصريين الشبان .. وعاد يرن فى أذنى صوت زوجتى وقتما اتصلت بها تليفونياً .. فور القضاء على سلاح الطيران المصرى فى حرب الأيام الستة وطلبها لى بأن أذهب الى مدرسة الأولاد وإصطحابهم معى إلى المنزل.

وقف قائد حرس الشرف المصرى بقصر عابدين على بعد ثلاثة أمتار منى ، منذ نهاية السجادة الحمراء ـ الحمراء لوناً وليس دماً ؛ ووجه نحوى سيفه ـ سيف مصرى ـ علامة على

التحية العسكرية. وانتهت فرقة الموسيقى العسكرية المصرية من عزف نشيد « بلادى..بلادى» ونشيد « هاتكفاه » هذه المرة مختلفاً تماماً ، مميزاً أملى فى السلام و هو أمل شخصى بالنسبة لى . وملخص كل ذلك هو بذلك قصارى الجهد من أجل بناء السلام تخليداً لذكرى كل أولئك الذين سقطوا من أجله ولأمن أبنائنا وأحفادنا .

لقد نذرت نذراً لنفسى فى تلك اللحظة التى لاتنسى فى أول خطواتى فى القاهرة: وأحاول يومياً أن أروى ولو بقطرة ماء واحدة ، على غرار « الرى بالتنقيط » غرس السلام، وهذا الوحيد الذى تم غرسه منذ فترة ليست ببعيدة.....

التعليم من أجل السلام :

بعد حوالى عشرة أشهر سنصل إلى ٢٥ إبريل حيث نكون قد وفينا بعهدنا . نكون قد أحتومنا توقيعنا ونعيدلكم باقى سيناء .... وفقاً لميثاق السلام ، قلت ذلك للرئيس محمد أنور السادات فى أول حديث جرى بيننا فى ٢١ مايو ١٩٨١ فور تقديم أوراق إعتمادى . وهل فى نيتك سيدى الرئيس ـ هكذا سألت وبحذر ـ إقامة احتفال ما فى هذا اليوم ؟

قطع الرئيس كلامى قائلاً : احتفال سيدى السفير » قل احتفالات ؟ بل سلسلة احتفالات تكريماً بانقضاء الاحتلال ، احتفالات ليس ليوم واحد بل لسبعة أيام كاملة... تخليداً لذكرى التحرير ؟

فى هذه النقطة طلبت من الرئيس ... بكل أدب جم جدير به . أن ألقى على مسامعه ملاحظة : لحظة تأمل وبصوت مرتفع : سيدى الرئيس ، قلت ، من فضلكم لا تحولوا يوم فرحكم فى مصر إلى يوم حزن وألم فى إسرائيل ، هيا نحتفل بهذا اليوم ، احتفالاً.. ليس بإحتفال التحرير وانتهاء الاحتلال، وإنما إحتفال السلام والذى بفضله جاء الجلاء. فليحتفل الشعبان معاً بالإنجاز العظيم ، الشعبان اللذان سقط منهما عدد من قادتهما الشجعان...

وبدأ الرئيس السادات للحظة هادئاً كمن غرق فى تأملات بينما أخذ يجذب نفساً عميقاً..... نفس بعد نفس من غليونه المعروف ، وعندئذ ، وفجأة وبدون أى مقدمات نظر إلى نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية آنذاك، كمال حسن على وكذلك إلى منصور حسن، الذى عمل كوزير مسئول لشئون الرئاسة ووزيراً للإعلام فى مصر «كانا حاضرين مراسم تقديم أوراق الإعتماد» : «والله السفير صادق ومعه كل الحق ، لا شك فى ذلك... اعكفوا على دراسة هذه النصيحة وخططوا معاً لإحتفالات السلام . وأنت سيدى السفير، قال لى راجياً، هل المدرسة التى أقتحمتموها فى شرم الشيخ كبيرة ؟ من فضلكم حافظوا على هذا المبنى فإننى أريد أن يتم الاحتفال فى ذلك اليوم ويحتفل به معاً فى نفس المكان ، الف فتى وفتاه مصريين مع ألفا فتى وفتاه اسرائيليين ، وإننى لمحت فى كلامك أن التعليم من أجل السلام هو الأساس ، جيلنا هذا فعل الشئ العظيم ، والآن علينا أن نحافظ على السلام وأن نربى الجيل القادم على نور.

نحن وأنتم ـ معاً ـ سنكون الطلائع الذين ساروا أمام المعسكر فى منطقتنا . وعلى الباقين أن يأتوا خلفنا وأنهم حقاً لقادمون ، وإننى شخصياً مقتنع بذلك ، لا حروب ....

قواعد اللغه :

فى أول حديث لى مع الرئيس محمد أنور السادات ، وجدته لطيفاً جداً، بشوش الوجه، وفى حديث رسمى من هذا النوع للتعارف . يكون الهدف ، بشكل عام ، هو محاولة جس نبض من أجل التعرف على صديقك . كى تبدأ فى وضع دعائم العلاقات الشخصية المستقبلية التى من شأنها أن تخدم أهداف كل طرف ، وفى حديث للتعارف كهذا ربما يكون إكتساب إحساسى بالمهارة . وبناء الثقة المتبادلة هو الهدف الأكثر أهمية .

سيدى الرئيس » بدأت الكلام مستوضحاً كل كلمة لن أخفى عليك انفعالى الشديد فى هذه اللحظات وبالبساطة والود اللذين يخفيان بهما صوته تساءل من خلال مسحة من الجدية

والبساطة معاً عن سبب ذلك ، قلت سيدى الرئيس منذ أول ظهور لك فى الشارع السياسى أواظب على الإستماع إلى كل خطبك وفى كل المناسبات التى ظهرت فيها والتى نقلت عبر الإذاعة المصرية حتى يومنا هذا ..

أتذكر صوتك عندما تلوت البيان رقم واحد من إذاعة القاهرة فى ٢٣ مايو ١٩٥٢ ، ومنذ ذلك التارخ ، وفى أى مكان عملت فيه، فى القدس ، فى أثينا ، فى أنقرة ، فى روما لم أد ع أى خطاب لسيادتكم بما فى ذلك خطابكم الهام فى فبراير ١٩٧١ فى مجلس الشعب «أول خطاب لمح فيه السادات عن استعداده للسلام». وأننى لم أقرأ ملخصاً أو ترجمة لكلامكم فقد كنت أصغى إلى كل خطاب لكم بلغته الاصلية العربية لقد عشت سنوات طويلة بإحساس أننى أعرفكم سيدى الرئيس ، صحيح كانت معرفة من جانب واحد.. ولكنها معرفة سنين ، وهذا اللقاء اليوم ، يشكل بالنسبة لى نقلة من التعارف العقلانى إلى تعارف بلا وسيط طبيعى. وهذا الشئ أثار انفعالاً فى هذه اللحظات ، وهذا ما يجب أن نشكر الله عليه ونقول كما تقولون « الحمد لله » .

ولا زلت أتذكر ظهور الرئيس السادات فى الكنيست بالقدس إلى هناك فى نفس الوقت، مثل كل الذين وجهت إليهم الدعوة والمكان الذى خصص لى كان فى « كبائن المستشارين » التى توجد على جانبى القاعة . وفجأة وبعد لحظات قمت من مكانى وقررت الخروج ركضاً إلى الفناء ثم أستقليت سيارتى عائداً إلى منزلى بسرعة . وقمت بتشغيل جهاز التليفزيون بالضبط فى تلك اللحظة التاريخية فى الكنيست ، أردت أن أستمع إلى كل كلمة ، وأن أرى كل لمحة من ملامح وجهه ، كل تعبير وكل حركة حقاً كان شيئاً عظيماً .

ومشاهدتى لهذا الحدث من قاعة الكنيست سيكون دليلاً بعد ذلك على أننى كنت متواجداً ساعة القاء رئيس محمد أنور السادات لخطابه التاريخى ، ولكن على الرغم من ذلك كان مهماً لى بصفه خاصة أن أراه عن قرب .. كى أحاول تمييز وفهم ما يحدث ...

خلال تلك اللحظات العظيمة . وفى يوم من الايام سألت زوجته ـ السيدة جيهان

السادات ـ لماذا لم تأت معه إلى القدس ، رغم مرافقتك له فى كل سفرياته ، قالت :شعرت أنه من الأجدر أن تكون هذه المناسبة العظيمة له وحده فقط ، وأضافت ، شاهدته مثلك فى التليفزيون الذى صور كل قسمات وجهه من مسافة قريبة ، وهكذا استطعت أن أعرف جيداً ما يعتمل داخله فى تلك اللحظات العظيمة .

وفى حقيقة الأمر أردت بتلك الكلمات التى اوليت بها أيام الرئيس السادات في أول، حديث لنا عن « التعارف العقلانى » و« التعارف بلا وسيط » ، هدفاً واحداً ، أن ألمح للرئيس السادات أننى أعرف شخصه من زمن بعيد وأننى أتمنى أن تجرى المحادثات الهامة والكثيرة بيننا بصراحة حتى تسود ثقة كاملة بيننا .

وخلال حديثى الأول مع الرئيس السادات أبلغته رسالة شفوية من رئيس دولة إسرائيل آنذاك، يتسحاق نافون، وفى أثناء ذلك كنت محتاجاً لكلمة معينة بلهجة مصرية يختلف معناها عن العبارات الأدبية التى كانت على لسانى فى تلك اللحظة ، وهنا قاطعنى وقال لى بصوت أبوى فيما يوضح أنى أسأت الفهم « سيدى السفير ، لو كان والدك المرحوم الياس، قد استمع إلى هذا الخطأ لأخذك بيديه ، وأجلسك على ركبتيه وضربك على مؤخرتك....

وفى المساء أقيمت مأدبة عشاء رسمية على شرف وزير زراعتنا آنذاك، أريك شارون، الذى دعى إلى هناك فى نفس اليوم وكان من بين الضيوف الكثيرين الكاتب والصحفى المعروف أنيس منصور، الذى أجاد معرفة السادات أكثر من آخرين غيره.... وجدته يعلم بكل تفاصيل حديثى مع السادات، قال لى انه سوف يروى كل ذلك سألته، حتى رد الرئيس السادات على الخطأ اللغوى الذى بدر منى !!

أجاب أنيس منصور ، بطبيعة الحال ، الرئيس يعرف أن الكلمة والتى استخدمتها صحيحة من ناحية التعبير الأدبى ولا شك فى ذلك ، واستمر أنيس منصور يقول : أراد الرئيس السادات أن يلمح لك أنه قبل مجيئك حرص جيداً أن يدرس ماضيك ، لذلك ذكر إسم أبيك الخاص، وأنه أراد أن يلمح لك بأنه يعرفك جيداً. وأنه أراد أن يرمز لك أنه يشعر

تجاهك بثقة وينتظر صراحة متبادلة فى المحادثات الكثيرة والهامة التى ستدور بينكما .

لو لم أكن مشغولاً الان :

قبل سفرى إلى القاهرة ذهبت إلى رئيس الدولة ، السيد / يتسحاق نافون ، سواء من أجل وداعه او لأحظى ببركته ، فإننى ويتسحاق نافون صديقان منذ الصبا ، خدمنا معاً فى «الهجنا» ومنذ ذلك الحين نسجت بيننا أواصرصداقة عميقة ، فالوداع الشخصى من أفضل الاصدقاء والاستماع منه إلى نصائحه الطيبه فى غاية الأهمية بالنسبة لى .

وخصص الرئيس نافون الجزء الكبير من حديثى معه ، حسب طلبه ، للإستماع إلى إنطباعاته حول الزيارة الرسمية التى قام بها وبرفقته زوجته أوفيرا . منذ فترة ليست ببعيدة لمصر ونزلا خلالها ضيفين على الرئيس السادات وزوجته / جيهان السادات ، ويروى يتسحاق نافون ويصف الانطباعات التى تركتها فيه زيارته لمصر إلى جانب الصداقة الشخصية التى قامت بين زوجتى الرئيسين ، وجدته معنياً جداً بالمهمة التى أسندت الآن على عاتق صديقه . ومع ذلك فوجئت به فجأة متوقفاً عن الكلام وقال لى ببساطة : أعلم لو لم أكن مشغولاً الآن بمنصب رئيس الدولة ، لكننى سعيد جداً لأن أكون اليوم سفيراً لإسرائيل فى القاهرة.

وخلال الحديث لم يتوقف الرئيس نافون عن التأكيد على أهمية العمل خاصة وإننى أتحدث اللغة العربية ، فقال : « اللغة سوف تفتح أمامك أبواب وقلوب المصريين ، وذلك من خلال استعراضه معى لانطباعاته عن الزيارة التاريخية الأولى لرئيس إسرائيلى للقاهرة .

وأثناء خدمتى فى مصر لم أتذكر حديثاً واحداً لى مع الرئيس السادات ، مع زوجته جيهان أو مع الرئيس مبارك إلا وسألوا عن سلامة الرئيس نافون وزوجته أوفيرا وأن أبلغهم تحياتهم.

لقد تأكد لى أكثر من مرة ذلك الانطباع العميق الذى تركه الرئيس نافون ليس فقط لدى الرئيس السادات بل لدى مصريين كثيرين التقى بهم خلال زيارته للقاهرة . وترك انطباعاً خاصاً لدى أبناء الشعب الذين استمعوا إلى كلامه وشاهدوه على شاشات التليفزيون المصرى، وهيمنة الرئيس نافون وتمكنه من اللغة العربية كان مفاجأة للمصريين، روت لى السيدة/ جيهان السادات فى إحدى المناسبات ، أن رئيس إسرائيل يتقن اللغة العربية بشكل أفضل بكثير من معلمها اللغة العربية . والرئيس السادات نفسه أبدى ملاحظة فى نهاية الزيارة الرسمية لرئيسنا : لا شك أن ظهورك هنا فى القاهرة قد جعلك تستحوذ على قلوب أبناء الشعب المصرى ، إنهم يحبونك وهذا شئ طيب ويساعد على وجود السلام بين شعبينا .

قبل أن أودع الرئيس نافون طلب منى أن أنقل رسالة شفوية إلى الرئيس السادات : أن أؤكد له على مدى أهمية العمل المستمر الدءوب من جانبه بين الشعب المصرى من أجل إزالة آراء سابقة ضد إسرائيل ومن أجل السلام معها . وأوصانى بأن أقول أمامه بضرورة تشجيع زيارة أوساط المثقفين فى مصر لإسرائيل وأساساً تبادل زيارات الشباب بصفة مستمرة ... يجب أن يعتاد الشباب المصرى على السلام مع اسرائيل كحقيقة حياتيه مفهومة. وعلى المدى البعيد ، عندما يصل هذا الشاب إلى عمر العمل سوف يرى السلام كأمر طبيعي.

فى الطائرة مع الرئيس السادات :

موشيه . إحتفظت لك بمقعد فى طائرتى . سوف نطير معاً للقاء مناحم بيجن فى شرم الشيخ وسنعود معاً ، فى نفس اليوم ، إلى القاهرة ، قال لى الرئيس ذلك عشية لقاء القمة فى أوفيرا « شرم الشيخ » .

الطائرة الرسمية للرئيس السادات مقسمة إلى أربع كبائن : كبينة الطيار ، كابينة

الرئيس وفيها مائدة عمل وعدد من المقاعد وكابينة الضيوف الشخصيين للرئيس وكابينة إضافية كبيرة وطويلة جداً وفيها مقاعد لمرافقى الرئيس وللصحفيين الكثيرين الذين يرافقون الرئيس فى رحلاته.

وبعد إنتهاء المباحثات فى أوفيرا رافق رئيس الوزراء مناحم بيجن ضيفه إلى طائرته . سبقنا مسرعين لصعود الطائرة . كما هو مطلوب وحسب قواعد البروتوكول . وأخذنا مقاعدنا . وكان الرئيس ـ آخر الصاعدين للطائرة ـ بعد أن ودع رئيس الوزراء بالقرب من سلم الطائرة ودخل كابينته .

وعلى كل مقعد فى كابينه ضيوف الرئيس كانت توجد بطاقة كتبت بخط إسلامى «كوفى»: الإسم المخصص للشخص الذى سيجلس على هذا المقعد والمكان المخصص لى يقع فى أول المقاعد بالكابينة المخصصة لضيوف الرئيس . وجلس إلى جوارى ، جمال الناظر وزير السياحة آنذاك . وفى مواجهتى جلس رئيس مراسم رئاسة الجمهورية وبيننا الباب المؤدى إلى كابينة الرئيس .

وعندما بدأت الطائرة فى التحرك على الممر للإقلاع عائدة فى طريقها إلى القاهرة. استدعى الرئيس السادات الوزراء المرافقين له وكذلك صديقه المقرب أنيس منصور، للإنضمام إليه فى كابينته . وكل من الذين إستدعاهم الرئيس جلس على أحد المقاعد الموجودة حول المكتب الذى يجلس خلفه الرئيس وكان لطيفاً ، مليئاً بالثقة والحزم .

وكانت المسافة بينى وبين الرئيس أقل من مترين أو ثلاثة أمتار، وان كنا تجلس فى كابينتين منفصلتين . وبدأ الرئيس السادات يتحدث مع وزرائه عن محادثاته مع رئيسُ الوزراء بيجن . كان يتحث بصوت عال كى يتغلب على أزيز محركات الطائرة . وكان الباب الموجود بين الكابينتين مفتوحاً وسمعت كل كلمة قالها.

وهنا طلبت من رئيس المراسم : من فضلك أغلق الباب الذى يفصل بيننا وبين كابينة الرئيس همس رئيس المراسم المنزعج من طلبى : لو أراد الرئيس ذلك لأمرنى بعمله، واضاف

بحزم : لا يجرى مثل هذا الشئ عندنا ، لا أفعل ذلك بدون تعليمات واضحة من سيادة الرئيس ، وأنهى رئيس المراسم كلامه وغاص فى مقعده ، مصراً على رأيه ،

وفجأه قلت بنبرات تدل على الحدة ولكن بأدب إذا لم تقم لغلق الباب ، فسوف أفعل !!

ولكنه لم يتحرك حتى من مكانه ، بل أخذ يغوص أكثر فأكثر فى مقعده.....ولكننى بحركة سريعة تدل على أنى سأتخلص من حزام الأمان . كى أغلق الباب هنا بدأت تظهر على ملامح رئيس المراسم علامات الإقتناع ، وفى النهاية وبدون تردد هب واقفاً .. وبدأ يغلق الباب ببطء كمن يكتم أنفاسه بكفيه . وفى نفس الثانية نظر إلى الرئيس السادات مبتسماً إبتسامة خفيفة جداً وبدت على وجهه علامة الإرتياح وبدأ يومئ برأسه كمن يريد أن يقول : إننى من قبيل الأدب فعلت ، وأنت أيضاً فعلت ما هو مطلوب منك ، فى مثل هذه المواقف نشكرك على ما فعلت ... ثم أغلق الباب .

إمتياز :

خلال فترة عملى فى القاهرة تمتعت بإمتياز : فإننى كنت السفير الوحيد والأوحد من بين كل سفراء إسرائيل المنتشرين فى جميع ربوع العالم ، الذى يستطيع أن يأخذ سيارته ويسافر بها عائداً إلى الوطن ، إلى القدس . فلا يوجد سفير إسرائيلى آخر يتمتع بمثل هذا الامتياز.

إن المسافة من البيت الرسمى المخصص لسفير إسرائيل فى القاهرة ، بحى المعادى ، وبين شقتى فى شارع شلومو بالقدس لا تتعدى ٥١٨ كيلو مترا . لقد أعتدت أن أقود سيارتى صباحاً متوجهاً إلى البلاد ومع الظهر أشترك فى اجتماع بوزارة الخارجية فى القدس : من القاهرة إلى الإسماعيلية ، ومن هناك إلى القنطرة ، هناك نعبر القناه على عبارة، ومن القنطرة ـ طوالى ـ إلى العريش ، إلى شيخ زويد ورفح ، وهنا نجتاز الحدود

الدولية بين مصر وإسرائيل وبعد ذلك بساعتين تقريباً نكون على مشارف القدس . والطريق الموجود بين مصر وإسرائيل هو نفس طريق الساحل نفسه الذى سلكه أبونا إبراهيم إلى مصر.... ويوسف الذى التقطته جماعة من الإسماعيليين.... وأبناء أبونا يعقوب الذين ذهبوا إلى مصر لشراء الغلال وحتى أبونا يعقوب نفسه ـ وكل أهل بيته الذين ذهبوا معه إلى مصر. فى سالف الزمن كان هذا الطريق يطلق عليه « طريق حورس » .

لقد قطعت هذا الطريق عشرات المرات وفى كل مرة أتاثر من جديد وكان بالنسبة لى بمثابة رمز « طريق حورس » كان بالنسبة لى تجسيداً للإستمرار التاريخى ـ بدءاً من أيام أبونا إبراهيم وحتى أيامنا هذه .

« طريق الساحل » هذا ، بصورته الجديدة ، المزروع هنا وهناك يعود من آليات الحرب التى اعتلاها الصدأ والمحطمة تذكره لفترة المعارك ، يرمز بالنسبة لى ، وهو الطريق الذى تقطعه سيارتى فى أمان وسلام بكامل معناه وببساطة .

وبسفرى على هذا الطريق ، كانت تداعب قلبى صلاة صامته ، لن يكون اليوم بعيداً الذى « سيسلب » منى فيه هذا الامتياز. حيث سيجئ الوقت الذى سيكون لإسرائيل سفراء فى كل العواصم العربية المجاورة لنا... وعندئذ سيعم السلام فى كل ربوع البلاد .

لقاء فى منزل سفير إيطاليا :

٣١ ديسمبر ١٩٨١ . دعيت أنا وزوجتى طوفا لحضور حفل رأس السنة الميلادية بمنزل السفير الإيطالى فى القاهرة ، وكان المكان مزدحماً بالمدعوين المصريين والأجانب كل شئ كان ملفتاً للنظر : الصور الأصلية القديمة التى إزدانت بها الحوائط ، المقاعد والأرائك الوثيرة، والطاولات القيشانى التى وضعت فوقها صورة مبروزة للشخصيات التى تعرف عليها السفير طوال عمله. وفى إحدى القاعات ، قدمت موائد الطعام وعليها المأكولات

والمشهيات، وفى قاعات أخرى يتجول الجرسونات حاملين الصوانى وعليها كؤوس من مختلف المشروبات : المشروبات الكحولية للأقباط والأجانب ، وعصائر الفاكهه للمدعوين المسلمين . وكل الجرسونات يرتدون الجلابية المصرية الصعيدية الفضفاضة والطويلة وعمامة بيضاء تتناسب مع الحزام. والضيوف كانوا يرتدون البدلة السوداء السموكين ، فى حين أرتدت السيدات أبهى ملابس السهرات التى لديها وتنافسن فيما بينهن، تلك المنافسة المستترة اللاتى استعدين لها فى الوقت المناسب . والمنظر كله ـ رغم أننى معتاد على مشاهدة مثل ذلك طوال خدمتى ـ يثير فى كل مرة إحساس بصفحة جديدة من تاريخ العصور السابقة قد نزعت من مكانها ولا تزال محفوظة بطريقة اصطناعية، اصطناعية جداً ولكنها مثيرة . على أى حال كان مثلاً خاصاً جداً لاستقبال العام الجديد .

وقالت لى زوجتى أن أحد المدعوين المصريين اقترب منها وأعرب أمامها عن رغبته للتعرف علىّ ؟

تركتنى للحظة ثم عادت به . كان يبدو لى كمن بلغ الثمانين وأكثر ، يبدو مهيباً ، ملابسه تنم على أنه محافظ جداً، عليها الزركشة المتعارف عليها فى الأمد البعيد جداً ، سلسلة ذهبية مدلاة وطوفها فى جيب فوق صدره ـ تشهد عن وجود ساعة قديمة دليل على أنه فضلها عن ساعة اليد الأتوماتيكية لعصرنا هذا ، ذو شارب خفيف ولكنه مهذب بصورة جيدة وفى فمه ـ سيجارة فى مبسم من صنع فنان ماهر ، وتصافحنا .

قال لى بالعربية « سيدى السفير » عندما سمعت إسم السفير الإسرائيلى هو ساسون طلبت التعرف عليك كى أطرح عليك سؤالاً واحداً : هل تربطك صلة عائلية أيا كان نوعها بالياس ساسون؟ وقد تغلب على حب الاستطلاع والمفاجأة إحساس الحذر المهنى فى داخلى: قلت: فوراً سوف أرد عليك يا سيدى « ولكن من فضلك هل هناك سبب خاص بسببه تهتم بإلياس ساسون ؟ ولم يتردد الرجل وبدأ يقول لى : إلياس ساسون رئيس شعبة الشرق الأوسط فى الإدارة السياسية بالوكالة اليهودية. فقبل حرب ١٩٤٨ كان إلياس يزور القاهرة

فى أوقات متقاربة من خلال إقامة نظام روابط قوى يهدف لاقناع البلاط الملكى على توقيع معاهدة سلام مع إسرائيل ومن المقرر أن يقوم مستقبلاً ويخيل لى فى سنه ١٩٤٨ ، على أى حال قبل ثورة « الضباط الأحرار » بقيادة جمال عبد الناصر ـ استأنف إلياس ساسون إتصالاته مع البلاط الملكى بهذف التوصل إلى إتفاقية سلام . وكنت أعمل فى تلك الحقبة فى البلاط الملكى وفى مكتب رئيس الوزراء وكنت رجل الاتصال المصرى مع حكومة إسرائيل، ومن الجانب الإسرائيلى تولى هذه المهمة الياس ساسون الذى كان يعمل آنذاك من قبل وزارة الخارجية الإسرائيلية . وكان مكتبه فى تلك الفترة فى باريس . وقد بذل إلياس ساسون آنذاك جهوداً كبيرة جداً من أجل تحقيق إتفاقية سلام بين مصر الملكية وبين إسرائيل الجديدة . ونحن المصريون ـ اختتم الرجل كلامه ـ كنا نثق جداً بالياس ساسون وإننى عرفته وإحترمته جداً صراحته، كان جل اهتمامه منصباً من أجل تحقيق السلام، وقد نشأت بيننا صداقة عميقة وعندما سمعت أن إسم السفير الإسرائيلى الجديد فى القاهرة هو ساسون، انتظرت الفرصة المناسبة كى أسأل عن صحة صديقى إلياس ، ألا يزال حياً؟ وكيف حاله ؟ وهل توجد صلة قرابة تربط بينكما ؟

والحقيقة أقول تأثرت وأنفعلت لدرجة أن الكلمات تاهت منى . وإذ بطوفا « زوجتى » تتابعنى ، وإرتشفت رشفة صغيرة من الكأس التى كانت بيدى وقلت : نعم... قرابة شديدة... شديدة جداً إلياس ساسون هو والدى . وعند سماع كلامى جاء دوره فى الانفعال. وقام وأمسكنى بكلتا يدية وأخذ يقبلنى مرة ومرة وعندما هدأ انفعالنا من هذا اللقاء الحار والخاص من نوعه لاحظت أن الضيوف الكثيرين المحيطين بنا ينظرون إلينا ومندهشين من الأحضان العنيفة بين سفير إسرائيل وبين شخصية مصرية جاءت من الزمن البعيد . وأخذت أروى له عن والدى وعن عمله حتى وفاته . وقال الرجل لى : المثل المصرى يقول «اللى خلف ما متش» ، وأننى سعيد أن أراك هنا فى القاهرة وفى هذا المنصب . أتمنى لك التوفيق والنجاح فالياس لم يفز ، وأننى سعيد بأن إبنه هو الذى فاز وأجبت قائلاً : المثل العبرى

يقول: «الخير أبقى وإن طال الزمان به»..... والمثل المصرى المقابل له يقول : «إعمل الطيب وأرميه فى البحر » ، هذا ما فعله والدى.

والدى لم يفز بشئ- قلت لمحدثى العجوز- ولكنه شاهد زيارة السادات للقدس فى التليفزيون وهو قابع على كرسى متحرك إن والدى كرس كل حياته لموضوع واحد ووحيد- للسلام بيننا وبين جيراننا . وفى أواخر أيامه كان والدى وزيراً فى حكومة إسرائيل وأيضاً ورد إسمه كمرشح لمنصب الرئيس .

وإننى مقتنع لو أن والدى خير بين الوظيفتين- وزير فى الحكومة أو كسفير فى مصر- لأثر أن يكون هنا فى القاهرة .....

وعندما ابتعد منى الرجل انتبهت إنه لم يذكر لى إسمه ومن منطلق الأدب ، وربما نتيجة للانفعال الذى سيطر علىّ .لم أسأله عن إسمه وهكذا صرت لا أعلم شيئاً عن شخصية الرجل، وأن كنت قد استنتجت أنه على ما يبدو كمال رياض الذى وصل فى سبتمبر ١٩٤٨ من القاهرة إلى باريس- كمندوب للبلاط الملكى المصرى- كى يقيم مع والدى إتصالات مسبقة وسرية لمفاوضات محتملة حول السلام بين مصر وإسرائيل . اتصالات جرت مثلها أيضا فى تلك الايام البعيدة مع سوريا ومع الأردن ، ولكنها لم تثمر عن شئ .

وبعد أن ودعت الرجل لم أر أنه من الكياسة أن أركض خلفه كى أسأله عن أسمه، ولكننى ذهبت إلى مضيفنا، صديقى سفير إيطاليا ، ورويت له عن هذا اللقاء المثير الذى دار تحت سقف منزلة وسألته عن شخصية الرجل. وكان السفير الإيطالى قد دعا إلى منزلة عدداً كبيراً من المصريين ولم يعرف من المقصود من بينهم ومن جانبى أثرت ألا ألح فى هذا الأمر إن الغموض وعلامات الاستفهام كانت مناسبة على هذا اللقاء الإنسانى والمثير .

بهجة الصبا :

قبل اسابيع قلائل من إختراق الجيش الإسرائيلى لحدود لبنان فى عملية «سلامة الجليل» استضفت فى منزلى، الكائن بحى المعادى حوالى سبعين من الشباب المصرى وحوالى ستين من الشباب الإسرائيلى. كان ذلك ، كما يخيل لى ، أفضل حدث ساهمت فيه بقسط كبير خلال فترة عملى الممتدة فى القاهرة .

فتيان وفتيات من المصريين والإسرائيليين غالبيتهم تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة ، بهجة الشباب والصبا . فرحة وغبطة الحياه- شباب إسرائيلى- مصرى. يشعر بكل وجدانه بجوهر السلام بمعناه الكامل . شباب مفعم بالآمال متحرر من الخوف. شباب مندهش من عظمة الانقلاب التاريخى الذى طرأ فى مبادرة زعماء شجعان جميعهم إحتسوا العصائر ، عصير التفاح ، الكوكاكولا، «الكركديه» (مشروب شعبى مصرى ضارب الحمرة) وتناولوا الكثير من الفطائر وبدون أى مشروبات كحولية ، لقاء ناضج لشباب تعب من حروب جيله بعد الخطوة الأولى ، المتواضعة ولكنها خطوة قوية فى طريق طويل عليهم أن يقطعوه .

ومع حلول موعد إنتهاء اللقاء . وعلى حشائش حديقة منزلنا ، الخضراء والمليئة بالزهور بينما رشاشات لتوزيع المياه تروى الحديقة- وحتى ضيوفها الصغار- جلست على سلالم منصة صغيرة موجودة فى طرف الحديقة وطلبت الضيوف الإسرائيلين والمصريين أن يجلسوا من حولى على الحشائش . وهذا المنظر بالنسبة للشباب الإسرائيلين كان أمراً طبيعياً أم بالنسبة للضيوف المصريين الشبان كان يبدو منظر جلوس السفير علي الحشائش أمر غير مألوف.

أردت أن أقول للجيل الواعد قليل مما يعتمل فى قلبى.... فى البداية توجهت بالكلام إلى ضيوفنا من الشباب المصرى ، تحدثت إليهم بلغتهم ولكننى حرصت على القاعدة «عبارة تم ترجمة لها».

أبنائى - توجهت إليهم بنفسى ما هو متبع فى مثل هذه المواقف فى الدولة المضيفة لنا «التقيتم اليوم مع فتيان وفتيات من دولة جارة ، حقاً غنيتم أناشيد السلام والمحبة، تأكدتم أنه فى داخلكم لا توجد نغمة لا توجد فى قلوبكم إلا صلاة للسلام الحقيقى. وهذا كل ما أطلبه منكم، حقيقة وجودكم هنا فى منزلى. منزل سفير إسرائيل، وساهمت بجزء فى فرحة السلام، هى أفضل دليل على الأمل والرجاء اللذين يجولان فى خواطركم. ولكن هناك حقيقة واحدة ، والمطلوب منكم محاولة فهمها ألا وهى إنه يوجد عندنا وعندكم واقع يتسم بعدم الانسجام فإنه من فرط السعادة إن دولتكم تحولت ، بعد التوقيع على معاهدة السلام إلى دولة يعم كل حدودها السلام، بينما بقيت دولة إسرائيل لا تنعم بسلام إلا عند حدودها الجنوبية ، وعند باقى حدودها توجد دول لا تكن لها إلا العداء والاستعداد للحرب وبعضها آلت على نفسها القيام بمغامرات خطيرة وعنيفة . واصلت القول: قد يجد يوم وتجد إسرائيل نفسها ورغماً عنها تخوض حرباً مع دولة أو أكثر من الدول العربية الأخرى المجاورة لها، عندئذ يستدعى إصدقاؤكم الذين أنشدتم معهم نشيد السلام والأمل إلى الحرب. وأود أن تعلموا أن هؤلاء الشباب الذين يستدعون للجيش - ليس حباً فى القتال وليس من منطلق سفك دماء الأخرين ولكن من خلال رغبة طبيعية لدى كل إنسان للدفاع عن نفسه ضد أى عدوان ، إنهم سوف يواجهون إختبار الدفاع عن حياتهم ، اختبار أداء الواجب قبل وطنهم بينما تواجهون أنتم اختبار ثقة بأن زملاءكم إستجابوا لنداء الواجب . الواجب الذى بالتأكيد سوف يستجيبون لندائه والعياذ بالله لو قصف معتد مدنكم وشق الطريق للتغلغل إلى بلدكم من أجل تدميرها ، سيطلب من أصدقائكم الإسرائيليين ، فى تلك اللحظة القاسية ، الشجاعة والتضحية من أجل إنقاذ حياتهم وحياه وطنهم ومنكم سيطلب فى تلك اللحظة الصعبة شجاعة وقدرة على التغلب على عاصفة المشاعر المتأججة داخل قلوبكم .

وبعد أن قمت بترجمة هذه الكلمة إلى العبرية ، توجهت إلى الشباب الإسرائيلى من خلال وعد للشباب المصريين بالترجمة أيضاً لهم ، بلغتهم ، ما أنوى قوله لأصدقائهم : «أيها

الأصدقاء الشبان ، إن السلام مع أكبر دولة عربية فى منطقتنا ، أول سلام هو بمثابة معجزة لا تصدق . لو سألتمونى، هل فكرت فى يوم من الأيام أن أعمل كسفير فى مصر.... لقلت كنت أتمنى .. والحمد لله أنتم هنا فى منزل سفير إسرائيل فى القاهرة ، وأطلب منكم شيئين :الشئ الأول أن تحافظوا بكل وجدانكم على استقلال إسرائيل وكذلك على واقع السلام مع مصر والشئ الثانى الذى أطلبه منكم هو لو أن الحظ لم يقدر لأبناء جيلنا مواصلة عمل وخلق علاقات سلام مع كل جيراننا ، فعليكم أداء هذه المهمة وإعتبارها مهمة لانهاء حالة الحرب - وأن تكون الهدف الرئيسى الماثل أمامكم وإذا وقعت حرب مع إحدى الدول الأخرى المجاورة لها ، سيكون لزاماً عليكم إدارتها باسلوب وبطريقة تضع فى الاعتبار حقيقة وجود السلام مع المصريين وسياسة الوضع الذى يجدون أنفسهم فيه - كعرب - من خلال علمى إنه لو عرفتم كيف تحسبون خطواتكم وإجراءاتكم كما ينبغى سوف تتقنون دولتنا وتعرفون ضرورة ألا يضرون بذلك السلام ، كى لا يحكم عليكم وعلى أبنائكم وأبناء أبنائكم إن يحيوا لأجيال كثيرة حاملين حرابهم .

وعندما اختتمت ترجمة كلامى للعربية تفجرت فجأة أغنية غناها الشباب معاً ، من خلال حماس وتمسك بإسلوبها وبمعناها « السلام عليكم ..... السلام عليكم » .

وكنت منطوياً على نفسى ... بينما يحيط بى مائة وثلاثون شاباً مصرياً وإسرائيلياً ، نظرت وتأملت هذه الظاهرة العظيمة للشباب السعيد والمنشرح دون أن يخطر على باله ذلك الواقع المؤلم الصعب فى منطقتنا التى تحيط بنا وبهم - ذلك الواقع الذى يفرض نفسه على أمانى ورغبات الشباب - تلك الأمانى والرغبات الحقيقية .

وبعد عدة أسابيع اندلعت تلك الحرب « حرب سلامة الجليل » .

أوانٍ فخارية محطمة :

أنا وزوجتى طوفا تحب الأشياء الأثرية خاصة تلك التى لها صلة بأرض إسرائيل وشعب إسرائيل . رغم أننا أبعد كثيراً من أن يكون هذا الاهتمام اهتماماً مهنياً، وربما لا نستحق تعريف « هواه » . أقول ذلك ببساطة أسعد لحظاتنا إن نجد أنفسنا أمام آنية تكون لها صلة بماضى شعبنا . وبالفعل طوالى خدمتى خارج البلاد جمعنا بعض الأوانى الفخارية التى ليس لها قيمة ملية ولكننا أحببناها وصاحبتنا طوال عملنا فى العواصم المختلفة التى قضينا فيها مهمتنا وبينما فى كل رحلة تتحطم بعض هذه الأوانى... ولكن خيراً أن نبقى مع بقايا هذه الأوانى حتى على الرغم من أنها محطمة أفضل من إبقائها أو تخزينها فى القدس ونتنازل عن هذا الدفء وجئنا إلى مصر ومعنا تلك الأوانى الفخارية .

أنيس منصور كاتب مرموق صحفى قوى الملاحظة ثاقب الرؤية ، رجل خبير بالتاريخ اليونانى القديم والعالم القديم ، فيلسوف لامع ونشط قادر على أن يكتب يومياً عموده الثابت فى صحيفة الأهرام دون أن يكرر نفسه لو مرة واحدة بينما ينقل لقرائة دروساً وعبراً كأحد المعلمين الكبار لهذا الجيل فى مصر ، قد لاحظ على الفور فى أول زيارة له لمنزلنا هذه المجموعة من الفخارية المتناثرة فى أركان منزلنا وأننى اعتبر كل قطعة أو آنية فيها كجزء من ذاتى أخذته بيدى وسرنا معاً بينها ، وبينما أخذت أشرح له تاريخ وجود كل قطعة منها وجدت نفسى أعبر عن نظرتى الشخصية لأنية محطمة تم تجيمعها حتى كادت ان تكون سليمة، فان سلامة القطعة ليست هى الشئ الذى يهمنى بقدر ما يهمنى مغزاها ، وعلى الرغم من عيوبها فإنها قطعة منى ومن تاريخ شعبى إذاً كيف تعرف تاريخ شعب إسرائيل طوال الفى سنه ـ سنوات النفى ـ إذا لم تكن هذه الأوانى الفخارية الأثرية العظيمة التى تحطمت وأعيد تركيبها من جديد بكامل حيويتها ومناظرها القديمة .

« ما هذه القطعة الفخارية ذات القاعدة الكبيرة » ؟ سأل أنيس منصور بحب استطلاع بينما خشى أن يلمسها مشيراً إليها من بعيد . أخذت الآنية بكلتا يدى ونقلتها لأنيس

منصور، هذه القطعة اشتريتها من طهران بخمسة دولارات أمريكية . ففى سنه ١٩٦٠ دخلت مع صديقى محل عاديات وطلبت من صاحب المحل شراء قطعة من أيام الملك قورش. مجرد تطعةمن عصر قورش ليس إلا قلت ذلك لأنيس . سأل أنيس : ولماذا بالذات من عصر الملك قورش ؟ أجبته قائلاً : لأن قورش كان صاحب وعد بلفور الأول . لأنه أول من أعطى عن طيب خاطر العلامة والأذن الملكى لعودتنا إلى بيتنا ! وطننا ، اندهش أنيس قائلاً كم أنتم غريبين يا أبناء إسرائيل ! حتى قورش ؟ الم نكتف ببلفور القرن العشرين ؟

بعد سنوات قليلة فى الفترة التى كان فيها الرئيس مبارك يتحدث فى كل خطبه عن تشجيع التصدير المصرى بينما هو فخور بعبارة « صنع فى مصر » وجدت نفسى أقول لأنيس منصور ! الصهيونية هى فى أصلها « صنع فى مصر » لأن أبانا موسى تزوج فى بيت فرعون هناك ، وهناك تعلم وتربى، ونحن كأمه ولدنا على أرض مصر على سفوح جبل سيناء كيف تتنكرون وأيضاً تحاربون السلعة أو المنتج الذى نشأ وتربى هنا على أرضكم .

استمع أنيس منصور كمن ركبه الشيطان وهو الذى يحب التحديات والألغاز الثقافيه وفى كتاباته يؤمن المثل القائل خالف تعرف ... وقال متعجباً : أعلم ربما تكون هذه حقيقة تاريخية . ثم رد أنيس بعبارة فيها تردد كبير . من فضلك لا تكرر ذلك فى مصر وفى هذا الوقت... فلكل نبوءة وقتها ، عند هذه النقطة وجدت نفسى أروى لأنيس منصور المقولة الشهيرة المعروفة عن « أحدهاعم » عن أبانا موسى « عن الحقيقة الأثرية » وعن « الحقيقة التاريخية » ، ولن يقلل هذا شيئاً من الواقع التاريخى لموسى المثل ، الذى قادنا ليس أربعين عاماً فقط فى صحارى سيناء ، بل ألفى سنة فى كل الصحارى التى طفنا فيها من مصر حتى هاهنا .

الفصل الثانى

اصداء من زمن مضى

أمام العرش «حوار بين الحكام»:

- كتاب جيب عدد صفحاته ٢٠٨ صفحة .

- ثمنه جنيه واحد مصرى.

- مؤلفه - من كبار الأدباء المصريين اليوم - نجيب محفوظ .

- إسمه : أمام العرش « حوار بين الحكام » .

يخيل أنه معجزة سياسية تعبيرية مصرية فى الأدب المصرى الحديث أجمل من هذا الكتاب ، الذى يعد إنشودة لسيرة حياة محمد أنور السادات : إستعادة الأرض وإحلال السلام .

فى قاعة « محكمة التاريخ » جلس على كرسيه الوثير الإله أوزوريس وإلى يمينه يجلس الألهه أريس وعلى يساره يجلس الإله حورس وعلى مسافة ما يجلس « تحوت » كاتب المحكمة.

أمام هذه المحكمة يجئ الاديب نجيب محفوظ بعظماء من عظماء مقام مصر ، واحد بعد الأخر ، معاً ممر الأجيال منذ وجود مصر وحتى عصرنا هذا .

يطلب الإله أوزوريس من كل واحدمن هؤلاء الحكام أن يقول فى جملة واحدة : ماذا فعل لوطنه ، فى حين ان الإلهين الأخرين أزيس وحورس يحققان ، يعترضان أو يؤيدان .

وأول الحكام الذى مثل أمام محكمة التاريخ كان الملك مينا الذي سجلت المحكمة فى وضعه كأعظم ملوك الأسرة الأولى ، الذى قاتل الليبيين وهزمهم ، هزم مصر العليا ، وضمها إلى مملكته وتوج نفسه لأول مرة ملكاً على كل مصر ، وظهر بعده أمام المحكمة الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة ، مكتشف مناجم النحاس فى الصحراء الشرقية ، بانى الهرم المدرج الأول ، وبعدهما وقف الملك خوفو مؤسس الاسرة الرابعة ، وبانى الهرم الأكبر فى الجيزة، والذى يقول عنه نجيب محفوظ بواسطة كاتب المحكمة تحوت : « هذا هو خوفو الذى أقام

إدارات عظيمة لم يعرفها المصريون مطلقاً لا قبله ولا بعده » .

وهكذا استمرت المحكمة حتى وصلنا إلى عصرنا هذا ، فقد ظهر أمام نفس هذه المحكمة أيضاً الرئيس جمال عبد الناصر والرئيس محمد أنور السادات .

يصنع نجيب محفوظ فى الجانب الأيمن من المحكمة ، فى خياله ، صفاً طويلاً من المقاعد، الإله أوزوريس « والذى كان يحكم حسب العقيدة الفرعونية مصير كل إنسان على الأرض، يحكم هذه المرة باحكام على حكام مصر حسب أفعالهم . ويجلس على هذه المقاعد الخالية فى قاعة المحكمة هؤلاء الحكام الجديرون بالفوز بحياه أزليه في حياه الأمة المصرية، فيظهر أمام المحكمة الملك أمنحوتب الأول رئيس المملكة الوسطى الذى طهر الدولة من الخونة ، يظهر أيضاً الملك أحمس الذى قاتل قبائل الهكسوس ، والملك اخناتون، يقف أيضاً مع زوجته. كلاهما حاولا تحديد الإيمان بإله واحد وأوحد هو إله الشمس . والفرعون رمسيس الثانى يظهر أيضاً : حارب الحيثيين ، ووقع معهم معاهدة سلام وكرس حياته بعد ذلك لبناء البلاد ولتطويرها بمعدلات لم يعرفها المصريون على الإطلاق .

والحكام الذين برأ ساحتهم نجيب محفوظ بوسطة الإله أوزوريس للجلوس على كرسى الخلود من حقهم أن يعرضوا أسئلة على أولئك الحكام ظهروا بعدهم ، أمام محكمة التاريخ :

سأل الملك مينا الرئيس جمال عبد الناصر : كان اهتمامك بوحدة العرب يفوق اهتمامك بالوحدة المصرية ، حتى أسم مصر الخالدة قمت بمحوه بجرة قلم وتسببت إيضاً فى هجرة عدد كبير من أبناء مصر إلى خارجها ؟

وقال عبد الناصر محاولاً الدفاع عن نفسه : الحقيقة هى أن التاريخ الحقيقى لمصر لم يبدأ الا مع ثورة يوليو ١٩٥٢ وعند سماع هذه الكلمات من عبد الناصر حدثت ضجة ـ كما يصف نجيب محفوظ ـ بين كل حكام مصر، واضطر رئيس المحكمة إن يطلب من الحكام النظام والهدوء والاحترام لكل رأى يقال هنا مهما كان ، ولكن الملك خوفو بعد أن هدأت ثائرته لم يسمح لعبد الناصر ان يتجرأ ويلغى بجرة قلم كل التراث الخاص بمصر طيلة سبعة

ألاف عام ـ وقف خوفو يقول : ما معنى هذا الكلام الذى خرج من فم هذا القاتل ؟ من فضلك توجه رئيس المحكمة إلى الملك خوفو ـ إنك الآن لا تجلس على عرش محكمتك. صح!!!

وعاد الملك خوفو يقول : عفواً .

كشف الملك تحتمس الثالث عن حب استطلاع وعبارات اقتصادية عند توجيهه كلاماً إلى جمال عبد الناصر: على الرغم من التعليم العسكرى الذى حصلت عليه ، وحققت إنجازات في قطاعات مختلفة كثيرة بإستثناء القطاع العسكري ، علاوة على ذلك، فإنك فى نظرى لست بالقائد العسكرى المهيب .

أشار أمنحوتب ، وزير التنمية لدى الملك زوسر ، إلى عبد الناصر قائلاً : كان ينبغى عليك الامتناع عن هذه الحروب أو التحرش بالدول الكبرى ، هنا رد عبد الناصر بقوله : هذا الكلام يتعارض مع أهدافى ، وأضاف علاوة على ذلك إنهم خدعونى أكثر من أى وقت مضى، ويرد نجيب محفوظ ، بعبارة تعجب. التبرير أسوأ من الخطأ نفسه .

إخناتون ، الملك الذى دعا إلى دين جديد يقول على المحبة والسلام والمساواة ، توجه إلى محمد أنور السادات : « إننى أباركك كرجل سلام ، وأننى لست مستغرباً لما اتهموك به معارضوك من خيانة ... فإنى نفسى اتهمت بنفسى التهمة ولنفس السبب !!

وتحتمس الثالث ـ الذى وصفه التاريخ الفرعونى ـ كأنسان حكم بيد من حديد ـ وأقام فى مصر جيشاً وسلاماً بحرياً لم يكن لهما مثيل من قبل توجه أيضاً إلى محمد أنور السادات : انتصاراتك تذكرنى بالانتصارات التى حققها رمسيس الثانى الذى توج حروبه بمعاهدة سلام ، واتخذ له زوجة إحدى بنات ملك الحيثيين .

كما توجه أيضاً رمسيس الثانى بسؤال إلى أنور السادات : « كيف سمحت لنفسك أن تنظر إلى عصرك بهذه الصورة الخيانية ؟ يرد عليه السادات : « لقد اتخذت هذا الموقف لما لم يكن هناك إى أختيار لأن هدف سياستى فى الواقع كان لتصحيح المفاهيم التى ورثتها من حقبة حكمك !!

وفى النهاية يمكن نجيب محفوظ من رئيس المحكمة ، الإله أوزوريس بتلخيص المناقشة:

«إذن هذه حياة مصر وتاريخها منذ توحدت البلاد فى عهد الملك مينا وحتى أعادت لنفسها فى النهاية كامل حريتها فى عهد السادات ! ويتوجه الإله أوزوريس لنفس الحكام الجالسين على مقاعد الخلود : « هل يود أحد منكم أن يعبر عن تمنياته لمصر ؟

الملك إخناتون : « أتمنى للمصريين التمسك بالإيمان باله واحد » .

الملك مينا : « وحدة البلاد والشعب » .

الملك خوفو : « يجب على المصريين أن يؤمنوا بالعمل كقيمة ، القيمة التى بواسطتها أقمت هرمى وبواسطته تستمر مصر فى البناء » .

امنحوتب وزير الملك زوسر : : على المصريين أن يؤمنوا بالعلم لأنه هو القوة المحركة التى تقف وراء حياة خلودهم » .

جمال عبد الناصر . « ليت العلاقات بين المواطنين تقوم على العدل الإجتماعى المطلق»
محمد أنور السادات : « سيكون هدفنا : الثقافة والسلام » .

هذه القصة صورت فى مصر ، بعد شهور قليلة من ظهور الكتاب الذى يقطر غضباً وحقداً على السادات خريف الغضب بقلم جمال عبد الناصر ـ محمد حسنين هيكل.

وفى إحدى لقاءاتى مع السيدة جيهان السادات سألتها ، بعد ظهور كتاب نجيب محفوظ بفترة وجيزة ، عما إذا كانت قد قرأته وفى نفس اليوم أرسلت لها التحية ، بعد أن تبين أنها لم تعلم بصدورها . وعندما زرتها مرة أخرى بعد بضعة أسابيع ، حكت لى أنه التهمت الكتاب فى اليوم الذى أرسلته إليها ، وإنه فى غداء اليوم التالى دعت الأديب نجيب محفوظ . قالت جيهان السادات « أنه لم يتعجب على الإطلاق إن يسمع منى أن أول سفير قرأ كتابه ، هو السفير الإسرائيلى . وأضافت السيدة « جيهان » نجيب محفوظ هو أحد عظماء جيلة ، و إنه مؤيد متحمس بالخطوة التاريخية لانور ـ السلام مع إسرائيل . إنه مقتنع

مثل أنور فى حينه ـ أنه سيجئ يوم وسيكون هناك سلام بين كل الدول العربية وبين إسرائيل .

شاهد إسرائيل :

عندما عينت سفيراً لإسرائيل فى إيطاليا شعرت أنه لا توجد مدينة فى العالم كله ، خارج أرض إسرائيل ، يمكن أن يقف أحد أبناء الشعب اليهودى أمام ماضيه التاريخى مهما يكن فى روما فى الأماكن الأثرية ، المتناثرة فيها والتى تعد شاهد حى ومجسد لماضى أمتنا .

هكذا عندما وصل إثنان من يهود المكابيين إلى كامبيوليو وهما الكهنه أويولوس بن يوهانان بن هاكوتس وياسون بن اليعازر من أجل التوقيع مع الرومان على تحالف دفاعى من الشر الذى قد ينطلق ، إيضاً أنذاك ، من الشمال وهكذا إيضاً « المامیرتینوم » ـ وهو السجن العتيق الذى أودع فيه شمعون بارجيورا من القدس قبل إعدامه ، وهكذا ايضاً السراديب اليهودية كان بعضها تحت حديقة « ميلاتورلونيا » ـ « قصر موسولينى » وعندما يمر ذهبنا إلى روما عام ١٩٧١ كتب لنا صديقى يتسحاق نافون : إنكم ذاهبون لإستحواذ قلوب الرومانيين من أجل صهيون. صلواتى ودعواتى لكم .

وعندما عينت سفيراً فى القاهرة كانت تداعب خواطرى أفكار أن أجد فى مصر بعض بقايا الماضى ... ماضى شعبى ، وبطبيعة الحال لم يذكر إسم فرعون ٢٤٧ مرة صدفة فى الإسناد . شئ ما عن الازمة التى اجتاحت كل البلاد أيام يوسف ، وربما التلاوة الذهبية التى منحها له الفرعون له عند تعيينه ، وأين صندق موسى ؟ كنت تواقاً لأن أجد ذلك ، رغم علمى بأن كل الحفريات الأثرية عن تلك الحقبة لم تظهر شيئاً كما كنت أظن .

سافرت بالفعل إلى القاهرة بدون أوهام كانت تراود قلبى بعض الامال.. ومن يدرى !!

إبراهيم وموسى ويوسف عاشوا فى مصر قبل ثلاثة آلاف وخمسمائة عام او قبل اربعة آلاف عام.

إذا يتعلق الامر إذا كان كذلك بمفاهيم آلاف السنين فى حين إن الاكتشافات الاثرية الفرعونية لم تكشف وتحل شفرتها إلا قبل فترة زمنية قصيرة جدا ، نسبياً . ويقول العالمون ببواطن الأمور لى إن عملية الكشف عن الاثار فى مصر لازالت فى بداية طريقها يقولون إن الحكومة المصرية حددت فى العقود الاخيرة مساحات من الاراضى التى خصصت للحفر . وهذه المساحات تزيد على اربعمائة الف دونم ولكنهم يقولون لى أيضا ، لو استمرت عملية الحفريات فى مصر بمعدلها الحالى، سوف تمر مالايقل عن ألفى سنة حتى تنتهى اعمال الحفر عن الآثار التى لاتزال مطمورة فى باطن الأرض ، مع ذلك من يدرى ربما يجئ يوم وتظهر فيه بقايا الاثار التى تطلع إليها وشعر بدفئها ولمس أيضاً عبيرها جذورنا التاريخية.

وأخرون يقولون لى أنه نظراً لأن أبناء يعقوب لم يزد عددهم على سبعين شخصاً عندما نزلوا مصر فإن ذلك له أهمية فى نظرنا ولكن في عيون الفراعين حكام الدولة العظمى فى ذلك الزمان لم تكن إلا كأحد الاسباط الأسيوية الصغيرة والكثيرة التى جاءت من كل حرب .

ولذلك لم ير الحكام فى ذلك الحين حاجة لذكر وجود هذه القبيلة التى جاءت ومضت فى بلادهم.

وكذلك يقولون أن الفراعنة مثلهم كحكام جاءوا من بعدهم يحرمون كتابة تاريخهم تخليداً لانتصاراتهم وإنجازاتهم فقط ، دون ذكر لهزائمهم . وما حادث الحصان ومن يمتطيه وغرقهم فى البحر ببعيد ، وهو حادث لا يحوز التفاخر به فى نظرهم .

وعلى كل ذلك اضطررت ، بالاكتفاء بما هو موجود ، وهذا الموجود هو حجر من البازلت الأسود والضخم ، منذ ١٢٢٥ قبل التاريخ ، الموجود اليوم فى الجانب الأيمن بالقاعة الرئيسية للمتحف القومى فى القاهرة . وعلى هذا الحجر الذى يطلق عليه الشاهد من إسرائيل » تظهر ، مرة واحدة وحيدة ، وفى كل الحفريات الأثرية المصرية، «كلمة

إسرائيل» وبالكتابة الهيروغليفية يصف الفرعون مرنبتاح ، ابن فرعون موسى الثانى وحاكم مصر من بعده، إنجازاته فى حملاته لاحتلال سوريا ، ومن بينها احتلال وتدمير إسرائيل فى طريقة شمالاً، وهكذا كتب هناك : « الأمراء يبحثون ويركعون ويقولون الرحمة »

« لا أحد يستطيع أن يرفع رأسه بين المعابد التسع »

« كنعان ، بكل شرورها ، سقطت مساوية للأرض »

« عسقلان إحتلت »

« جزر أخذت أسيرة »

« إسرائيل صارت جرداء - لا زرع فيها »

« هورو كانت أرملة فى مصر »

« كل الأراضى ، جميعها ، أمنه »

وبعد ايام قلائل من وصولى القاهرة ذهبت إلى المتحف كى أقف أمام هذا الحجر . رأيت أن كلمة « إسرائيل » باهتة . على ما يبدو من لمس أيدى السائحين الكثيرين الذين يجيئون من إسرائيل . وكان أول رد فعل لدىّ غضب داخلى من ذلك الزائر للمتحف الذى يسمح لنفسه بأن يعبث بالمعروضات التى تنطبق عليها قاعدة للمشاهدة فقط . ولكن كنظرة عابرة مضى إحساس الغضب وبصعوبة شديدة - شديدة جداً - ومنعنى من ألا ألمس أو أربت أو أجس بأصابعى مثل هذا الشئ النادر منعنى ذلك الصوت القادم من بعيد من أكثر من ثلاثة آلاف عام .

وبعد أيام قمت بزيارة للبروفيسور حسن رجب ، الذى كان سفيراً لمصر فى موسكو، ترك وزارة الخارجية المصرية ، وكرس حياته للبحث ولانتاج ورقة بردى بصورتها الأصلية ، سافر البروفيسور رجب إلى السودان وأخذ من هناك شتلات من نبات القنب الذى لا يزال موجوداً فى السودان حتى عصرنا هذا وأقام فى القاهرة ، على مياه النيل، مصنعاً لإنتاجة

ويقوم البروفيسور حسن وأخوه الأصغر منه اليوم بإنتاج ورق البردى بالطريقة التى استخدمها أجدادهم قبل أن يؤخذ الورق من الشجر . ذهبت إليه وطلبت منه بأن يسجل بيده، على ورقة البردى كلمة « إسرائيل » بالضبط كما ظهرت فى «شاهد إسرائيل» واستقبلنى البروفيسور حسن والدكتور محمد بترحاب شديد . لقد أخذانى إلى مصنعهما غير العادى ، وأدخلانى لمكان أشاهد فيه مجموعة أبحاثهم ووعدانى أيضاً بالاستجابة لطلبى. ولكن مضت أسابيع وشهور لا صوت ولا استجابة ولا بردى !!

فى ٢٥ إبريل إحترمت إسرائيل تعهداتها لمصر وأنهت احتلالها من كل سيناء. وبعد ثلاثة أيام، فى ٢٨ إبريل أقمت فى منزلى الإستقبال التقليدى بمناسبة عيد إستقلالنا، وكانت هذه المناسبة قريبة من اليوم الذى أعدنا لمصر ، وفقاً لمعاهدة السلام ، باقى أرضها!!

وفجأة شاهدت بين الواقفين فى الصف الطويل لمصافحتى وللتهنئة بالعيد الوطنى الأخوة رجب. وكان الإستاذ العجوز يحمل تحت إبطه مظروفاً كبيراً ، وقال البروفيسور حسن رجب « سيدى لقد أردت أن أدخل السرور إلى قلبك فى يوم عيدك الوطنى بينما كان يصافحنى بحرارة مد يده الثانية بورقة البردى وكأنها نسخة طبق الأصل، قائلاً : «سيدى السفير عيد سعيد عليكم وعلى شعبكم » .

ولكن ما الذى سأفعله بهذه النسخة لابد كل مايرتبط « إسرائيل » فى ذلك الشاهد سلبى للغاية ، علاقة كراهية ... « إسرائيل كانت جرداء .. لا زرع فيها »

وغداة عيد الاستقلال أخذت ورقة البردى معى وذهبت إلى صاحب محل لصناعة البراويز ولكن حرصت أن أضيف على هامش البرواز بخط يدى هذه العبارة :

على الجانب الأيمن كتبت : « شعب إسرائيل ـ مرنبتاح ١٢٢٥ قبل الميلاد »

وعلى الجانب الأيسر كتبت : « شعب إسرائيل حى ـ القاهرة عام ١٩٨٢ »

فرعون موسى :

حكم رمسيس الثانى مصر أكثر من ٧٦ عاماً . وحسب الاعتقاد السائد كان هو الذى تحدث معه أبونا موسى والجسد المحنط « المومياء » لهذا الفرعون موجود اليوم فى الطابق الثانى للمتحف الوطنى بالقاهرة ، مسجى فى تابوت زجاجى ، فى الممر المؤدى إلى المجموعة المذهلة التى وجدت فى قبر الفرعون توت عنخ أمون .

وعندما قمت بأول زيارة لى للمتحف المصرى ، رفعوا بناء على طلبى ، الغطاء المصنوع من النسيج والذى يغطى التابوت الزجاجى. وهكذا وجدت نفسى فجأة بالفعل وجهاً لوجه امام رمسيس الثانى بشحمه ولحمه : شعر ذهبى خفيف ، عظام الوجه سمراء قوية، أسنان بيضاء وسليمة ذقن مسحوب ، معبراً عن طمأنينة وصلابة إلى حد ما .

إنه ملقى أمامك بدون حراك . وتقف أمامه مثل الحجر .

هل فعلاً هذا الرجل قصير القامة الموجود على مسافة خطوة واحدة هو هو نفس ذلك الحاكم المتعنت الذى لم يرسل أباءك من مصر بل بعد الضربة العاشرة « الضربة التى أنزلها الله بالفراعنة عشية عيد الفصح لتخصيص يهود مصر ـ المترجم » .

إنك تقف مذهولاً أمام الأنسان الذى لم يعرف يوسف الحاكم الذى مرر حياه أجدادك فى مصر فى عمل مضن لصناعة الطوب اللبن ، كل أعمال الحقل ، كل صنوف الأعمال المضنية ، أمام هذا الجسد المحنط الهزيل تجد نفسك تتمتم فى داخلك من جيل الى جيل يجب ان يرى الانسان نفسه وكأنه خرج من مصر من أجل أن يحملنا إلى هذا البلد الذى شبع فيه أجدادنا .

وتعود وتسرى بين أوصالك هذه الرعشة ، نفس الرعشة التى تشعر بها فى كل مرة من عشرات المرات التى تزور فيها المتحف ، لتجد نفسك بدافع داخلى خفى ، تقف أمامه ، وفى كل مرة تعود وتنظر إلى نفس العظام الجافة وتطفى عليك الدهشة « هل كان يخطر ببالك،

أنة هذا هو فرعون موسى » ، هل يخطر ببالك أنه سيجئ يوم بعد مضى حوالى ثلاثة آلاف ومائتى سنة وشرور سفري نفس هذه الأمة التى طردت واضطهدت حتى البحر؟ يزورها كممثل مستقل للأمة التى ظلت باقية ويعيش فيها حراً فى دولة مستقلة بعد أن كنا عبيداً للفرعون فى مصر.

فى يوم من الأيام زار نفس هذا المتحف المصرى نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية شمعون بيرين، واعددت له مفاجأة ، مثلها لا يستطيع اى سفير لإسرائيل في العالم أن يعدها له: وقفنا أمام التابوت الزجاجي ورفع المرشد الغطاء حسب طلبى، ووجد رئيس الدبلوماسية نفسه واقفاً أمام الانسان الذى ادار اصعب واعقد مفاوضات دبلوماسية مع أبينا موسى.... مفاوضات لم يعرف شعبنا لها مثيلاً فى تاريخه.... واقفاً أمام الحاكم الذى سمح فى نهاية المطاف لستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين (٦٠٣٫٥٥٠) من ابقار إسرائيل « بخلاف المرافقين الذين لم يتم حصرهم » بالخروج من مصر .

وقف الوزير الإسرائيلى منفعلاً . منفعلاً جداً لم أره هكذا من قبل . انه لم يدل بأى كلمة. وعندما مضت صدمة اللحظات الاولى والتى لا يحس فيها الا الصمت والتسليم للعاصفة الداخلية التى تعتمل فى القلب . همست بملاحظة فى اذن الوزير بعبارة فيها السخرية احياناً وفيها الحيوية احياناً اخرى : « ان المصريين فى هذا الوقت لا يزالون يتعنتون فى المفاوضات معنا » . وشمعون بيريز الذى لم أره منفعلاً هكذا طلب ان نودع المكان قال : «بالفعل نعم. الفرعون رمسيس كان صلباً ولكنه فى الحقيقة كان طيباً . طيباً جداً اكثر من الروس فى عصرنا هذا ، لأنه فى نهاية ارسل شعبنا . من يعلم قد يجئ يوم ويتعلم الروس منه»....

لقد كان رمسيس الثانى حاكماً غير عادى الراقد امامنا اليوم : قائد عسكرى عظيم وسع من حدود مملكته ووحد تسميتها . وحكم شعبه وعبيده بقبضة حديدية . وعلى الرغم من كل ذلك، كان على مايبدو رجلاً حساساً فى حياته الخاصة . فمن بين كل زوجاته الـ ٤٦

امرأة اللاتى تزوجهن طوال حياته ، احب زوجته النوبية الجميلة .

وكما هو معروف كانت زيجاته سياسية التى تحولت على ما يبدو بسرعة الى تعاون قوى.

والشئ الممتع المثير جداً : انه الفرعون الوحيد من فراعنة مصر الذى بنى لزوجته لتخليدها معبداً خاصاً الى جانب المعبد الذى بناه من اجل تخليده ، فى ابو سمبل وكل من يتجول فى هذا المعبد ويلاحظ الرسومات التى لا زالت باقية على الحوائط يشعر على الفور بمصداقية مشاعره تجاه زوجته النوبية .

ومرتان فى السنة ـ فى ٢٢ فبراير، يوم ميلاد رمسيس الثانى و ٢٢ اكتوبر ، يوم تتويجه، يدخل شعاع الشمس الى داخل قدس الاقداس فى المعبد المقام من أجل تخليد اسمه، ويضئ ملامح وجهه . وبعد ٢٥ دقيقة يتراجع شعاع الشمس ويبتعد وتسيطر دياجير الظلام فى قدس الاقداس ، هى ظلمات مصر.

وحكم الفرعون رمسيس الثانى شعبه حكماً بدون ان يخضع قبائل وشعوباً كثيرة ووسع من حدود مملكته . ترك من بعده حوالى ثلاثة مائة من الابناء والبنات وقد تحكم فى اشعة الشمس وادخلها حتى الى قدس اقداسه ، وعرف كيف يحسب وجود وحركة نجومه .

وفقط نصب واحد وحيد لم يعرف كيف سيطر عليه : مما اضطره للاستجابة الى موسى رجل الله ، وارسله وابناء شعبه الذين عبروا البحر .. وكانوا امه عند جبل سيناء .

حسبتك موسى وها أنا أجدك فرعون :

أحد الموقف المحببة الىّ بصفة خاصة خلال عملى فى مصر كان يتعلق بمراسم الاحتفال بعيد الفصح فى القاهرة هل من الممكن ان يكون هناك موقف اكثر من هذا اثارة . واكثر رمزية . من الاحتفال بالعيد على مسافة كيلومترات قليلة من المكان الذى قدمت فيه ابنة ـ فرعون أبانا موسى جرعة ماء من نهر النيل ؟

وعندما اقترب اول عيد فصح لنا فى القاهرة قرر ان يكون الاحتفال بهذه المناسبة عاماً. ولم يكن ممكناً ان يقام الحفل فى قصر السفارة الاسرائيلية فى القاهرة لانه سيكون مستحيلاً ان تسع المائدة اكثر من مائة شخص . ولذلك اخترت ان يكون الاحتفال بالعيد فى اكبر فنادق القاهرة على ضفاف النيل ودعيت للمشاركة فى هذه الامسية كل اعضاء السفارة، بنسائهم واولادهم ، كل الضيوف وابنائهم الذى وصلوا من البلاد .

ولما كان الامر يتعلق بكل الناس توقعت قدوم ممثلين عن الجالية اليهودية، السائحين اليهود الذين سيصلون فى نفس الليلة الى القاهرة .وضيوف آخرين . كما قمت بتوجيه دعوة بهذه المناسبة الى اعز صديق الذى كان يشغل آنذاك ،منصب مدير عام وزارة الخارجية ، دافيد قمحى وعائلته ، الذين قطعوا المسافة من اسرائيل الى القاهرة بسيارتهم الخاصة ، وعبر الطريق الذئ قطعه أبونا إبراهيم قبل حوالى اربعة آلاف وثمانين عام عندما هبط الى مصر.

ولقد اعتدنا فى منزل الجد ومنزل الوالد قراءة حكاية عيد الفصح مرة بأصلها العبرى ومرة بترجمة عربية لها « وهذه الحكاية تروى قصة خروج بنى اسرائيل من مصر الفرعونية بقيادة النبى موسى عليه السلام- المترجم » . وتعلمت من كلامهما هذه الحكاية ، الى ان اعتدت بعد ان كونت عائلة لى ، ان اقرأ وانشد فقرات من هذه الحكاية ايضاً بترجمة عربية وبنغمة شرقية . وطوال الاسابيع التى سبقت حفل عيد الفصح فى القاهرة كان يطاردنى سؤال محير : هل يجوز لسفير اسرائيل ان يقيم حفلاً هنا فى القاهرة ويتلو علانية تلك العبارات اللاذعة والشتائم الموجهه الى فرعون والى مصر بلغة اهل المكان بالعربية ؟ كيف انشد بالعربية وفى حضور مصريين « حتى لو تعلق الأمر (فقط) برجال الامن المصريين وبالجرسونات وبمدير الفندق » كل تلك الفقرات التى اراها بلغة الدبلوماسية غير ودية تجاه سالف اجداد مضيفينا الذين يقومون على خدمتنا !

هل اتنازل عن الترجمة ، وهل لست احب تراث اجدادى .... فما معنى اى حفل لعيد

الفصح بدون تلاوة هذه الحكاية ، وطبقاً لتقليد العائلة . وماذا افعل بتلك الفقرة التى كنت احب تلاوتها فى منزل والدى والتى كنت اقرأها بنغمة جميلة .. « لا بواسطة ملك .. ولا بواسطة مبعوث ولا بواسطة ملاك..خرجنا من ارض مصر ، وانا انتظر صوم البكور « عشية عيد الفصح للمعجزة التى حدثت ليهود مصر لخلاصهم من ضربة قتل التى انزلها الله بالفراعنة. المترجم» وماذا افعل بالضربات العشر « تفسير للمترجم- وهى الضربة العاشرة التى انزلها الله بالفراعنة- قبل خروج اسرائيل من مصر بقيادة النبى موسى عليه السلام» وظننت اننى أمام واقعة دبلوماسية خطيرة ، بدون اى مقدمات أو تفسيرات يمكن ان تخلصنى من هذه المشكلة ، وتعجبت ماذا افعل ؟

صحيح تذكرت جيداً دروس معلمى واستاذى ، الدكتور يسرائيل بن زئيف الذى كان اول من عمنى فصلاً من القرآن عندما كنت طالباً فى المدرسة الثانوية ببيت - هاكيرم بالقدس، كما تذكرت من بين ما تذكرته ايضاً معلمى العربى المسلمى المقدس ، ربحى كمال، الذى اعطانى دروساً خاصة فى العربية وفى قراءة القرآن عندما كنت طالباً فى الثانوية . وربما يجئ من هنا العون للخروج من هذا المأزق .

كنت اعلم بطبيعة الحال . ان النبى محمد يعتبر بالنسبة للمؤمنين به « خاتم النبيين » ، وان الاسلام قد تبنى لنفسه كل الانبياء الذين سبقوا محمداً ويعتبرهم ايضاً أنبياء مسلمين بكل ما فى هذه العبارة من معنى ، هكذا ابراهيم ، اسحق ويعقوب وهكذا ايضاً أبانا موسى «سيدنا موسى كما ينطقونها».

علاوة على ذلك : كل من درس القرآن وعاد قراءته يعلم جيداً ان فيه آيات توضح تعضيد النبى محمد لموسى وايضاً يظهر تحفظاً وغضباً حيال فرعون .

وعلمت ايضاً أن المصريين على الرغم من تعظيمهم لمعرفة وحضارة اجدادهم الفراعنة فإنهم بأى حال من الأحوال لا يتفاخرون بعبادة الاصنام ، لأن المصريين من المسلمين السنه ممن لهم شعور دينى عميق « بإستثناء الأقباط المسيحيين » .

ولكن الاشياء النظرية من ناحية والواقع فى الحياه اليومية فى القاهرة من ناحية اخرى مما جعلنى اتوخى الحذر ، فاذا كان الامر كذلك ، وجب على ان اتفحص جيداً وبحرص شديد ، اين يقف عملياً ، الشعب المصرى فى هذه المشكلة كيف يفكر «رجل الشارع»، «رجل الدين» « المثقفون من بين الشعب والطبقة الرائدة . ما هى نظرتهم الى سيدنا موسى من ناحية وآل فرعون من ناحية اخرى . كان لزاماً علىّ فحص الامر بحذر شديد ، هذا ما توصلت اليه وكانت النتيجة مذهلة لى :

عندما يبدى المصرى خيبة امل خطيرة فى صاحبه المصرى ، فإنه يحتاج الى مثل عربى، مثل اصله مصرى ، وشائع فى الحياة اليومية حتى لدى بشطاء الشعب ، فيقول : «حسبتك موسى طلعت فرعون » .

ورئيس الأزهر « وهى المؤسسة الدينية العليا » أوضح : عندما قبل سيدنا موسى الرجل المصرى لم يكن إلا عملاً قام به موسى بإرادة العناية العليا ، فمن البداية لم يكن موسى قاصداً قتل المصرى ، كل ما اراده موسى هو التفريق بين متخاصمين ، ولكن ربنا إله العالمين هو الذى جعل موسى يبطش بالرجل « أقول قولى هذا ، هكذا يختتم رجل الأزهر اقواله ، واستغفر الله العظيم » ومع كل ذلك ، تعنت فى الحديث مع شخصية أخرى، وهو أيضاً رجل دين مسلم حجة ـ صحيح ان فرعون تصرف بجبروت وإذى فرعون جداً ؟ هذا صحيح كانت الاجابة ـ « ولكن سيدى السفير ما بالك ، فانتم مثل فرعون فى زمانه ، وربما اكثرمنه آذيتم موسى هل المشاكل التى تسببتم فيها له قليلة خلال الاربعين عاماً فى الصحراء؟ الم يكن من الأجدر ان تنظروا اليه بشكل آخر ؟ هل نسيتم صنيعكم للعجل ؟ والم يكن بسببكم حرّم عليه عبور نهر الاردن ؟ وفى تلك اللحظة علمت : انه يجب على ان اقيم مراسم عيد الفصح كما هى بالفعل ، وكما كان متبعاً فى منزل والدى ، قراءة حكاية عيد الفصح وترجمة لها بالعربية ، حسب عادة ابناء الشرق .

وكانت قاعة الاستقبال الفسيحة فى فندق المريديان على شاطئ النيل على اتم

استعداد اثنتا عشر مائدة مستديرة ، عشرات المقاعد حول على كل مائدة منها وجلسنا فى دوائر كل دائرة بالقرب من الدائرة الأخرى .

وأخذت كل مجموعة او عائلة تتلوا حكاية عيد الفصح حسب ما اعتادت عليه ، البعض بالعبرية او بالعربية البعض بلهجة اوربية ، والبعض بلكنه مغربية وآخرون حسب التقليد والنغم المثير لليهود من اصل يمنى .

وشيئاً فشيئاً تجمع الكل انهم اصدقاؤنا اليهود من سفارة الولايات المتحدة فى القاهرة ، وبعض من رجال الجالية اليهودية ـ الشيوخ ، ولكنهم كانوا فى منتهى السعادة ، وها هم ايضاً عدد من السائحين اليهود القادمين من فرنسا ، من ايطاليا ومن الولايات المتحدة الذين انضموا فى آخر لحظة وارادوا الاشتراك فى تلاوة حكاية عيد الفصح فى هذه الليلة باحدى ترجماتهم ، وقد بدت اسارير السعادة والفرحة على موظفى السفارة وابناء عائلاتهم وضيوفهم من اسرائيل ـ لانهم جميعاً ـ يحتفلون باول عيد فصح فى القاهرة وذلك بعد ثلاثة آلاف وربعمائة وثمانية وعشرين عاماً . وايضاً طاقم من التليفزيون الهولندى شهد وقائع الحفل.

والاطفال ، حوالى ثلاثين طفلاً ، تجمعوا فى وسط الدائرة واخذوا ينشدون بمصاحبة اوكرديون كل شئ كان اسرائيلياً ، كل شئ كان معروفاً ، وبطبيعة الحال لم يكن قاهرياً .

ووقف يحيط بنا مصريون كثيرون رجال أمن مديرو الفندق وحتى العابرون من نزلاء الفندق.

ومن المصريين دخلوا باب الباهو البنى المفتوح وافتتحت الحفل بقراءة فقرة من كتاب هيرتسل : « آلت ـ بيولاند » : « وهذه ليلتنا فى بناى براك ، القديم والجديد يمتزجان . فى البداية نختتم احتفالنا بعيد الفصح كما هى عادة اجدادنا ، وبعد ذلك يقف امامنا العصر الحديث فى بداية نشأته . مرة اخرى كانت مصر داراً للعبيد ... ومرة اخرى خرجت من مصر... وفى ارض اسرائيل يقول الانسان لاخيه الانسان.... انت اخى ، اهلاً بك. الصبية

صاروا ناضجين.. رجالاً ، جميعهم رجالنا ، كل شخص يعرف انه يعمل من اجل المجموع، والمجموع يجتهد من اجله ... وهذا الحاضر سيكون بمثابة ربيع لما هو آت ، نفس ذلك الربيع الذى تأتى به الطبيعة ابان عيد الفصح » .

حكيت لاطفال السفارة باختصار قصة الخروج من مصر ، واضفت ايضاً على مسامع الآباء بعض الكلمات عن مغزى إقامة هذا الحفل هنا ، وبواسطتنا ، ممثلى اسرائيل فى القاهرة. وعن هذه النقطة انتقلت للحديث بالعربية الى ابناء الجالية اليهودية والى ضيوفنا المصريين ورويت لهم حكاية الخروج من مصر، ومن خلال اشارتى ما ورد فى القرآن عن سيدنا موسى . واختتمت كلامى، مشيراً الى انه يوجد فى ايامنا هذه شعبان، يعيشان ويعملان، ويمكن ان ينظركل منهما للآخر بالفعل أو بالقول.. خيراً أم شراً ، حرباً أم سلاماً وقد بدأ ذلك قبل اكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة : الشعب اليهودى والشعب المصرى . وكان تصفيق ضيوفنا المصريين ضوءاً بالنسبة لى لمواصلة الاحتفال بعيد الفصح

ومرة اخرى دعى الاطفال للتجمع حول المائدة وجميعهم اخذوا ينشدون الاسئلة الاربعة «تفسير للمترجم ـ الاسئلة الاربعة هى التى يطرحها الصبى على والده ليله عيد الفصح حول خروج بنى اسرائيل من مصر حسب حكايات عيد الفصح التقليدية » ثم عادوا الى اماكنهم مرة اخرى . وكان ذلك بمثابة مفاجآت لاباء هؤلاء الاطفال ثم اعددت ايضاً الاسئلة الاربعة وهذه المرة للناضجين بيننا : فى اى سنة خرج ، حسب التفسير ، ابناء اسرائيل من مصر؟ وعلى اى مسافة احتفالنا هذا من مدينة السحرة ورمسيس ؟ كيف كان المصريون القدامى يطلقون على ارض اسرائيل السابقة ؟ كيف كان المصريون القدامي يطلقون على ممر الساحل؟ الطريق الذى نسافر فيه اليوم عائدين الى البلاد ، نفس الطريق الذى سلكه سيدنا إبراهيم عند ذهابه الى مصر وبعده يعقوب وابناؤه ، واليوم زئيف قمحى وعائلته ؟

فى تلك الليلة ، اسهبنا فى الحديث عن الخروج من مصر .

واكثر من مرة وجدت نفسى اتمتم بكلمات : من حين لأخر يجب على الانسان ان يرى

نفسه كان خرج من مصر . وكأن لهذه الكلمات وللنشيد الوطنى « هاتكفاه » الذى تفجر من افواهنا عند مقام ختام الحفل ، وقع عميق فى نفوسنا ، لم اعاصر مثيلاً له خلال خدمتى الطويلة فى مصر.

على وشك غلق الدائرة :

عندما توجهت الى القاهرة لاتولى مهام وظيفتى لم يخطر على بالى ان اعمل ايضاً هنا كمرتل للصلوات الدينية وان اقف كحاخام على منصة الخطابة فى الكنيس «المعبد اليهودى» وان اكون بمثابة حاخام يتولى اداء الصلاة الجماعية للجالية اليهودية الصغيرة فى القاهرة . احياناً لم يكتمل النصاب لاداء الصلاة الجماعية فى الكنيس « والنصاب عشرة مصلين لتكتمل الصلاة الجماعية ـ المترجم » واخذت على عاتقى مهمة ان يكون فى مصر حاخامان احدهما فى القاهرة والاخر فى الاسكندرية ـ واجتهدت بالاشتراك فى الصلاة كى اعطى لاعضاء الجالية الصغيرة والكبار فى السن احساس « المشاركة اليهودية » ولكى اخمن اكتمال نصاب المصلين على الاقل فى ايام الاعياد اليهودية . اعتدت ابلاغ اعضاء السلك فى السفارة عن نيتى فى اداء الصلوات فى الكنيس الكبير « بداية السماء » الموجود فى وسط الشارع التجارى بوسط المدينة واحيانا ينضمون الىّ للاشتراك فى الصلوات، فعلت ذلك على الرغم من اننى اعلم اننى اشق بذلك سواء على رجال زمننا او رجال الامن المصريين وفى عام ١٩٨٢ كانت مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية فى القاهرة لا تزال موجودة فى مواجهة الكنيس الكبير والجميل الذى تم ترميمه بسخاء بواسطة الرجل الكريم نسيم جاؤن من جينيف ، ودأبت شرطة الامن المصرية غلق الشارع الرئيسى الذى يوجد فيه الكنيس الكبير ، شارع عدلى وتمنع حركة المرور فيه عند وصولى وحتى مغادرتى المعبد ، من رجال الشرطة المصريين ، بزيهم العسكرى او بدون زيهم يحيطون بالمكان كى لا يقع اى ضرر، ويعكس الجو المتوتر خارج الكنيس ، يسود ود كبير فى الداخل .

وكانت تلك اللحظات تعتبر لحظات سعادة وفرحة لابناء الجالية كبار السن الذين تجمعوا وشاركوا فى هذه المناسبات ، وكانوا يقفون عند مدخل الكنيس لاستقبالنا وامطارنا بالقبلات وانهم يجتهدون لى لمسنا بأيديهم كى يتأكدوا انهم لا يحلمون ، وكان يخيل اليهم ان مبعوثاً جاء من البلاد المقدسة ، نفس البلد الذى بات فى متناول اليد ، على مسافة ساعات بالاتوبيس - والذى لا يزال فى نظرهم مكاناً بعيداً جداً والمغامرة فيه هى الأصل.

كل هذه الحفاوة وعلامات الود تحدث فى كل مرة نتوجه فيها لصلاه بالكنيس . يذكرون لى نظرات التقدير والاجلال التى حظى بها رئيس محكمتنا العليا، القاضى مئير شمجر، الذى دعانا للكنيس فى عيد الحانوخا « عيد الأنداد » ، عندما قام ليضئ اول شمعة . اذكر احدى امسيات رأس السنة عندما انقطع فجأة التيار الكهربائى فى الكنيس وكان علىّ ان اواصل عمل الحاخامات . وقمت باضاءة الشمع الذى احضره احد اعضاء السلك بالسفارة بكميات هائلة ، وعلى الضوء الخفيف لهذه الشموع واصلنا احتفالنا برأس السنة الجديدة .

عند وصولى الى القاهرة كان يوجد بها اربعة وثلاثون معبداً . جميعها ، بإستثناء ثلاثة كانت مغلقة مهملة ، وجرداء ، وكان معبد « بوابة السماء » الوحيد المفتوح للصلاة فى ايام السبت فى الاعياد ، ومعبد « حنان » ، القديم ، ذو الطابع الجميل ، كان محفوظاً للدهشة بفضل امرأة مصرية مسلمة . أم رمضان ، ولدت فى نفس المكان وورثت من والديها عملية الحراسة والمحافظة على نظافة هذا المعبد ، والذى ترعاه بكل ود حتى يومنا هذا .

بينما إلى جانبها تساعدها ابنتها فوزية . ومعبد « ابن عزرا » ، الذى توجد فيه «الجنيز» المعروف فى مدينة الفسطاط القديمة ، وهو المكان الذى صلى فيه حسب التقاليد «سيدنا موسى بن ميمون » بشحمه ولحمه - وقد حظى هو ايضاً برعاية السيد شحاتة المقيم بجواره ويقوم بفتح بواباته للسائحين القادمين للتجول فيه .

وفى احد الايام ذهبت وبصحبتى الوزير المفوض بسفارتنا دافيد سلطان الذى يعمل اليوم كنائب مدير عام بوزارة الخارجية، لزيارة المعبد المغلق فى هليوبوليس. ودافيد، الذى

ولد فى القاهرة اراد ان يعود ويزور نفس المعبد الذى اعتاد الصلاة فيه، عندماكان طفلاً صغيراً ، وبمرافقة والديه الى الصلاة. واجتهدوا حتى وجدوا المفتاح ودخلت المعبد. وحتى يومنا هذا اسم والى مسجل على احد المقاعد فى الصف الاول. وهمس دافيد فى اذنى وقال هنا وقف والدى لكننى اقف وقت الصلاة . وفى نهاية القاعة يقف كما هو جميلاً الصندوق المقدس، وفى داخله عشر نسخ من التوراه وفى الطرف الاخر للقاعة - لوحة من الرخام مسجل عليها اسماء المتبرعين بأموالهم لاقامة هذا المعبد .

وفى نهاية القائمة ظهر اسم « موشيه ساسون » وذكر الى جانبه ان هذا اليهودى المصرى المجهول يتبرع بخمسة جنيهات مصرية لبناء هذا المعبد... وعلى ما يبدو لم يكن من الاثرياء. وذلك لانه يظهر الى جانبة اسم البطل الرئيسى لهذه اللوحة ، مبلغ ٢٥٠ جنيها مصريا ورجال الامن المصريون الذين رافقونى لم يفهموا لماذا هذه الوقفه ، الطويلة امام هذه اللوحة الرخامية... وعندما اوضحت لهم هذا الموقف الغريب امطرونى بالاسئلة : من كان موشيه ساسون هذا ، ومدى صلتى العائلية به ، لانهم كانوا مطالبين بان يقدموا تقريراً مفصلاً لقادتهم عن كل خطواتى وافعالي وعندما اوضحت لهم باننى لا اعرف شيئاً عن اسم موشيه ساسون لاحت فى عيونهم نظرة ارتياب وشك - وتلك النظرة التى اعرفها التى تشهد عليهم كالف شاهد على انهم لا يصدقوننى....

وعندما تركت القاهرة لم يتبق الا اربعة عشر معبداً .

وكان الحاخام الاكبر لفرنسا ، الحاخام كيلان قد ترك فى حينه لرئيس الجالية اليهودية فى القاهرة المحامى يوسف رحمه الله، ان يبيع المعابد التى لا لزوم لها والتى لا يتم استخدامها والتى لا قيمة تاريخية او فنيه لها.

وتستخدم الايرادات للاعمال المقدسة .

وفى حارة اليهود بالقاهرة تقف بقايا اطلال معبد قديم جداً يعرف باسم معبد « موشية ميمون » ، وتبدو حوائط هذا المعبد أيلة للسقوط والاعمدة عارية وبدون اسقف، وكنا

نذهب الى هذا المكان مرة فى بداية شهر آيار « مايو » كى نستمع الى قراءة الفصل الاول من المشتا الاخيرة « والمشتا هى مجموعة الفتاوى التى افتى بها الحاخاميون بعد جيل احراب يهودا هناسى ـ المترجم » .

وفى عام ١٩٨٤ طلب منى الحاخام بوست هاكيت الحاخام الرئيسى لايلات، بان اعمل على مساعدته هو الحاخام يوسف بتسحاق على اصدار وطباعة كتاب « الاقوال المأثورة » التى تتلى عند الصلوات فى القاهرة والاسكندرية ، وطلب مساعدتى لهما لدى السلطات المصرية لتحقيق ذلك ، وحسب ما جاء على لسان الحاخام يوسف هاكيت : ان طبع الكتاب فى القاهرة والاسكندرية امر حيوى جداً وسوف يكون بركة على المكان ، ويرى انه طالما وقع سلام مع مصر لماذا نمنع مثل هذه البركة عن المدنيين الكثيرين .

وبدأ الحاخام هاكيت يمارس نشاطه لدى القنصل العام المصرى فى ايلات اليوم حسن عيسى وبدأت بالفعل الاتصالات بينى وبين وزارة الخارجية المصرية والاتصالات بين الحاخام هاكيت وبين سفير مصر فى واشنطن ، وبالفعل ، بعد عدة اسابيع ابلغتنى وزارة الخارجية المصرية بقرارها بالموافقة على طبع الكتاب سواء فى القاهرة او فى الاسكندرية وفى ايام التوتر الشديدة فى مصر بين متطرفين متدينين ومسلمين وبين الحكومة ، يعتبر طبع الكتاب ليس بالامر الهين ، لا شك ان قرار السلطات بالاستجابة الى طلب الحاخام هاكيت يعتبر بمثابة بادرة غير عادية تحتاج توجيها من مستوى اعلى .

وفى ٢٩ / ٤ / ١٩٨٤ وصل الى القاهرة الحاخام هاكيت والحاخام يسرائيل جليتنشتاين ، واستقبلهما فى المطار يتسحاق نور بثيل المستشار بالسفارة ، الذى رافق الحاخام هاكيت فى كل جولاته . وطبقاً لتعليمات الحاخام هاكيت تم طبع الفى نسخة من «الاقوال المأثورة» وبعد انتهاء عملية الطبع فى القاهرة سافر كلاهما الى الاسكندرية، وهناك بمساعدة قنصلنا العام ، شاؤل نيفيل ، تم طبع الفى نسخة اخرى من الكتاب . وبعد حوالى سنة فى ٢١ / ٨ / ١٩٨٥ وصل الحاخام هاكيت الى القاهرة على رأس وفد محترم وعدد

كبير من المرافقين من رجال حركة « حبد » فى اسرائيل « حبد : احدى الطرق الصوفية اليهودية تدعو الى الحكمة والإدراك والمعرفة كى تستهدف التوفيق بين التصوف والورع الدينى من جهه والتبحر فى العلم والمعرفة من جهه اخرى اسسها الحاخام شينئور زالمان الذى عاش بين عام ١٧٤٧ ـ ١٨١٢ ميلادية » .

لقد جاءوا للبدء فى حدث جديد يتحول مع الوقت الى تقليد : ان تقام سنوياً فى معبد «موشية ميمون» فى القاهرة قراءة « للمشتا » واعادة قراءته من بدايته من جديد . وحضر هذه المناسبة ، ابناء الجالية اليهودية ، رجال السفارة ورجال المركز الاكاديمى الاسرائيلى، بالقاهرة، ولم يحضر اى من رجال الحكومة المصرية ممن تم دعوتهم للمشاركة فى هذه المناسبة ، ونظراً لعدم وجود اى مندوب رسمى فى المكان من قبل السلطات المصرية ترددت جداً فى قراءة الترجمة العبرية للبركة التى اعددتها ، وفى النهاية قررت من اجل خاطر مئات من رجال الامن المصريين الذين جندوا لهذه المناسبة التى بدت لهم غريبة الى حد ما ـ لانهم لاول مرة فى حياتهم يشاهدون رقصات انصار حركة « حبد » تلك الرقصات التى صاحبتها اغنية تردد صداها بين الشوارع الضيقة والفقيرة جداً « حارة اليهود » ، هى فقير هب فجأة ليحيا واصطبحنا الى ايام الماضى الجميلة التى عرفتها هذه الجالية فى ماضيها البعيد ، البعيد جداً .

ثلاث مرات صورتنا التوراه . الاولى عند خروج ابناء اسرائيل من مصر بقيادة سيدنا موسى بعدم البقاء والخروج من مصر ، وعلى الرغم من كل ذلك حدثت اكبر موجه للنزوح الى مصر فى ايام مملكة يهودا وخاصة بعد خراب البيت الاول وعدد كبير من ابناء البلاد نزحوا فى تلك الحقبة الى مصر التى تحولت ، فى تاريخ شعبنا ليس فقط « للمنفى الاول » من بين كل شتات اسرائيل ، بل لمنفى تميز بتتابع الوجود اليهودى هناك منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا، هؤلاء النازحون ومن بينهم عظماء من الشعب اليهودى ، قد عللوا نزوحهم الى مصر بعكس الامر الواضح للتوراه بأن بقاءهم فى مصر « بقاء مؤقت » وغير دائم، قد روى لنا

بيلون الاسكندرونى انه فى بداية التاريخ المسيحى كان الشتات اليهودى فى مصر من اكبر جاليات اسرائيل فى العالم وعاش فيها حوالى مليون يهودى عند قدومى القاهرة فى ١٩٨١ كان تعداد الجالية اليهودية هناك حوالى ١٣٠ شخصاً فقط من طائفة القراءين التى تعدادها ٣٢ نسمة وعندما تركت القاهرة فى ١٩٨٨ بقى من الجالية اليهودية فى القاهرة حوالى ٧٠ شخصاً فقط من القراءين الذين وصل عددهم الى ١٢ شخصاً ، وحوالى سبعين نسمة كان تعداد الجالية اليهودية فى الاسكندرية ، وفى جميع لقاءاتى مع رجال الجالية اليهودية فى مصر رافقنى شعور بالوقف امام الدائرة التاريخية التى بدأت فى مكان ما قبل حوالى ثلاثة الاف وثمانى مائة سنة عندما نزح يعقوب بكل نسله من مصر واخذت هذه الرائرة تنغلق فى جيلنا امام اعيننا : ومتوسط الاعمار فى ابناء الجالية اليهودية فى مصر كان حوالى ٦٥ سنه.

وبطبيعة الاحوال كان لقائى الاول مع ابناء الجالية اليهودية قد اخذنى وقفة واحدة من الخيال المرصف للتراث ووضعنى امام دافع محزن مؤسف : أخر بقايا الجالية اليهودية التى كانت من اعظم الجاليات فى العالم . وقلت لنفسى : ان التعزية الوحيدة لهذا الموقف ان الجزء الكبير جداً من ابناء الجالية فى مصر هاجر فى جيلنا الى البلاد ، ولكن هذه التعزية المنطقية التى اعتملت فى قلبى ، لم تجد فى السرية عنى حيال الحالة البائسة جداً التى تحياها البقية الباقية الذين حكموا على انفسهم ، وهذه المرة بمحض ارادتهم الحرة «الموت فى ارض مصر»، ومعظمهم كانوا يعيشون فى فقر مدقع، يقتاتون على حساب غيرهم، بينما تظهر علامات القمع التى عاصروها ايام جمال عبد الناصر التى تركت اثارها على وجوههم وعلى تصرفاتهم وتمثلت فى خوفهم وفى قدرتهم حتى يومنا هذا .

وكان واضحاً لى ان معونة اخلاقية لسد رمقهم ومعونة مارية للتخفيف عن ضائقاتهم، هى امور حيوية وعاجلة جداً والمعونة الاخلاقية وجدوها متمثلة فينا فى علم اسرائيل الذى يرفرف على سيارتى عندما جئت لاصلى فى المعبد ـ العلم الذى يرفرف فوق مبنى السفارة

وفى مشاركة « مجموعات » ابناء الجالية اليهودية حفل استقبالنا ليوم الاستقلال رأوا هذه المعونة الاخلاقية ايضا وسفير اسرائيل يعمل من اجلهم ويصلى بهم، وينشد فى صلواتهم نفس اناشيد ، وفى الرعاية اليومية الاخلاقية التى يقوم بها احد المستشارين فى السفارة الذى عهد اليه ان يكون على اتصال وطيد مع ابناء الجالية والاصغاء الى مشاكلهم. وخيراً عمل فى هذا الشأن المستشار يتسحاق نوريئيل الذى كان اخاً بالنسبة لهم واباً ورمزاً حياً يسرى بينهم، لان يتسحاق عاش وتربى فى مصر ، وكصهيونى هاجر الى البلاد فى صباه وعاد اليها كدبلوماسى اسرائيلى بكل ما فى هذه الكلمة من معنى : وذات مرة غضبوا منه لانه تجرأ ودعا الى منزلة يهود ربانيين مع « يهود قراءين » لنفس الحفل والحقيقة ان يتسحاق دعا هؤلاء واولئك حسب توجيهاتى ، وعد هذا اللقاء توجهت للقيام بعملية اقناع اثمرت فى نهاية الامر جيداً « لقد تم توجيه دعوة الى اليهود القراءين للذهاب الى المعبد الكبير « بداية السماء » فى مساء عيد الفصح وعيد المظلة وجميعاً استقبلنا العيد . وبدأت عملية رأب الصدع .

عند قدومى الى القاهرة قيل لى ان رؤساء الجالية توجهوا بطلب الى منظمة «الجوينت» (منظمة اريكية يهودية تعمل على تقديم الاعانات للمعوزين) للحصول على دعم مالى للفقراء لمتطلبات الحياة اليومية . وكانت « الجوينت » مستعدة مبدئياً لمساعدتهم ماليا الى ان الشرط الذى وضع امام ابناء الجالية ، عليهم ان يهتموا بالحصول على اعتراف رسمى من السلطات المصرية بمؤسسة الجوينت . واذا حصلوا على هذا الاعتراف سيحصل الفقراء على الدعم المالى الجدير بهم ، وكنتم اعلم بالروابط الممتازة للوزير دكتور يوسف جورج بالجوينت ، وتوجهت اليه وطلبت ممارسة تاثيره على الجوينت للبدء على الفور، اننى ساعمل شخصياً للحصول على الاعتراف بها كمؤسسة قانونية معترف بها فى مصر. ونجح الدكتور يوسف جورج فى عملية الاقناع للجوينت وبدأت المنظمة ترسل ليهود مصر خمسين دولاراً لكل فرد وبعد عدة اسابيع حصلت، من الرئيس السادات الذى طلبت منه شخصياً على

موافقته على منظمة « الجوينت » وضعاً قانونياً معترفاً به فى مصر ، ومنذ ذلك الحين وحتى اليوم يحصل ابناء الجالية على هذا المخصص المالى .

ونظراً لاننى شعرت بقرب انتهاء الايام الاخيرة للجالية اليهودية المصرية ، قد اثار قلقى جداً مسألة خلودهم . لانه في اقل من جيل لن يبقى يهودى واحد من هذه الجالية العتيقة، فهل ستختفى بدون ان تترك ذكرى بعدها ؟ واجريت احاديث طويلة مع اعضاء الجالية اليهودية فى القاهرة حول هذه المسألة واقنعتهم بضرورة جمع كل الكتب وكل المكاتبات والوثائق والدوريات الاخرى المتناثرة فى كل المعابد ، واقامة مكتبة فى المعبد الكبير «بوابة السماء» فى وسط المدينة بشارع عدلى ، ويضاف اليها مع مرور الزمن الاشياء الفنية من المعابد اليهودية القديمة ، التى تم بيعها ، ومثل هذا المشروع سوف يتيح الفرصة لانقاذ الكتب من فناء مؤكد ، ويستخدم مصدر علمى للبحوث ، ويشكل عرضاً وعوناً لجالية كبيرة على وشك الاختفاء . وقد تم الاتفاق على ان عملية جمع الكتب ومعالجتها كيميائياً ، وإقامه المكتبة ـ الى جانب كمبيوتر حدث ، يتولاها المركز الاكاديمى الاسرائيلى فى القاهرة يهتم ايضاً بالحصول على التحويل المطلوب . وجنّد رئيس المركز الاكاديمى فى القاهرة، البروفيسور ، شمعون شامير ، ايام السفير الثالث لاسرائيل فى مصر ، نفسه لهذا المشروع المصير الثانى للمركز الاكاديمى ، البروفيسور جبرائيل فريورج وهذا المشروع الذى بدء العمل فيه ١٩٨٢ قد اكتمل وتم تدشينه بعد حوالى نصف سنة من مغادرتى القاهرة .

وقبل يومين من عودتى الى الوطن ـ القدس ، حضر الى مكتبى فى السفارة بالقاهرة، وفد رؤساء الجالية اليهودية من اجل وداعى ، واحضروا معهم طبقاً صغيراً من الفضة سجل فى وسطة « للذكرى من الجالية اليهودية فى القاهرة » . قبلت هذا الطبق منهم بترحاب شديد، بينما قلبى ينكمش داخلى لا كلمة واحدة ، ولا تلميحة واحدة ، الى من اعطى هذه الذكرى ، وقلت لنفسى مودعاً اياهم بينما الدموع قد حبست فى مقلتى : انهم اثار محنة عهد عبد الناصر»

وفى الحقيقة كان وداعاً محزناً لجالية كبيرة وعظيمة كانت ولم تعد بعد !

وكان سبعون من ابناء اسرائيل هم الذين نزحوا الى مصر فى عهد اجدادنا ، وظل سبعون شخصاً ، يعدون كل ابناء الجالية ، فى القاهرة اليوم : « الدائرة تقريباً قد انغلقت«!!

الفصل الثالث

نظرة على الحياة اليومية

الجرى المتواصل :

قبل شهرين من تسليم مهام منصبى فى مصر استضافنى فى القاهرة سابقى فى هذا المنصب . الياهو بن اليسار اول سفير اسرائيلى فى مصر . ولقد تعامل معى بسعة صدر وباستهلال وبصق ، لقد اراد ان يحببنى فى القاهرة من اللحظة الاولى التى وطئت فيها قدمى ارض مصر.

ولقد حضر « ايلى » لاستقبالى فى المطار وانتظرنى الى جانب الطائرة واخذنى الى سيارته الرسمية التى يرفرف عليها علم اسرائيل ، واخذنى مباشرة من المطار الى احد المطاعم المشهورة والفاخرة جداً فى القاهرة .

لقد اخذنى « ايلى » وزوجته « نيتا » الجذابة الى غرف المنزل الجميل الذى اصبح من بعد ذلك منزلى لما يزيد على سبع سنوات .

وعندما خرجنا الى الحديقة الخلابة التى تحيط بالمنزل فوجئت بأن وجدت على السلالم الخارجية جهاز التليفون الوحيد الموجود فى المبنى .

وسألت مصطفى الجناينى : لماذا وضع التيلفون هنا ؟ واجابنى مصطفى وهو يشير بيده الى الشمس التى تشع علينا بحرارة قائلاً : حتى تصل اليه الحرارة ان شاء الله، والحرارة بالعربية معناها سخونة ولكنها باللهجة العامية « تيار التليفون » .

ان خط التليفون الموجود فى منزل سفر اسرائيل بالقاهرة لم تصل اليه الحرارة بعد .

ومن اجل تحديد موعد لقاء فى وزارة الخارجية او فى مكتب الرئاسة فإن السفير يجب عليه ان يبعث بسرعة بسكرتيرته الى هناك وحتى يتشاور السفير مع احد من مساعدية فى العمل ، فيجب عليه ان يجرى هذه المشاورات من خلال مكاتبات يتم ارسالها ذهاباً وعودة، بواسطة سائق خاص .

وعندما وصلت الى القاهرة كان عدد اجهزة التليفونات الموجودة على مستوى

الجمهورية ٤٥٠ر٠٠٠ جهاز تليفون ، منها فقط ١٥٠ر٠٠٠ تعمل .

وبعد ست سنوات من وصولى ، وصل عدد التليفونات الموجودة على مستوى الجمهورية مليون ونصف جهاز تليفون وكلها تعمل .

وفى عام ١٩٨٥ حققت مصر رقماً قياسياً عالمياً فى تركيب اجهزة التليفون . لقد تم تركيب ٤٠ر٠٠٠ خط تليفون جديد وكلها عملت خلال هذا العام .

لقد تم تغيير السنترالات القديمة على مستوى القاهرة بسنترالات حديثة جداً . وعندما تتصل بالسنترال الدولى فلا داعى للإبلاغ برقم تليفونك او ان تنتظر حتى يتصلوا بك مرة اخرى. ان رقم تليفونك يظهر اوتوماتيكياً على لوحة الحاسب الاليكترونى الموجود امام عاملة التليفون في السنترال الدولى .

ان عاملة التليفون كانت تقول لى : « مساء الخير ايها السفير سيسون » . لقد قالت لى ذلك قبل حتى ان نتعارف .

ولكن عندما كانت العلاقات تتوتر بشدة بين مصر واسرائيل ، كنت اتصل بالسنترال الدولى وانتظر كثيراً على الخط دون ان يرد على احد وفى الليلة التى دخل فيها جيش الدفاع الاسرائيلى بيروت . سمعت صوت عاملة التليفون على السماعة وهى تجز على اسنانها بغضب قائلة : اليس فى قلوبكم رحمة علينا ، الم نعقد معكم سلاماً ايها السفير ؟

عندما وصلت الى القاهرة قطعت طريقى من المطار الى منزلى فى حى المعادى وهو احد الاحياء الجنوبية فى ٤٥ دقيقة . وعندما تركت القاهرة بعد سبع سنوات ، قطعت نفس الطريق فى مدة ٢٨ دقيقة ، خلال هذه السنوات تم اقامة ١٩ كوبرى علوى فى القاهرة « على مستوى الجمهورية وايضاً تم اقامة ٥٤ كوبرى علوى اخرى » وثلاثة انفاق ومترو انفاق.

وعندما قام جمال عبد الناصر بثورة الضباط الاحرار كان عدد سكان مصر ١٨ مليون نسمة، وبعد ذلك بتسعة عشر عاماً عندما تسلم محمد انور السادات الحكم وصل عدد

السكان الى ٣٢ مليون نسمة . وعندما تم انتخاب محمد حسنى مبارك رئيساً لمصر فى اكتوبر١٩٨١ وصل عدد سكان مصر الى ٤٢ مليون نسمة . اما اليوم فيصل عدد سكان مصر الى اكثر من ٥٦ مليون نسمة وفى عام ٢٠٠٠ سيصل عدد السكان فى مصر الى حوالى ٧٠ مليون نسمة واذا استمرت الزيادة السكانية فى مصر بهذا المعدل ، فمن المتوقع ان يصل عدد سكان مصر فى بداية النصف الثانى من القرن القادم الى حوالى ٢٠٠ مليون نسمة!

ان عدد التلاميذ الذين التحقوا بالمدارس عام ١٩٨٩ فى الفصل الدراسى الاول يساوي عدد التلاميذ فى جميع المدارس العامة والمتوسطة فى اسرائيل فى نفس العام .

حقاً ان مصر يجب عليها ان تجرى حتى تظل فى مكانها، اما اذا اردت ان تتقدم وان تتطور فيجب عليها ان تجرى جرياً متواصلاً . ان كفاح مصر الحقيقى هو كفاحها ضد الزمن.

زينب :

تبلغ من العمر ٣٥ عاماً ، ولكن وجهها يبدو كما لو كانت تبلغ من العمر ٥٠ عاماً لقد تجعدت من عبء الحياه وقسوتها ، نحيفة وهزيلة من سوء التغذية ، ولكنها مجتهدة وعلى مسئولية.

انا منطوية على نفسها ، علمتها حكمة الحياة واكتسبت ذكاء طبيعياً . تقوم بعملها غسيل الملابس باتفاق كمن تقوم بعمل مقدس مبتسمة فى طلعتها ومتمالكة النفس فى تصرفاتها.

عندما بحثنا عن خادمة احضرها الينا من القرية الجنايني قرنى ، فهى احدى اقربائه.

قدمت لنا نفسها قائلة : انا ارملة ولدى طفلان صغيران اسعى لكى اوفر لهما ما يحتاجانه.

قالت : لا ان زوجى لم يمت من المرض ، لقد اخذوه ، اجابتنا على سؤالنا وصمتت ، انه امر ليس لطيفاً او متبعاً فى مصر ان تطيل فى التفاصيل عن الامور الشخصية .

ـ ما اخذه ؟ سأل الضابط الادارى الاسرائيلى ، حيث يجب عليه ملئ استمارة مفصله عنا .

قالت : هم ثم عادت وصمتت مرة اخرى .

وعندما عدنا وسألنا عن هوية « هم » ، قالت لقد اخذوه الى الجيش ، ولم يعد من هناك لقد قالوا لى . مات فى الحرب ، الله يرحمه

ـ اى حرب ؟

ـ انا لا اعرف . فى الحرب هم قالوا لى هكذا .

فى البداية اعتقدنا انها تسخر منا . لقد اعتقدنا انها فى ازمة .ولكن عدت بعد ذلك واوعزت صمتها لهذا الادب الطبيعى الذى يميز المجتمع المصرى . ومع مرور الايام ادركنا وفوجئنا ان زينب لا تعلم من كانت تحارب مصر عندما سقط زوجها فى الحرب .

ان زينب ابنة احدى القرى البعيدة والتى اتت حديثاًإلى المدينة . لقد قالت زينب :ـ

لقد اخذوه ولم يعد هكذا مصيرها ، ولقد استقبلت هذا المصير دون نقص أو سؤال، هذا ما كتب وهذا ما قضى به ، ولم يتبقى لها إلا ان تشكر الرب وتحمده .

إذا كانت هذه إرادة الله ، فعليها ان تتقبل الأمور بحب وان تشكره على ما اخذه فى ظله وعلى ما تركه ليسير على الارض.

وعليها الآن ان تشكره شكراً مضاعفا لأنه عطف عليها بعمل تتعيش منه ، وتربى منه

طفليها الصغيرين بكرامة .

إن زينب لم تعرف بعد من هو مرؤسها الجديد :

قال لها قريبها الجناينى قرنى « سفير » ولكنها لم تجد رغبة فى ان تسأل «سفير من» وعندما أوضحنا لها انه سفير إسرائيل ، اومأت برأسها بالموافقة .

ولكن بسرعة اتضح لنا ان زينب تسمع لأول مرة اسم هذه الدولة ، ولكنها سمعت عن فلسطين وعرفت عنها . ولقد عدنا وتشككنا فيها بأنها تمكر علينا ، ولكن اتضح لنا مرة اخرى مع مرور الوقت أنها صادقة فى كلامها .

إن الامر الوحيد الذى كان يشغل زينب هو قسوة الحياة وكفاحها من اجل البقاء لإعالة ابنائها واطعامهم وإحضار الملابس لهم ، وإرسالهم إلى المدارس حتى « يتعلموا » عندما يتخرجون وينهون تعليمهم .

وبعد ان اوضحنا لها بلطف ولكن بحذر ان من هى إسرائيل ، واين توجد ، عدنا وسألناها هى ترغب فى الاستمرار فى العمل فى منزلنا اجابت على الفور وبشكل طبيعى : ولماذا لا ؟ الم تقولوا لى إن الرئيس السادات رحمه الله عقد سلام معكم ، وإذا فعل الرئيس هذا فكلنا هكذا . قالت زينب وجرت إلى عملها فى غسل الملابس . ومع مرور الايام بدت زينب اكثر حبا للاستطلاع وعندما كانت ترغب فى طرح سؤال كانت تنتظر فى زاوية الحجرة حتى ننتهى ، وكانت اسئلتها صغيرة ، وكانت تطرحها بصوت خفيض :

لماذا كانت هناك حروب ؟ وما الفائدة التى اتت منها ؟ كم سقط فى الحرب مثل زوجها رحمه الله ؟ هل لديكم ايضا ارامل من جراء هذه الحروب الكثيرة ؟ هل لديهن ما يساعدهن على تربية الاطفال ؟ وكثير من هذا النوع من الاسئلة .

ولقد سألنا :ـ هل تحصلين على معاش ارامل من وزارة الدفاع ؟

ـ نعم ـ اجابت بهدوء وعصبية ، ولكنهم هم يحصلون على المعاش ، ومن هذا المعاش

يعطونها ١٨ جنيها شهريا .

ـ ومن هم ؟ سألنا

ـ هم هم والدا زوجى رحمه الله ، اليس هو ابنهما وانا فقط زوجته .

وبمرور الايام جاءت تحمل البشرى ، لقد تزوجت مرة ثانية ، ولكن زوجها الجديد متزوج وله طفلان ، وزينب سوف تكون الزوجة الثانية إنها لن تنتقل للعيش معه ، وهو لن ينتقل للعيش معها ، ولقد وعدها بزيارتها مرة او مرتين فى الاسبوع إن شاء الله .

ـ لا أنه ليس غنياً ، إنه كمسارى فى اوتوبيس عام ومرتبه حوالى ثلث مرتبها لدينا .

بل إنه ابلغها إنه لن يستطيع ان يساعدها ماديا ، إنه يدخن سجائر بكل مرتبه .

دخله بالكامل يكفيه سجائر وشاى فقط . لقد قال أنه سيتوقف عن التدخين والمثل يقول « الراجل يتربط من لسانه » .

ولكن الا تعرف يا سيدى السفير ايضا المثل الذى يقول : ـ « كلام الليل مدهون بزبدة يطلع عليه النهار يسيح » إنه لن يتوقف عن التدخين ، هذا امر الله . معلهش .

وسألنا : لماذا إذن تزوجتى منه ؟

واجابت ببساطة : ـ إنه ليس امر طيبا لها للمرأة ان تعيش بدون رجل ، الرجل هو الامان والمقام ، مقام فى العائلة ومقام فى مجتمع الناس والجيران .

وكما هو مفهوم فإن زينب سوف تستمر فى العمل سوف تستمر فى تحمل اعباء ابنائها وتعليمهم . ولكنها عندما تسير فى الشارع سوف تسير برأس مرفوعة ، لان الجميع يعلمون ان لها رجلاً .

ومع مرور الايام ماتت ضرتها . ولقد احضر اليها زوجها ابناءه من زوجته الاولى ، واستمر فى تدخين السجائر بمرتبه، وهى اخذت على عاتقها إعاشة اربعة اولاد : ابنان لها

وآخران لضرتها رحمها الله .

ولكنها تسير فى الشارع مرفوعة القامة وسوف تشكر الله ان قدرها على إعالة وتعليم ابنائها بكرامة .

الطفلة وابو الهول :

فى خطاب ارسله احد القراء للجريدة القاهرية الأهرام حكى احد المصريين الذى لم يذكر اسمه ، والذى يعتبر نفسه واحداً من بسطاء الشعب ، انه كان يتنزه هو وزوجته وابنته فى احد الشوارع المزدحمة التى تخلو من الارصفة فى مدينة القاهرة وانطلقت سيارة تسير بسرعة وصدمت الطفلة واصابتها اصابة بالغة ، واستمر السائق الذى صدم الطفلة وكأنه لم يحدث شئ ، لم يقف ولم يقبض عليه احد ، ولم يطارده احد او حتى التقط رقم السيارة .

ولقد وقف الثلاثة فى الطريق قرابة الساعتين والطفلة تنزف دماً ، لم تقف اى سيارة خاصة ، ولم يوافق أى سائق تاكسى على نقل الفتاة إلى المستشفى . ولم يهتم احد فى الشارع بمصيرهم (فإذا وقف احد ما لتقديم العون فإنه من الممكن ان يسبب لنفسه الازعاج بسبب تحقيقات الشرطة المتواصلة) إذن فمن الافضل ان يبتعد عن الاماكن وعن مثل هذه الاحداث ، ماذا لك ولهم ؟ هل تبحث عن المشاكل ؟ ولماذا يقوم سائق التاكسى بتلويث السيارة بدم الفتاة ؟ اليس ذلك من شأنه ان يفقده عمله ، او على الاقل يعرض نفسه للتوبيخ الشديد من قبل شركة عربات التاكسى) . ولان ليس امامهم خيار ، حمل الوالدان طفلتهما وسارا مسافة حتى وصلا إلى مستشفى وهنا ايضاً مكثا قرابة ساعة ونصف حتى وصل طبيب لعلاج الطفلة التى تتلوى من الالم وتنزف الدماء .

قبل اى شىء ملىء الاوراق ، وكذا ملىء اعداد لا نهاية لها من صور الاستمارات ، والتوقيع عليها من سلسلة كاملة من الموظفين ، وحتى تصل إلى كل موظف فيجب الوقوف

فى الطابور وكيف يمكنك ان تقف فى هذه الطوابير المختلفة التى تملأ اروقة العيادة الطبية

مجموعة من الاطباء تجلس فى غرفة الاطباء يلعبون الطاولة . فهل يتجرأ احد ويزعجهم؟ ومر طبيب بالقرب من الفتاة ، وزادت الفتاة من صراخها ، وتوسل إليه الوالدان ولكنه القى بنظرة وسار ، ان علاجها ليس من صميم مسئوليته ، فلماذا يتدخل ؟ لماذا يتحمل المسئولية؟ من الافضل له ان يبتعد .

يوجد نظام ، اليس المثل يقول : اجرى جرى الوحوش ، وغير رزقك لن تحوش » والمثل الاخر يقول « العجلة من الشيطان » والاساس هو « قم بعملك حسبما هو مكتوب فى الكتاب» والا سوف تورط نفسك ، لا تبحث عن المزيد من المتاعب ! الا يكفيك ما لديك من المتاعب ، وهى كثيره ، اكثر من الازم .

والى موضوع آخر فى نفس الموضوع :

عندما انفصلت بعض الاحجار من مكانها وسقطت من كتف ابو الهول قامت ضجة كبيرة ، كتبوا مقالات وصوروا صوراً . وعقدوا جلسات ودعوا الى تشكيل لجان تحقيق .

اما اصحاب الخيال قد تنبأوا ان آثار مصر تنهار جميعاً الواحد تلو الاخر . وطالما ان الاثار كانت مدفونة فى الارض فسوف تحفظ جيداً ، اما اذا ما ظهرت فسوف تتعرض للظروف البيئية المختلفة وتبدأ المشاكل .

هذا يقترح اقالة الوزير المسئول وآخر يطلب تقديم المسئول عن هيئة الاثار التاريخية للمحاكمة وفى تلك الاثناء كانت تدور مناقشات بين الحكومة المصرية والحكومة البريطانية : لقد طلبت مصر من المتحف البريطانى اعادة « ذقن ابو الهول » التى قد سرقت على جزئين بواسطة جنديين بريطانيين وتم نقلهما الى المتحف فى لندن ولقد كتب انيس منصور فى عموده اليومى الثابت فى جريدة الاهرام : علينا ان نلغى مطالبنا من المتحف البريطانى ، بل بالاضافة الى ذلك علينا ان نطلب من الانجليز ومن الاجانب ان يأخذوا جميع الاثار التاريخية المصرية ، فهم سوف يستطيعون الحفاظ عليها اكثر منا ، خسارة انهم قد سرقوا فقط ذقن ابو الهول .

« بابا » فؤاد والمتطرف :

الياهو بن اليسار اول سفير اسرائيلى فى القاهرة كان قد ابلغنى باسمه واوصانى بالاتصال به . يا « بنى » هكذا تعود ان يسمى الياهو وهكذا ايضاً كان يطلق على ومن اليوم الاول الذى عرفته فيه . ومنذ ذلك اليوم وانا اناديه « بابا » فؤاد .

لقد اجتاز بفترة سن السبعين ، ذو شارب كبير ولحية قصيره ، وغير كثيفة . قامته مرتفعه وبدلته مكويه جيداً ، وقميصه منش ، وعصا السير التى يتكئ عليها ملتصقة به دائماً وهى كقطعه غيار اكثر منها اداة مساعدة للسير كل هذه الاشياء زادت وجهه فخراً واعطته وضعاً وثقه.

ان بابا فؤاد لم يجلس ابداً على طاولة التعليم، اما ثقافته الواسعة فقد تحصل عليها بالتعليم الذاتى، لقد كان شخصاً عصامياً واثقاً من نفسه وكل ما لديه صنعه بنفسه . واكثر من ذلك فلقد حفظ القرآن الكريم شفهياً ، لقد كان ليبرالياً واسع الافق غزيزاً بحكمه الحياه والتى من الممكن الاستفادة منها . وفى الضائقة تجده كريماً ، رجل يؤمن بربه وبنصيبه ، وفى مكان سكنه الشعبى فيعرفه الجميع كزعيم الحى . والجميع يأتون اليه ليسألوه المشورة والحصول على البركة ، ويشاركهم فى الشدائد وفى الافراح ، لقد كان ابا لجميع محيطيه ومعارفه.

بابا فؤاد كان اول بسطاء الشعب الذين اعربوا عن تضامنهم الفورى مع الرئيس السادات عندما وقع على اتفاقية السلام مع اسرائيل . وكان واحداً من الخمسة ملايين الذين خرجوا فى شوارع القاهرة لاستقبال الرئيس لدى عودته من رحلته الجريئة فى القدس .

ومن يوم التوقيع على اتفاقية السلام اعد لنفسه عدة عبارات بالعربية ، لقد اختار تلك العبارات التى لها مقابل باللغة العبرية : ان شاء الله ، او الشكر لله ، الحمد لله ......الخ

لقد احب « بابا » فؤاد ان يعرب عن تضامنه مع السلام ومع اصدقائه من ممثلى اسرائيل.

لقد تعود ان ينتظرنى على منعطف الشارع بجانب الرصيف حيث تقف سيارتى الى جانبه ، وكان يستقبلنى بعناق كريم ، ويمطرنى بقبلتين على كلا جانبى وجهى ، يضع ذراعه فى ذراعى ويسير معى متأبط ذراعى بينما يلوح باليد الاخرى بالعصا التى يتكئ عليها ، وهو يتفاخر كما لو انه يقول كان يجب علينا ان نمهد طريقنا : هؤلاء هم اصدقائى الذين عقدنا معهم معادة سلام .

وهكذا نسير معاً وببطء متأبطين الاذرع بينما يتوقف البعض من بسطاء الشعب يسألونه برهبة الاحترام على سلامة بابا فؤاد .

وكان يرد عليهم ببركاته ، ويصيغ حديثه بلغة شعبية مفعمة بالحيوية . وبعد ذلك كان يعرفنى اليهم بقوله :

هذا صديقنا المحبوب سفير اسرائيل المحترم . ونحن نحترمه ونقدره او يقول : هذا هو سفير اسرائيل تحياتنا وبركاتنا له كشخص جدير بالاحترام ، وكضيف عزيز لدينا ، أو يقول : اعرفكم على صديقى وحبيبى سفير اسرائيل والذى يعرف مثلنا ويحترم القرآن ، ولكننا للخجل الشديد لا نعرف ما فيه الكفاية عن التوراه .

وزوجة بابا فؤاد « الحاجة » (لقب تحصل عليه كل مسلمة تؤدى شعائر الحج فى مكة - ويحصل المسلم على لقب حاج) ترتدى حجاباً تقليدياً وابتسامتها لا تنوب من فوق وجهها ، ثقافتها الشكلية اعلى من ثقافة زوجها : فهى تعمل كبيرة المشرفين فى مدرسة ثانوية للبنات. وعندما تتواجد بجانب زوجها تكون كلها تواضع ، فهى على الاطلاق لم تنطق بكلمة او بفكرة تغطى بها على كلام زوجها .

وباستثناء كلمات المجاملة ، فهى لا تفتح فمها ، ولا تتدخل فى الحديث الا اذا طلب

منها زوجها وبوضوح ان تقوم بذلك، وهو من ناحيته فانه كثيراً ما يشجعها كى تعرب عن رأيها، وهى دائما تتمسك ان تقول امين بعد زوجها . ودائما ما تكمل وبصوت عال ما ينقله زوجها من القرآن بتلك الجملة التقليدية التى يجب على المسلم المؤمن ان يقولها بعد كل آيه من آيات نبى الاسلام وهى « صدق الله العظيم » .

وبابا فؤاد والحاجة قاما بتربية ابنين يفخران بهما : الاول سمير الابن الاكبر وقد وصل الى القمة كمغن معروف تسبقه شهرته فى العالم العربى وتحبه الجماهير ، والثانى مهنته طبيب.

وكان لبابا فؤاد متجر لبيع الاثاث البسيط والرخيص من ذلك النوع الذى يقتنيه البسطاء فى القاهرة ، مناضد صغيرة من البلاستيك وكراسى عادية وفوتيهات وموائد تملأ متجره عن اخره ، وفى احدى حجرات المتجر يوجد مكتب وفيه منضدة للكتابة وعليها اوراق وجهاز تليفون والقرآن .

وعلى الحوائط صور كبيرة خاصة بفؤاد فى شبابه عرض المنكبين طويل القامة قوى وشكلها جميل جداً .

اما الصور الاخرى المعلقة والموزعة على حوائط المكتب فهى صور للقاء الرئيس السادات مع مناحم بيجن ، صورة اثناء التوقيع على اتفاقية السلام ، بل والبعض من قصاصات الجرائد البعض منها داخل اطار والبعض الاخر تم لصقها بدون اطار وتميل الى الاصفرار.

ومن بين هذه القصاصات تجد قصاصات من جرائد المعارضة تهاجم بابا فؤاد على صداقته لاسرائيل ولسفيرها .

واثناء المشاكل او التوتر فى العلاقات المصرية الاسرائيلية كان بابا فؤاد يسرع الاتصال بى تليفونياً ، وان اسرع للذهاب الى مكتبه لأجلس الى جانب مكتبه ، فهو يريد ان

يعرف ماذا حدث بالضبط ، وما هو مصدر هذا التوتر بين الجيران - ابناء العم - الذين عقدوا مؤخراً سلاماً بينهما .

ان مثل هذا الحديث كان هاماً بالنسبة له سواء حتى يستطيع ان يجيب وان يوضح لجيرانه ولاصدقائه الكثيرين من ابناء حيه عن ماذا حدث ، او ان يسمع الامور من مصدرها الاصلى ، حتى يؤكد لنفسه انه لم يخطئ عندما اختار الصداقة مع اسرائيل وعندما آمن بالسلام معها .

وفى يوم من الايام اتصل بابا فؤاد تليفونياً بمكتبى وطلب منى ان امر عليه ، لان لديه شيئاً هاماً وعاجلاً بالنسبة لى ، وفى ذلك اليوم كنت مشغولاً للغاية ببعض اللقاءات ، ولكنى فكرت ، ثم اصدرت اوامرى الى سكرتيرتى بالغاء جميع المقابلات التى كانت محددة فى هذا الصباح وذهبت اليه الى متجره الذى يقع فى وسط المدينة ، فى ميدان التحرير ، ووجدته ينتظرنى كعادته على الرصيف على زاوية الشارع بينما يستند على عصاه ، حيث يقف ويبدو عليه الاحترام ثم تأبط ذراعى وسرنا معاً الى متجره .

وقال لى بابا فؤاد : عندى انسان اريد ان تتعرف عليه ، وارجو منك ان تتكرم وتخصص له البعض من وقتك وتطيل الحديث معه .

سرحت فى نفسى من هو المقصود ، ولكن على طريق المجاملة الشرقية الملزمة قلت له: ان جميع اصدقائك لزاماً على ان اعطيهم كل وقتى ، وسألته عن هوية الرجل حتى اتحدث معه.

واجابنى بابا فؤاد بصوت طائش لم اعهده فيه ونبرة غامضة : عندما نصل الى المتجر يا بنى سوف تعرف بنفسك ، فانا لم احضرك من مكتبك ، لولا اننى اعرف ان هذا الرجل جدير ان تعرفة وجدير ان يعرفك ، تحلى فقط بالصبر حتى نصل الى المتجر ، ان الله مع الصابرين ، قال ذلك ثم صمت ، وتفرغ للرد على تحيات العابرين امامه سواء بالانحناء او بالمصافحة والبعض بالقبلات على الوجنتين ، وهو كالعادة يرد على تحياتهم، ويعرف الجميع

بى كأب فخور بإبنه.

عندما دخلت الى المتجر اظلمت عيناى تقريباً : وجدت الى جانب المكتب شاباً ذا لحية ويرتدى ملابس لا تجعل الانسان يخطئ فى معرفة هوية من يرتديها . لقد كان من الواضح ان من امامى هو احد الشباب المصريين المتدينين ، بل ربما من المنظمات المتطرفة .

لقد كان فى عينيه بريق ثابت ذلك الذى يميز تلميذاً ذكياً . وطريقة حديثه مثل حكماء الدين الإسلامى ،له قدرة نادرة على اقتباس آيات من القرآن ومن الاحاديث الإسلامية وله اسلوب حديث ومناقشة تذكرنى فى بأفضل تلاميذ المدارس الدينية عندنا ، لديه قدرة كبيرة على التعبير وقدرة استيعاب غريبة.

والحقيقة تقال انه خلال الثوانى الاولى من هذا اللقاء تجمع داخلى غضب مكبوت من بابا فؤاد الذى فكر فى ان يضعنى أمام حقيقة واقعة دون ان يبلغنى بذلك ، او يحصل على موافقتى لإجراء لقاء غير عادى من هذا النوع وعندما زالت مشاعر الغضب حلت محلها مشاعر التعجب : ما لهذا الرجل بسفير إسرائيل ؟

ربما جاء إلى هنا حيث ارسله زملاؤه ، انه لم يحضر إلى هنا إلا لكى ينصب لى فخاً؟ وماذا سوف يقول الحراس المصريون ، وماذا سيبلغون به رؤساءهم ، إنهم يجلسون بالحجرة المجاورة ويسمعون كل شيء بالتأكيد ؟ الن يحدث سوء لهذا الرجل بعد هذا اللقاء الجرئ ، ربما بل من المؤكد ان السلطات المصرية سوف تسرع بالقبض عليه حتى يتحققوا من هذا الرجل ، رجل متطرف مصرى مع سفير إسرائيل فى متجر بائع اثاث طيب ذى نوايا طيبة، ولكنه ساذج بعض الشئ.

ولكن الكثير من هذه المخاوف تلاشت بسرعة مع استقبال الرجل لنا ، لقد مد يده بحركة رقيقة وبأدب ورحب بى حسب أفضل التقاليد المصرية الإسلامية . دون ان انتظر قال انه سمع عنى كثيراً من صديقنا المشترك بابا فؤادوالذى يجب ان يشكر شكراً مضاعفاً لأنه وافق ان يدعونا معاً تحت سقف واحد .

إنه لديه الكثير من الاسئلة العديدة ، يريد ان يغوص إلى عمق الأمور ، يريد ان يستمع من المصدر الأصلى اجابات عن الاسئلة التى يتخبط فيها ، إنه يريد ان يشعر بنفسه وان يعرف من هم هؤلاء الإسرائيليون التى عقدت بلاده اتفاقية سلام معهم .

وما هى أهدافهم ، وما هى رؤيتهم للأديان بصفة عامة وللدين الإسلامى بصفة خاصة، وهل ستعود على مصر وعليهم ـ مصر كدولة مسلمة سّنية وهم كيهود وإسرائليين ـ فائدة من هذا السلام .

انه منذ فترة ما ، بدأ يتردد بداخله من موقف زملائه (وليوضح من هم) إزاء اسرائيل وإزاء اليهود ، وبذلك فهو يشعر بعدم راحة فكرية طالما انه لم يسأل ولم يبحث ، ولم يستمع ولم ينصب ويدرس الامور من جديد .

وعن سؤالى اجاب : إن كل ما يعرفه عن إسرائيل وعن اليهود ، يعرفه مما هو مكتوب فى القرآن وفى الصحف المصرية الدينية (وهى تلطخ اسرائيل بشكل دائم) .

ولقد اردت ان اوجه الحديث حتى بنداء من المصادر .

ـ من القرآن والعهد القديم والاحاديث (الشريفة الشفوية فى الاسلام) .

تحدثنا عن ابنائنا المشتركين ومن ناحيتى فإننى لم اتجاوز فقرات فى القرآن والتى يمكنها ان تشكل نوعا من التكامل فى حق إسرائيل على ارضها ، وهى نفس الفقرة التى نقلها سيدنا موسى عندما قال لشعبه : ادخلوا الارض المقدسة حسبما امركم الرب ، ولا تنسحبوا منها ، والا ستفقدوا إلى الابد .

واستمر الحديث بيننا عن الحرب والسلام فى القرآن بينما اقتبس امامه الآية المشهورة التى تأمر المسلمين " وإذا جنحوا للسلم فاجنح لها " والعديد من الآيات والإثباتات والتفسيرات والتى من خلالها احاول ان احدد القاسم المشترك ، فى مقابل شريعة التطرف التى تحث على الاختلاف .

والقرآن مثله مثل الكتب المقدسة للثلاثة اديان التى تؤمن بالتوحيد فهو يحتوى كل شىء، يتحدث عن الحرب ويتحدث عن السلام ، يتحدث عن الجيرة الطيبة ويتحدث عن العداوة والكراهية وفى نهاية الامر فلقد اوضحت لمحدثى ان رجال السياسة هم الذين يختارون وحسب احتياجاتهم السياسية تلك الآيات التى يمكنها ان تخدم هدفهم السياسى.

وخلال هذا الحديث وجدت نفسى اوصيه بقراءة الكثير مما تم نشره ـ مثل مقال القاضى عشماوى رئيس محكمة امن الدولة المصرية وهو رجل ضليع فى شئون الإسلام ـ حيث تساعد القراءة على ايضاح مفاهيم معينة فى الإسلام من روح الاعتدال والتسامح والسلام والجيرة الطيبة ونبذ الإرهاب والدمار والحرب .

وخلال حديثى معه كان على ان اجيب عن بعض اسئلته العديد حول إسرائيل الآن ، وفى كل مرة كنت افاجأ من جديد من ذكاء محدثى كلما تحدثنا عن الماضى البعيد ، وافاجأ ايضا من جهله كلما تحدثنا عن عصرنا الحديث .

ان الدعاية الرخيصة اصبحت بالنسبة له حقائق مؤكدة ، اما واقع الحياة فكان بالنسبة له دعاية عدو ماكر ومخادع .

ومع اقتراب نهايه الحديث بيننا اقترب محدثى الغريب واقترب فمه من اذنى وهمس لى كمن يقول سراً ، بانه قريب جداً من الدوائر الإسلامية المتشددة فى مصر وهو يستطيع ان يضمن لى بصدق ، ان احداً من هذه المجموعات لا يضمر لى شراً لى شخصياً كسفير لإسرائيل او لأفراد طاقم السفارة الإسرائيلية .

وعندما انتهينا شد هذا الرجل الفاتر على يدى بحرارة واعرب رغبته ان يعود ويلتقى بى لا ستكمال هذا الحديث ، ولكى يقص على ايضا ردود فعل زملائه على حديثنا ، وبعدم رغبة لم اظهرها ، ابتسمت له وقلت له اننى سوف اكون سعيداً ، اى عندما اعود والتقى به اما الظروف التى رأيته فيها للمرة الثانية كانت اعجب من ظروف لقائنا الاول : فلقد كنت اقف على بوابة حديقة منزلى اصافح القادمين لتهنئتى فى الاحتفال الذى اقمته بمناسبة

عيد الاستقلال.

وفجأة لاحظت من بعد رجلين وسيدة واحدة ، يقفون فى الطابور لمصافحتى والتهنئة بعيد الاستقلال . الأول كان بابا فؤاد وهو كعادته لم يضيع فرحة احتفال واحدة من احتفالات عيد الاستقلال التى اقمتها فى القاهرة ، ويسير خلفه المتطرف حيث يرتدى ملابسه طبعا للتقاليد الإسلامية المصرية ، ومن بعدهم الحاجة الزوجة المخلصة لبابا فؤاد ترتدى حجاباً وملابس إسلامية معتدلة .

إن دخول المتطرف الشاب ذى اللحية ويرتدى على رأسه الطاقية البيضاء قد ادى الى كهربة الجو بين ضيوفى من الإسرائيليين والمصريين والاجانب ... وقد جاء الى عدد من الضيوف من ذوى المناصب العليا ومن بينهم وزير مصرى والسفير الامريكى للاستفسار عن هذه الظاهرة التى لم يسبق لها مثيل .

وقد قام واحد من رجال الدين المصريين والعديدون الذين قاموا بتأمين الاحتفال بملازمة المتطرف طوال وجوده فى حديقة منزلى . اما رجال السفارة الاسرائيلية فقد استعدوا طبقاً لأى شئ جديد . اما انا فقط استقبلته بترحاب ورحبت به حسب تقاليدنا فى الترحاب لتكريمه بالحضور لاحتفال عيد الاستقلال ، واقترحت عليه ان يجلس على احدى الموائد المفروشة فى احدى زوايا الحديقة حيث يستطيع ان يجد هناك مشروبات خفيفة مما يسمح بها للمسلم المؤمن ، ومع ذلك فقط شعرت بالسعادة بسرعة عقب سماعى كلمات الترحيب التى قالها لى عند مصافحتى لقد قال لى : تحياتى الشخصية . ابلغك بأننى نجحت فى اقناع زملائى بحق اسرائيل فى الوجود المستقل ، ومرة اخرى عندما جاء لتوديعى ومصافحتى شعر انه بحاجة لكى يهمس لى ويقول : لا تخشى من زملائى فى الحركة . فهم لا يضمرون لك شراً او لمن هم فى السفارة . استمر فى عملك الهام هنا ، والله فى عونك وعوننا جميعاً .

وعندما ابتعد المتطرف عن منزلى اخذت افكر فى نفسى : كم هى غريبة الامور فى

منطقتنا انه من السهل ان يقع هذا النوع من الناس بيأسهم وفقرهم فى التطرف المدمر والخراب والقتل وما هو اصعب من ذلك . وكم يحتاجون من الشجاعة ليقفوا امام الواقع، ويؤيدون الاعتدال ويهتموا بالسلام والبناء وفى هذه اللحظة لم يكن لى ادنى شك فى ان ضيفنا كان واحدا من اكبر الشجعان فى منطقتنا ان هذا الشخص قد اتخذ خطوه حاسمة بشجاعة وبكرامة وعلناً .

امور غير هامة :

توفيق الحكيم واللعبة :

قبل عدة اشهر من وفاته بينما هو راقد جاءت مراسلة التليفزيون المصرى لاجراء حديث مع آخر العمالقة من ادباء مصر - توفيق الحكيم .

ولقد اعتذرت المذيعة الشابة لانها جاءت متأخرة بعض الوقت . وقالت للأديب العجوز انها تأخرت بسبب الاحتفال الذى اقامته من اجل يوم عيد ميلاد ابنها الصغير .

وهنا اهتم الحكيم وسأل : وما هى الهدية التى اشتريتها لابنك الصغير بمناسبة عيد ميلاده . قالت المذيعة بندقية لعبه جميله .

اما توفيق الحكيم الذى كان معروفاً سواء ببخله الشديد او بكراهيته للنساء فقد رفع رأسه وغرس نظره فى الام الصغيرة ، فوضع اصبعه على صدغه فى ذلك الوضع المريح والمحبب له . وقال للمذيعة بصوت غاضب وعال : ومتى تتوقفن انتن ايها النساء لتربية ابنائنا على البنادق والمسدسات ؟ وبدلاً من ان تضيعى وقتك فى حديث مع عجوز مريض، اجرى واحضرى الى ابنك كتاباً ، يجب الا نربى ابناء مصر كمغامرين ومدمرين، ولكن كابناء ثقافة يرغبون فى المعرفة، ورجال بناء وانتاج .

على هامش حديث مع الرئيس محمد انور السادات :

لقد سألته : عندما قررت سيدى الرئيس الحضور الى القدس ذهبت الى دمشق ودعوت الرئيس حافظ الاسد للانضمام اليك فى رحلتك . وقد رفض دعوتك بل انه قال ، اذا ما ذهبت بالفعل الى القدس فسوف يعلن عن استنكاره لتصرفك ، وبعد ذلك ذهبت الى السعودية ولكنك لم تكشف لهم اى شئ عن خطة زيارتك للقدس ... وبعد ذلك اصيب السعوديون من حقيقة انك لم تطلعهم على سر الزيارة .

فلماذا اخترت ان تخبر الاسد بسرك ، بينما اخفيت الامر على السعوديين ،، ولماذا اهانتهم هم بالذات ؟

ويجيب الرئيس السادات : عندما قررت ان ازور ال[illegible]دس ، كان من الواضح لى ان نجاح الزيارة يلزم قبل اى شئ ابعاد السوريين عن هذا المساء ، واشتراكهم يضمن عدم النجاح التام . وابسط طريق لضمان عدم اشتراك الاسد كان دعوته للاشتراك فى زيارة القدس. لقد دعوته وهو رفض كما هو متوقعاً الدعوة .

وفى المقابل كان من الواضح انه اذا ابلغت السعوديين بهذا السر فقد كانوا سيعارضون ويشده هذه الرحلة ، بل وسيقولون عن رأيهم علانية حتى قبل الرحلة . ولذلك فقد فضلت ان يعرفوا بعد ذلك ، بدلاً من ان يعارضوا الزيارة قل ان تنفذ .

دراسة البنزين والنيل :

كمال حسن على نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية السابق، وبعد ذلك رئيساً للوزراء، لم يشرب القهوه ابداً، والمشروبات المحببة اليه هى الشاى بالنعناع او شاى باليانسون.

اما بالنسبة لى فقد كان يطلب قهوه مظبوط ، هذا ما تعودنا ان نشربه فى كل مرة فى ساعة العصارى فى منزله القريب من المطار.

وليس امام المرء بديل عن حديث هادئ من هذا النوع والذى يدور تقريباً بعيداً عن الشكليات نتحدث معاً بمفردنا « فى بعض الاحيان لاحظت سكرتيره المخلص يختفى فى الحجره المجاورة والباب مفتوح بما يمكنه من الاستماع وتسجيل كل كلمة » .

وفى احد الايام ـ بينما كان نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للخارجية ـ اتصلت به تليفونياً وسألته عن مخزون البن فى منزله ، ورد كمال قائلاً ان لديه فى المنزل افضل بن وأفضل ينسون. ودعانى للحضور الى منزله فى نفس اليوم وقت العصارى ، وكان ذلك فى احد الايام العديدة والعديدة جداً خلال خدمتى فى مصر ، خلالها حاولت وعدت احاول ان احرك «عجله تطبيع العلاقات» التى توقفت او كانت تتحرك ببطء شديد .

وقلت لكمال حسن على بعد ان قدم لنا خادمه المخلص القهوة : منذ حضورى إلى القاهرة ولقد رغبت فى دفع العلاقات الثنائية إلى الامام حتى يكون السلام نموذجاً لجميع جيراننا ، بما يمكن المواطن الإسرائيلى البسيط ان يتخلص من الاحساس بخيبة الامل وان يشعر بالفعل بحياة السلام الكامل .

ومثل هذا الاحساس سوف يشجع جيراننا الآخرين وكذا المواطن الإسرائيلى على الوثوق بالسلام كطريق ثقة مطلقة . واستطردت فى حديثى قائلاً : لماذا يتشابه الامر بالنسبة للانسان الذى يريد ان يضغط على دواسة البنزين فيجد نفسه يضغط على الفرامل.

اما كمال حسن على الذى يعرف الحرب جيداً والذى اصيب باصابات بالغة فى القتال معنا ، فقد نظر بعينيه الزرقاوين وبثقة كاملة بالسلام وقال : توجد بعض المواقف التى يكون فيها الضغط على الفرامل افضل كثيراً من الضغط على دواسة البنزين ... نحن نمر بفترة حساسة جداً فى علاقاتنا فى هذا الوقت . وقريبا جداً سوف نبدأ كلاما معا فى الضغط على دواسة البنزين وسوف نقوم بذلك بحذر وبالتدريج ، مطلوب الصبر من جانب اصدقائنا فى إسرائيل.

وقلت له : نحن فى إسرائيل كما هو معروف نعيش والـ« ستوب ووتش » فى ايدينا،

وهنا فى مصر يعيش الناس على ضفتى النيل وحسب معدل جريانه البطىء . فكيف تغلق الفجوة بين العالمين ، بين هذين الايقاعين . اجاب كمال حسن على قائلاً : ـ حسناً ، لقد بدأت تفهمنا ، وتفهم اسلوبنا واسلوب تفكيرنا . انتم شعب صغير شعب عمره ٣٥٠٠ عام ، واغلب هذه السنوات عشتموها فى دول ذات ايقاع مختلف ، فى اوروبا وفى امريكا ... بينما نحن شعب عمره سبعة آلاف عام عشناها حول النيل ، الذى قلت عنه ، مطلوب الصبر يا موشيه . ـ ولكن النيل له خاصتان وليس واحدة

ـ كيف ؟ سأل كمال كمن فوجىء .

ـ النيل يتدفق بالفعل ببطء ولكنه دائما وابداً يتدفق وفى اتجاه واحد ، فهيا نبحث معاً طريقاً للتقدم ـ اذا اردت ان تتقدم ببطء ـ ولكن نتقدم دائما بالضبط مثل النيل .

فهل اوضحت ؟

العمود والسفير صلاح حسن :

فى نهاية اكتوبر عام ١٩٧٣ قدمت اوراق اعتمادى كسفير لإسرائيل فى روما وبعد مراسم التسليم فى قصر الكفيرينالا ، علمت انه فى نفس اليوم وقبلى بساعة قدم صلاح حسن سفير جمهورية مصر العربية الجديد فى ايطاليا اوراق اعتماده ايضاً . وبعد فترة ما، علمت ان حكومة ايطاليا تواجه مشكلة : ـ فحسب البروتوكول فان ترتيب السفراء الاجانب يكون كما هو معروفاً اليوم حسب ترتيب تقديم اوراق اعتمادهم . فلماذا بالنسبة للسفيرين المصرى والاسرائيلى، والذى يجب ان يقف كل منهما بجانب الآخر فى الاحتفالات التى يتم فيها دعوة جميع افراد السلك الدبلوماسى ؟ هل سيوافق الإسرائيلى على الوقوف جانب المصرى وهل سيوافق المصرى على الوقوف الى جانب الاسرائيلى ؟ ان هذا الموقف لم يتأخر موعده . فلقد تم دعوة جميع السفراء فى روما فى رأس السنة الميلادية ، لكى يقوم السلك الدبلوماسى الاجنبى بتهنئة رئيس ايطاليا .

وعندما وصلت إلى القصر اخذنى رئيس المراسم الايطالى لمكانى ، وقد فوجئت من الطريقة البسيطة جداً التى وجدوا فيها « حل المشكلة » فى هذه القاعة القديمة والتى تخلب الانظار فى قصر الرئاسة والتى اقيم فيها الاحتفال ، يوجد الكثير من الاعمدة . وقد جلسنا بحيث يفصل احد هذه الاعمدة بين سفير مصر وسفير إسرائيل . وتطلعت من وراء العمود فوجدت ان السفير المصرى ينحنى من وراء العمود لينظر الى . لقد رأيت انسانا فارع القامة يدل وجهه على انه مثقف ابتسامته هادئة يبعد كثيراً عن تجسيد « شكل العدو » الذى كنت اتخيله .. ومنذ ذلك الحين وفى جميع الاحتفالات الرئاسية التى اقيمت فى ايطاليا خلال مده خدمتى هناك كان يفصل بينى وبين قرينى المصرى نفس عمود الرخام اللامع والمصقول.

وبعد مرور ثمانى سنوات ، وبعد مرور اسابيع ومن تسلمى مهام منصبى الجديد فى القاهرة دق جرس التليفون فى منزلى وقال المتحدث : سيدى السفير يتحدث معك انسان تعرفه ولا تعرفة، انسان كان يفصل بينه وبينك عمود رخام فى روما . واشكر الله انه قد حانت اللحظه التى لا توجد فيها اعمدة بيننا ، ونستطيع ان نتحدث معاً . مرحباً بك فى القاهرة! لقد ذهبت الى زيارته فى نفس اليوم ، حيث كان يشغل منصب نائب مدير عام وزارة الخارجية المصرية ، ومن هذا اليوم نسجت بيننا صداقة عميقة والتى استمرت خلال سبع سنوات « خدمتى فى مصر » .

من حديثى الاخير مع السفير بدر همام :

حدث هذا الاسبوع الثانى من شهر يونيو عام ١٩٨٨ قبل عدة ايام من انتهاء عملى فى مصر . لقد رن جرس التليفون فى مكتبى حيث تمت دعوتى للذهاب الى وزارة الخارجية لمقابلة السفير بدر همام مدير قسم اسرائيل كان لدى اعتقاد انه سوف يقدم لى احتجاجاً رسمياً على بعض التصريحات فى اسرائيل.

فلقد تعودت على ذلك ، تعودت خلال سنوات خدمتى الطويلة فى القاهرة . ولكن هذه

المرة حزنت فعلاً ان يكون موضوع لقائى الاخير مع صديقى بدر همام احتجاجاً رسمياً من الحكومة المصرية للحكومة الاسرائيلية .

لم يكن يحدث شئ اذا ما استدعوا المفوض دافيد اوفق وينقلون الاحتجاج بواسطته فى هذه اللحظات رأيت فى حديث الاحتجاج هذا . درجة ما من عدم اللباقة وقليلاً من الاثارة . ولذلك فلقد قررت ان اعيد المضايقة . ومع ذلك فلقد اكدت على ان تكون مضايقتى رقيقة ومهذبة ودبلوماسية فلقد طلبت المفوض دافيد اوفق ليرافقنى ودخلنا معاً لحجرة السفير بدر همام .

وبدأت كلامى بالاعراب عن سعادتى لدعوتى لهذا الحديث الرسمى الاخير، وقلت ان هذا الامر يعطينى الفرصة لكى ابلغكم بملخص للدروس التى جمعتها خلال عملى فى القاهرة عن العلاقات المصرية الاسرائيلية.

وقد كان السفير همام رجلاً ساحراً فى الحديث . رجلاً مهذباً جداً ثقافته عربية وغربية، وله درايه كاملة بالشعر العربى الكلاسيكى وبالقرآن والتقاليد الاسلامية .

وبعد حوالى ثلاثه ارباع الساعة من البحث الهام والمثير فى العلاقات المصرية الاسرائيلية ، نقلت الحديث وبلطف الى موضوع اخر : « الجيرة فى الاسلام » بينما ان استشهد امامه وامام مساعده - الذى يسجل كل كلمة - بالاحاديث الاسلامية المنسوبة لنبى الاسلام .

على المؤمن بالله واليوم الاخر - ان يحترم جاره .

على المؤمن بالله واليوم الاخر - ان يحترم ضيفه .

على المؤمن بالله واليوم الاخر - ان يقول كلمة طيبة او يصمت .

وعندما انتهيت من استشهاداتى امام المساعد الذى يسجل كلامى، توجهت الى مضيفى وقلت له : الآن ايها الصديق بدر ، انا واثق من انك دعوتنى اليوم للقاء رسمى اخير

لكى تكرمنى - حسب تقاليد الاسلام - حيث اننى ايضاً جار وايضاً ضيف سوف ينهى مهام عمله ويعود الى وطنه. وان آمل ان توافق - حسب الحديث النبوى الا تقول لى اليوم الا كلمة طيبة او تصمت.

لقد بدا بدر همام المسكين مرتبكاً ، وبدأ يقول بعض الجمل وهو يتلعثم ، كيف يمكنه بهذه المقدمة ان يقوم بالمهمة التى كلفها به وزير خارجيته وان يدم الاحتجاج .

وقال انه حسبما يذكر فان النبى لم يستخدم كلمة يصمت وانما يسكت بعد ذلك توقف واتجه الى مساعده وقال له بكلمات لطيفة بأن يتعلم البروتوكول مما سجله الآن من حديثنا هذا، حيث المقصود هو احد الدروس المستفادة فى تكنيك الدبلوماسية .

الصبر والتسامح :

قبل تعيينه للاوقاف فى حكومة الرئيس محمد حسنى مبارك الثانية شغل الدكتور الاحمدى ابو النور احد المناصب العالية جداً فى الازهر ، اكبر وارقى مؤسسة اسلامية فى العالم الاسلامى السنى .

بعد مقتل الرئيس السادات كان الدكتور الاحمدى ابو النور يشترك كثيراً فى مناقشات لاهوتيه تذاع يومياً على شاشات التليفزيون فى الساعة السادسة مساء . وكان هدف هذه المناقشات التصدى للمفاهيم الشاذه والتفسيرات الخاطئة للشريعة الاسلامية .

وكان دكتور الاحمدى يرتدى كعادته بدلة عادية . حيث لا يرتدى العباءة التقليدية ، وكان يجلس ويجيب بالتحليل على الاسئلة التى يتقدم بها الناس من البسطاء . ومن الطلبة بل من هؤلاء المعروف عنهم بميولهم المتطرفة جدا وبعضهم لم ير نفسه فقط مخولاً لتفسير القرآن، وانما تجرأ ليقوم بتنفيذ الاحكام .

وخلال حديثه مع هؤلاء المتطرفين كان الدكتور الاحمدى يدعو الى محبة الانسان والى الاخاء والصداقة وواجب المسلم ان يتعلم وان يكتسب المعرفة . ولقد كان يكثر من الحديث عن

اهمية العلم لخدمة تطوير الدولة ورفاهية المجتمع . لقد كان يدعو بروح الاسلام الى الحديث الروحانى، ولكنه كان يدعو قبل اى شئ الى الصبر والتسامح .

ولقد كان الدكتور الاحمدى ابو النور دائماً يدعم حديثة بمقدمات من القرآن والاحاديث وكذلك بامثال وحكم ، التى تجسد للمستمع بشكل جيد الرسالة التى يريد ان ينقلها له .

وهذه واحدة من احد الامثلة التى سمعتها منه قبل ما يزيد على سبع سنوات ، وان اسجلها باسلوبى من الذاكره ، واترجمها ترجمة حرة :

سيدنا ابراهيم الخليل .... كان لا يتناول طعامه الا اذا كان معه ضيوف يأكلون معه ويجلسون معه حول مائدته واذا طلبوا شيئاً كان ابراهيم يخدمهم بنفسه بكل احترام .

وذات يوم تعجب الله :

ماذا حدث للخليل ؟

الذى جلس بمفرده على مائدته ظهر يوم يتناول طعامه وليس معه ضيوف او عابرون وعلى الفور اعطى رب العالمين اشارته فامتثل امامه جبريل :

وقال رب العالمين ليست هذه الا ساعة مصيرية.

قال رب العالمين :

وامر قائلاً اهبط الى الخليل لترى ماذا اصابه حيث ما بدر منه اليوم لم يكن من عادته دائماً.

وفى لحظة امتثل جبريل لاوامر الله ، وظهر امام ابراهيم بينه وبين المائدة .

وقال له :

اقسم بحياتك انك لن ترتشف رشفة واحدة ولن تأكل لقمة واحدة ،الا بعد ان تنفذ مطلب الرب وتوضح تصرفك .

قال ابراهيم الخليل للملاك الرب جبريل :

ليس الامر كذلك .

لقد جاء عابر غريب .

لم اره ولم يرنى من قبل .

ودعوته كما ادعو الضيوف .

واثناء جلوسه معى فى خيمتى قام فجأة من مكانه وبدأ يصلى الى الصنم الذى احضره معه .

قلت هل : لن تجلس معى حول مائدتى ، الا اذا بدأت وقلت الشهادة لا اله إلا الله ولم امل كلامى والا وعاد العابر وسجد مرة ومرة اخرى الى لصنم .

وصرخت صرخة كبيرة فى خيمتى ان يولى الادبار ، وخرج وهو غاضب منى .

واستطرد ابراهيم الخليل قائلاً للملاك جبريل عفواً ها هو امامك ، يسير منذ يوم ويبتعد ، لا زال حتى الآن يصلى ويسجد للصنم اثناء سيره .

وبالنسبة لى : اذهب وقل لرب العالمين بالا يأتينى الى مائدتى بانسان ، لا اذا كان يؤمن بوحدانية الخالق الواحد الاحد الذى لا شريك له .

هكذا قال ابراهيم الخليل كلامه ، وطلب من الملاك جبريل الذى كان لا يزال واقفاً بين ابراهيم وبين مائدته ، ان ينقل كلامه حرفياً .

قال جبريل :

حقاً ان ارى العابر الذى يسير ويبتعد وحسب قولك فانا اراه لا زال يصلى للصنم وان ارى ايضاً انه يبلغ من العمر ستين عاماً .

ولكن كيف تعتقد ايها الخليل .

ان امر عبادته للصنم غير معروف لرب العالمين ؟ اوليس الله سبحانه وتعالى يطعمه بنفسه صباحاً وظهراً ومساء ؟

وليس يوماً او اثنين بل ستين عاماً كاملة .

ان رب العالمين لا يضع لذلك شروطاً فهو يشبعه بمشيئته ، يطعمه ويسقيه وينتظر.

نعم

رب العالمين ينتظر بصبر ويتسامح .

ويعلم الله تبارك وتعالى انه سوف يأتى اليوم الذى سوف تفتح فيه عين العابر ويعرف ان لا اله الا الله .

واستطرد الملاك قائلاً بلوم للخليل :

اذا كان رب العالمين قد اخذ على نفسه هذا القدر من الصبر والتسامح ، فاين صبرك وتسامحك ايها الخليل ؟

تعلم من خالقك وما ربك .

ولتكن صبوراً ومتسامحاً خاصة مع من يختلفون معك فى الرأى .

هذا هو اسلوب الله فى السماء ، وهذا هو اسلوب المؤمنين فى الارض .

قال جبريل كلامه واختفى فى طرفة عين . وكيفما جاء ذهب واختفى .

وارتجف ابراهيم الخليل وظل بجانب مائدته المنصوبة .

لا يلمس شيئاً .

ولا يرتشف شيئاً .

ولا يأكل شيئاً .

وظل يفكر فى العابر الذى يسير ويبتعد ، ويسجد للصنم ويصلى له .

ولم يهدأ ابراهيم حتى ان شد طرقه وذهب وراء العابر ولحق به . واعاده ، واجلسه، واطعمه ، بل ووقف لخدمته .

اما العابر الذى لم يتكلم ولم يسأل إلا بعد ان ملأ معدته، فتح فمه بعد ان اكل وشرب وقال لابراهيم خليل الله :

فى البداية وضعت شروطاً وطلبت منى ان اغير عقيدتى ، وفجأة اختفت الشروط بل وجريت ورائى ولحقت بى ، واجلستنى واتخمتنى بالاكل ، بل وتقف لخدمتى .

غريب هو اسلوبك يا ابراهيم ومزعزع ايمانك الا اذا فسرت لى عملك هذا . وقص ابراهيم القصة من بدايتها وحتى نهايتها .

وقال انه كيف يطعم رب العالمين ، حتى عبدة الكواكب والاقمار، والالهه والاصنام صباحاً وظهراً ومساء، وان الله صبور ومتسامح لستين عاماً ، بل لمائة عام فانتصب العابر ووقف ذاهلاً وكان كمن يرتجف بداخله وبدا كما لو ان عاصفة مرت به من رأسه وحتى قدمه وما ان استطاع العابر ان يلم اطرافه وجسده فتح فمه وقال للخليل ابراهيم :

هل حقاً اطعمنى الله ستين عاماً كل يوم ، صباحاً وظهراً ومساء ، وهو يعلم اننى اعبد اصناماً؟

هل حقاً يصل صبره وتسامحه الى هذا الحد ؟

انه ليس الا الله الواحد الاحد لا شريك له ولا شئ سواه .

قال العابر كلامه ، ونهض وذهب واثناء سيره ، قام بتحطيم الصنم وكان يسجد ويشكر الله الواحد الرحمن الرحيم الصبور والمتسامح .

الفصل الرابع

فى مواجهة الواقع

المحجبة والسلام :

فى بداية ١٩٨٢ وجدت نفسى اجلس مع صديقى ويدى اليمنى ، فى ذلك الوقت المفوض افرايم دوفيك فى حديث فى حجرة محافظ السويس : وهو انسان اجتاز خريف العمر ، ذو شعر فضى ، ذو ملامح وجه حادة تعبر عن الصرامة وتحمل تجارب الحياه واكثر من ذلك تشير الى ماضيه العسكرى : جنرال على المعاش اشترك فى جميع الحروب المصرية الاسرائيلية.

وكانت هذه زيارتى الرسمية الاولى لمدينة السويس ، التى دمرت تقريباً بكاملها فى حرب الاستنزاف ، وقد دعى الحافظ الى هذا الحدث الذى استمر ما يزيد على ثلاث ساعات حوالى عشرين من المصريين ، كلهم من اعضاء المجلس الشعبى المحلى ومن البرلمان المصرى بشقيه .

« هل انتم ثلاثة ملايين اسرائيلى فقط ؟ يقولون ايضاً انه يوجد عرب اسرائيليون فى الكنيست، هل هذا صحيح ؟ يقولون ان اليهود العرب « يقصد ابناء الطوائف الشرقية « هم مواطنون من الدرجة الثانية ـ هل هذا حقيقى ؟

لماذا لا يكون الكيبوتس مكاناً لنشر الشيوعية فى اسرائيل ؟ وماذا بالنسبة للخريطة المعلقة حتى الآن فى الكنيست والمحددة عليها حدود اسرائيل من الفرات الى النيل ؟ واسئلة اخرى من هذا النوع .

وعندما دار الحديث بهذه اللهجة العربية المصرية اللطيفة والفنية والتى تجسد داخلها ثقافة حوار هادئ ، شعرت انه قد حان الوقت لأعرض على من يجرون الحديث معى سؤالاً، كم اشتقت ان اجد إلاهاً اجابه :

وقد بدأت كلامى بالمثل المصرى الشعبى . « ما محبة إلا بعد عداوه » واستطردت فى حديثى ما هو شعوركم فى هذا الوقت الذى نلتقى فيه ولاول مرة ، تلتقون مع ممثل دولة كنتم

ترونها ايام الحرب عدواً دمر مدينتكم تقريباً بالكامل .

ومن بين الحاضرين كانت توجد سيدة واحدة وجهها لطيف ترتدى حجاباً حسب التقاليد المحافظة وحتى هذه اللحظة كانت هذه السيدة كثيرة الاستماع قليلة الاسئلة ، ثم طلبت فجأة الاذن من المحافظ لتجيب على سؤالى الثاقب ، والمثير تقريباً .

« لتسمح لى سيدى المحافظ اريد ان اجيب على ضيفنا ، اجيب عليه كأم لابناء، وكمواطنة من مدينة السويس وربما كممثلة فى مجلس الشعب ... ولكن قبل ان اجيبب ليسمح لى زملائى من ممثلى الشعب الذين يجلسون هنا معنا : اذا وجد شخص خلافاً فى الرأى، ان يقول هذا الشخص ويقول للسفير عما فى قلبه بنفس الشجاعة وبنفس الوضوح وبنفس الاسلوب الثقافى الذى تحدث به السفير .

ان السفير يحب ان يستمع الى اجابة حقيقية وواضحة .

ان الكلامى الذى وجهته لى هذه السيدة بتعبيرات ملامحها وبلطف حديثها تركت علامات تأثر داخلية عميقة بينما هى تحاول كما هو مطلوب فى المجتمع المصرى المتحدثين ان تضفى على نفسها شيئاً من الهدوء الخارجي والسكون وقالت : انا اعلم انك يا سيدى السفير لك خبرتك عن فظاعة الحرب ، وصدقنى ان هذا الامر ليس ببسيط ابداً ، ان تخرج كل يوم من منزلك ولا تضمن لدى عودتك ان تجد هذا الشئ فى مكانه .. صدقنى ـ استطردت السيدة الساحرة وهى تؤكد هذه المرة كل كلمة ـ لا يوجد شئ افظع واصعب وغير انسانى لأم ان ترسل ابناءها كل صباح الى المدرسة وهى لا تضمن الا يسقطون ضحية من قنبلة ، الا يعودوا مرة اخرى الى احضان آبائهم .

وفجأه توقفت عن الكلام ، لحظة طويلة ، طويلة جداً من الصمت بينما الجميع صامتون، وبعد هذا لاصمت وبعد ان اخذت نفساً طويلاً نظرت ببصرها الى اعلا ورويداً رويداً قالت بهمس كأنها لا تشعر بمن حولها : الحمد لله والف شكر لله للخالق العظيم ، اليوم يخرج ابناؤنا لمدارسهم بأمن ، لاخوف ان تسقط عليهم دانة وهم فى طريقهم ، يعودون باذن

الله تبارك وتعالى الى منزل آبائهم وشكراً لله انه فى هذه الايام ، ايام السلام والتى جاءت بفضل الرئيس الراحل السادات رحمه الله وبتأييد نائبه الرئيس مبارك اطال الله عمره، نعود فى المساء من اعمالنا ونحن نعلم اننا لن نجد بيتاً مدمراً ومرة اخرى عاد هدوء طويل حيث الكل صامت ـ ولكن فى هذه المرة رأيت الاغلبية يحركون رؤسهم بالموافقة عما قالته وينظرون اليها نظرة تقدير ، ينظرون الى تلك السيدة التى قالت عما فى قلبها ببساطة شديدة وبوضوح.

وبعد هذا الصمت اتجهت هذه المرة الى ناحيتى وقالت : ماذا تعرفون انتم ، انتم فى القاهرة، ما هى حقيقة احساسكم بالحرب ، وما هى حقيقة معنى السلام . ان هذا ما نشعر به فقط نحن على ضفتى القناه . من الانفجارات فى حرب الاستنزاف ، حيث نعيش الآن فى سلام بمعناه الكامل...

وبعد ايام كتب انيس منصور فى احد مقالاته حيث اعتاد على توجيه النقد الشديد للعناصر المعارضة للسلام فى مصر : لو ان ابناء القاهرة عايشوا فظائع الحرب لكانوا اليوم من اكبر مؤيدى السلام .

شادية :

بعد فترة من تسلم الرئيس محمد حسنى مبارك مهام الحكم ، سمعت فى اسرائيل بعض الاصوات التى تعارض استمرار الانسحاب الاسرائيلى من سيناء فقد اقترح البعض وقف الانسحاب ، بينما اقترح البعض الاخر تأجيلة ـ ولو لفترة ما ـ حتى تتضح نوايا رئيس مصر الجديد.

ولأن مثل هذا التفكير كان قد ظهر فى وسائل الاعلام ، فلقد بدأ زعماء مصر وعلى رأسهم الرئيس محمد حسنى مبارك فى الخشية من ان يكون لمثل هذه الآراء التى تسمع فى اسرائيل ثقل فعلى.

وفى تلك الايام فإننى لم اشك ولو لحظة واحدة فى ان الرئيس مبارك سوف يستمر فى طريق سابقه : ان مبارك كان طول ست سنوات منصبه كنائب للرئيس السادات ، ايضاً شريكاً فى قراراته السياسية .

ان مبارك مثله مثل السادات فقد رأى فى قرار إتاحة سلام مع اسرائيل قراراً استراتيجياً وليس تكتيكياً . ولدى ظهوره لأول مرة امام وسائل الاعلام حيث اعلن عن مقتل الرئيس السادات ، فقد اهتم مبارك بأن يعلن ان مصر سوف تحترم جميع الاتفاقات والمواثيق الدولية التى تم التوقيع عليها ، كما صرح بأن مصر لن تحيد عن مسار السلام وسوف تستمر فى جهودها للتوصل الى تسوية شاملة فى المنطقة .

وفى نفس البيان اكد مبارك ان رفع العلم المصرى فوق سيناء بعد الجلاء عنها سوف يكون إثباتاً لإخلاص مصر لذكرى الرئيس السادات وعمله الكبير .

ولكن مع مقتل السادات ساد جو ما من التوتر فى العلاقات مع مصر . ولكن بالنسبة للرئيس مبارك وبالنسبة للبعض فى الزعامة المصرية فقد بدأت المخاوف من توقف الانسحاب من سيناء ، تتلاشى اكثر واكثر .

وفى منتصف سبتمبر ١٩٨١ اخذت سيارتى وسافرت الى القدس لإجراء لقاء منفرد مع رئيس الوزراء مناحم بيجن . وجلسنا فى حجرته وتحدثت معه عن جو عدم الثقة وعدم الاطمئنان الذى يسود القاهرة تجاه نواياه. ولقد قلت له انه كان يفكر فى ايقاف ، او ارجاء الانسحاب، بما لا يتفق مع الجدول الزمنى المحدد للإنسحاب ، فانه من الافضل قبل ان يتخذ قراره النهائى، ان يستمع الى تقديراتى حول آثار مثل هذا الاجراء . وقلت له انه اذا كان يفكر فى تنفيذ الانسحاب حسب الجدول الزمنى المتفق عليه فى اتفاقيه السلام ، فيجب الا نترك الزعامة المصرية فى حالة عدم تأكد . ويجب ان يسير مسار الانسحاب بآثاره الايجابية على علاقتنا مع مصر حتى نهايتها.

وقطع رئيس الوزراء كلامى وقال لى : انا اعرف انك تعودت ان تتحدث مع اقرانك

المصريين باللغة العربية وان اقدرك واحترم قدراتك هذه ، ولكن هذه المرة فانا اريدك ان تقول لهم عشر كلمات باللغة الانجليزية بدقة تامة مثلما سأقول لك ، قل لهم باسم رئيس الوزراء هذه الجملة : اسرائيل سوف تنسحب حسب الموعد وبالضبط .

وعندما عدت الى القاهرة وابلغت رسمياً يوم ١٧ ديسمبر ١٩٨١ كمال حسن على نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية آنذاك بما ابلغنى به رئيس الوزراء مناحم بيجن ، شعرت بالراحة النفسية على وجه محدثى. فقد اتصل على الفور بالرئيس مبارك وابلغه بالامر ومن البداية كان موضوع الجلاء « إعادة الارض » هو الهدف الاول ، بينما كان السلام فى بدايته وسيلة ولكن المصريين ادركوا بسرعة ان هذه الوسيلة « السلام » يجب ان تقدر كثيراً وان يحافظ عليه جيداً . سلام دائم كقول الرئيس السادات رحمه الله وكقول حسنى مبارك من بعده.

وبالفعل فى ٢٥ ابريل ١٩٨٢ قامت اسرائيل بالجلاء عن سيناء طبقاً لما التزمت به ، « فيما عدا منطقة طابا حيث كانت تراها جزءاً من حدودها » . وكلما زادت الاحاسيس بالمخاطر فى اسرائيل ، ازدادت الفرحة فى مصر .

ان الفرحة فى مصر لم تكن فقط فرحة استعادة الارض ، وانما ايضاً تأكيد لصدق طريقها ، طريق « لا حرب بعد الآن » .

وبعد ثلاثة ايام يوم ٢٨ ابريل جاء بالصدفة موعد العيد القمحى الاسرائيلى ـ عيد الاستقلال ـ ولقد قمت باعداد احتفال فى منزلى بالقاهرة بمناسبة هذا العيد ، وكانت العلاقات الاسرائيلية المصرية فى هذه الفترة فى ذروة ازدهارها .

وقبل ذلك بيوم كنت ضيف شرف ، انا وكمال حسن على فى احتفال خاص اقامه بعض الفنانين المصريين بمناسبة الجلاء .

ولقد عرفت ان الكثيرين والكثيرين سوف يحضرون الاحتفال الذى اقمته بمناسبة عيدنا

القومى، وايضاً لكى يعبروا عن فرحتهم باستعادة سيناء . ان من لم يحضر هذا الاحتفال فلم ير فى حياته احتفالاً مثله فى مصر ـ لقد حضر الى هذا الاحتفال وزير الاعلام صفوت الشريف مع قادة الاعلام فى الاذاعة والتليفزيون واغلب وزراء الحكومة. وكذا حضر العشرات من اعضاء مجلس الشعب .

وقد اتصل بى من القدس رئيس اسرائيل « يتسحاق نافون » وقت الاحتفال لينقل تحياته . واذاع كل من التليفزيون المصرى والتليفزيون الاسرائيلى برنامجاً تم اذاعته فى وقت واحد فى كلتا الدولتين .

وفى نفس اليوم اتصل بى صديقى وزميلى « شاؤل برحاييم » القنصل العام الاسرائيلى فى الاسكندرية وحكى لى وهو متأثر قائلاً : انه عندما كان يستقل المصعد هو وزوجته تسيونا هابطاً من الفندق الذى يقيم فيه قابله بالصدفة زوجان من المصريين، اللذان كانا يهبطان معه فى نفس المصعد ، وقد عرف الشخص المصرى على الفور القنصل العام لاسرائيل، حيث كانت صورته قد نشرت منذ اسبوع فى الصحف المصرية بمناسبة افتتاح القنصلية الاسرائيلية وبدون مقدمة قال الشخص المصرى لـ« بيرحاييم » :

من فضلك اريد ان اصافحك واهنئك على افتتاح القنصلية العامة لاسرائيل فى مدينتنا الاسكندرية واتمنى لك التوفيق ، استطرد الشخص المصرى قائلاً : اقدم لك نفسى : لقد كنت اسير فى حرب فى اسرائيل بعد حرب الايام الستة عام ١٩٦٧ ، وفى الواقع ومن المنطقى ان اكون ممتلئاً بالمرارة والغضب، حيث انى حاربتكم وايضاً اسرت . ولكن الحقيقة هى، انه لا يوجد انسان اسعد منى اليوم ، انا سعيد لانه اصبح فى النهاية سلام بيننا، وانا سعيد جداً لانكم منذ عدة ايام وفيتم بوعدكم واعدتم لنا سيناء ، وان سعيد لاننا نعمل اليوم معاً من اجل دفع عجلة السلام . فى منطقتنا ، اهلا بك فى مدينتنا ، سيدى القنصل العام.

وعندما توقف المصعد وانفتح الباب تأبط الشخص المصرى ذراع قنصلنا العام، وخرج معه من المصعد، ونفس الشئ فعلته زوجة الشخص المصرى مع زوجة القنصل

العام.

ان والدى شاؤل قد ولدَ فى العراق ، ووالدى زوجته تسيونا ولدا فى اليمن ، وقد التقيا فى اسرائيل وتزوجا ، وها هما خرجا بعد ذلك ليمثلا دولة اسرائيل فى اول مدينة عربية تقام فيها قنصلية عامة لاسرائيل . لقد تاثر شاؤل كثيرا من هذا اللقاء الذى تم فى المصعد، ما ان عاد بعد ذلك وصعد فى نفس المصعد الى حجرته حتى اتصل بى تليفونيا لكى يشركنى فى هذه المشاعر الجميلة التى لم يحظ مثلها احد من اقرانه فى انحاء العالم .

ومن التعبيرات الجميلة عن سعادة الشعب المصرى فى اليوم الذى تم فيه الجلاء عن سيناء، اغنية بإسم « مصر اليوم فى عيد » ، وكلمات هذه الاغنية من تأليف عبد الوهاب محمد وتلحين الملحن الشعبى دكتور جمال سلامة وقامت بالغناء المغنية المصرية المعروفة حبيبة الشعب شادية .

وكان أداء هذه الاغنية جميلاً فى منظره، مجموعات من الفلاحين يرتدون الملابس التى تميز المحافظات المختلفة فى مصر . ويرقصون على نغمات الالحان الشعبية المصرية وعلى صوت المغنية الحساسة ذات الصوت الدافئ شادية وفى كل مرة كانت تصل فيها هذه الفنانة الكبيرة بكلمة مصر اليوم فى عيد كانت شادية تلقى خلفها خصلات شعرها فى حركة متأنقة تشير الى سعاده بغير حدود وفخر وحب وبدون حدود للوطن مصر .

وفى هذه الكلمات لم ينجح المؤلف فقط فى نشر جو الاحتفال الشعبى لهذا الحدث القومى الكبير فى تاريخ مصر الحديثة ، وانما كانت الاغنية تحوى ايضاً رمزاً للامور التى يفضلها.

عادت سيناء واصبحت من جديد جزءاً لا ينفصل عن الوطن : مصر ترحب بالسلام الذى بفضله عادت سيناء بكاملها ، مصر تعد نفسها من الآن فصاعداً بالمحافظة على السلام كجزء غال وفى النهاية تحددمصر انه من الآن فصاعداً بعد ان عادت سيناء سيكون

الهدف الاول فى جدول الاولويات القومى تطوير الارض والعمـ.. من اجل الرخاء وذلك من نظره يملؤها الامل والامان لمستقبل افضل للأمة وللأجيال القادمه .

وقد تم اذاعة هذه الاغنية لأول مرة فى الاذاعة والتليفزيون يوم ٢٥ ابريل ١٩٨٢ ، تدريجياً ، ويأتى مكانها اغانى العبور والاغانى الاخرى للقوات المسلحة المصرية. ومع مرور الوقت وحدث وبصفة مستمرة كل سنة ، ظهور اغنية شادية فى التليفزيون ايام الاحتفال بعيد الجلاء الى جانب اغانى التفاخر الحربى .

ومن الجدير بالذكر ان اغنية شادية قد ذكرتنى باول حديث لى مع الرئيس السادات عن اهمية « تعليم السلام » وان نهتم بذلك وتقول كلمات الاغنية :

يلى من البحيره

ويلى من أخر الصعيد

يلى من العريش الحرة

او من بور سعيد

باركوا بعضكم

وشاركوا فرحنا السعيد

الى أخر الاغنية........

نهاية القصة :

المتحف الحربى القومى ، مكانه فى القلعة وهى قلعة القاهرة المشهورة التى بنى اسوارها صلاح الدين الايوبى فى القرن السادس عشر، والتى تحولت بعد ذلك كمقر للحكم لمئات السنين . وفى هذه القلعة بنى « أبو مصر الحديثة ـ محمد على ـ مسجده الشهير.

ولقد قررت زيارة القلعة دون ان اعلن عن هويتى وان ازور فرع حرب يوم الغفران «السادس من اكتوبر» - او العاشر من رمضان حسبما يطلقون عليها فى مصر. وبدون ابلاغ اى احد ذهبت الى القلعة يرافقنى توفا زوجتى ، وردفينا زوجة يعقوب جباى القنصل فى سفارتنا فى القاهرة.

ورافقنى ايضاً كالعادة مساعدى الشخصى وسيارتان من سيارات رجال الامن المصريين التى ترافقنى فى تنقلاتى . وذهب سائقى المخلص شلوما لشراء تذاكر دخول المتحف. واتضح له ان « السر » اصبح معروفاً : فعندما خرجنا من المنزل وسمع رجال الحرس المصرى الخاص بى عن وجهتى ابلغوا وبسرعة قادتهم . فقد انتظرنى على الباب الرئيسى مدير المتحف . عقيد شاب - استقبلنى بالادب المصرى ودعانى الى حجرته لاتناول القهوة وان نتحادث للتعارف . وقد ابلغت محدثى برغبتى هذه المرة فى زيارة القسم المخصص لحرب يوم الغفران . فقال لى العقيد سراج عزت : سوف اكون سعيداً جداً لمرافقتك وان اكون مرشدك ، ان هذا شرف كبير لى ، ثم سأل عن الوقت الذى اريد ان تقضيه فى المتحف ثلاث ليكون معى . واستطرد قائلاً ساعتين ثلاث ايها السفير ، قلت له ساعتين او ثلاث جسبما يستطعن النساء الموجودات معنا، قلت له وان احاول ان اخفى التعجب الموجود داخلى : كانت هذه زيارتى الثالثة لهذا المتحف ، واول زيارة لى كانت فى ديسمبر ١٩٧٩ مع اللواء شلوما جازيت رئيس شعبة المخابرات ، قبل ان يتم التوقيع على اتفاقية السلام ، وكنا فى ذلك الوقت اعضاء الوفد الاسرائيلى الذى ذهب الى القاهرة برئاسة وزير الدفاع الاسرائيلى فى هذا الوقت « عيزر فايتسمان » وذلك للاشتراك فى مفاوضات اللجنة العسكرية التى اجتمعت فى قصر الطاهرة لبحث الاسس العسكرية لاتفاقية السلام.

وعندما دخلت انا وشلوما الى باب المتحف رفضت السلطات السماح لنا بدخول المتحف ، لقد رفضوا بأدب ، ولكن رفضوا رفضاً قاطعاً وقالوا : ان المتحف مغلق فى هذه

الايام. ولم يكن امامنا الا القيام بجولة فى الحديقة الموجودة الى جانب باب الدخول الرئيسى للمبنى. وفى هذه الحديقة تنتشر الورود بكميات كبيرة وبعض قطع من الطائرات والدبابات الاسرائيلية المحترقة ، وبينهم لوحتان من الرخام نحت عليهما كتابات بالعربية والانجليزية وكتبت ايضاً جملة منقولة عن الفريق « دافيد اليعازر » تقول : لقد تحول الكم كيفاً». ووقفت انا وشلوما امام هذه اللوحات الرخامية وتبادلنا النظر ، وعندما اشار شلوما بنظرة الى فرد الامن المصرى المرفق فقد خيل الى انه لم يرتبك ، ولكن ربما دلت نظرته عن عدم الارتياح وبالتأكيد كانت نظرته مزيجاً من الشماته والافتخار .

اما زيارتى الثانية للمتحف فقد كانت اثناء الاحتفال الرسمى لافتتاحه بواسطة الرئيس مبارك . لقد تم التوقيع على اتفاقية السلام بين زيارتى الاولى والثانية لهذا المتحف، و تبادل السفراء . وقتل الرئيس السادات . ولقد ذهبت الى المتحف كأحد المدعوين مع باقى الدبلوماسيين - يزيد عددهم على مائه وثلاثين - وكذلك رؤساء الزعامة المصرية .

لقد اختفت اللوحات الرخامية وكذلك تلك القطع المحترقة من الدبابات والطائرات الاسرائيلية.

لقد اختار مبارك عدم زيارة جميع اقسام المتحف واكتفى بزيارة جناح واحد « جناح محايد » وما من شك ان مخططى الاحتفال قد وضعوا فى حسبانهم حضورى وسرنا وراء الرئيس وطاقمه ووجدنا انفسنا امام عربات حكام مصر المختلفين الذين حكموا . وشد انتباهى بصفة خاصة مركبة الخديوى اسماعيل التى استخدمها فى رحلته من القاهرة الى السويس لافتتاح القناه ، وقد قلت لكمال حسن على الذى كان بجانبى : هذه مركبة قوتها سته احصنه بالفعل.

ومنذ هذه الزيارة مرت ثلاث سنوات ، انسحبنا من اغلب سيناء ويبقى النزاع حول طابا ، وكنا غارقين داخل لبنان.

خلال هذه الزيارة الخاصة اردت ان اقف على الرسالة التاريخية لهذا المتحف الذى

اعيد تجديده وكذلك على الرسالة التثقيفية التى يريد المتحف ان ينقلها لزواره ، ولاحظت من بين الزائرين مجموعة من تلاميذ المدارس المصرية وساروا مع مدرسيهم من قسم لآخر، بينما يقص عليهم المدرس تاريخ الجيش المصرى من ايام تأسيسه ايام الفراعنة. وحتى حرب يوم الغفران، آخر الحروب لم تعد هناك حرب، هكذا كان يقول المدرس للتلاميذ.

وفى هذا الجناح حرب السادس من اكتوبر اقيمت تحفة رمل ضخمة تم عليها تمثيل عملية « العبور » ، وبعد بعض الايضاحات التى قدمها لنا العقيد المصرى الذى كان يرافقنا، قال لنا فجأة « لقد كنت بين اوائل الضباط الذين عبروا القناه . ومن هذه النقطة عبرت القناه، ولكن اصبت اصابات بالغة ، وقد عولجت لمدة عام ونصف فى المستشفى العسكرى بالمعادى ولقد اصبت بالشلل فتره طويلة ، وعندما تماثلت للشفاء تم تعيينى كمرشد فى هذا المتحف . ولقد لاحظت ان المساعد الاسرائيلى الذى كان مناقداً تأثر فجأه من شئ داخله ، وليس كعادته ، وقد همس فى اذنى وقال : ولقد كنت امامه بالضبط فى هذه النقطة وفى ذلك الوقت . وبدون تردد طلبت من مساعدى ان يقص هذا الامر وبصوت عال على مضيفنا العقيد : لقد اردت ان اقف على رد الفعل ، رد فعل مقاتل سابق ومصاب باصابات بالغة فى مقابلة مع من قد يكون المقاتل الآخر الذى اصابه .

وحكى الرجل وصاغ كلامه ببساطه مؤثرة وبأسلوب انسانى محترم ، لا يستطيعه الا القليل فى مثل هذه اللحظات الخاصة من هذا النوع .

وانصت العقيد جيداً بنظرة احترام له وهو يحكى ، واحتراماً لاسلوبة وتعجباً من حيله.

وبدون كلام اقترب كل منهم من الاخر ليصافحه بحرارة وبتأثر ولفترة طويلة . ثم اشار الاسرائيلى الى نقطة محددة على تخته الرمل وقال : هنا ، بالضبط وقفت واطلقت النار، ورد عليه العقيد المصرى قائلاً : ولقد جئنا نحن من هنا ، فقال الاسرائيلى ، لقد كان معى بعض الزملاء الذين حاربوا معى ولقد اطلقوا ايضاً النيران ، ومن يعلم ربما اصابتك من طلقاتهم ، انا سعيد بشفائك.

وقال العقيد المصرى بهدوء : انت وان كلانا ـ ادينا ذات يوم مهامنا لاوطاننا ـ وكلانا اليوم يستمر فى اداء واجبه ـ واجب تنمية السلام . كم هى حقاً عجيبة طرق الدنيا ، وانهى العقيد كلامه.

واكملنا جولتنا فى جناح يوم الغفران » ولكنى لاحظت من ذلك الحين ان مرافقنا لا يقوم بالشرح لى فقط وانما ايضاً لمساعدى . وهكذا تجولت مع حارسين ، واحد منهم حارس خاص والثانى حارس تاريخ .

وفى احدى القاعات وجدت جناحاً خلفى لطائرة مقاتلة اسرائيلية ، تم اسقاطها فى القتال ، وقد كتب عليه بالعربية هذه نهاية القصة . فقلت لمرافقى المصرى . يوجد خطأ فيما هو مكتوب ، ثم توقف وقرأ ما هو مكتوب وعاد وقرأ ، كمن يبحث عن خطأ هجائى. فقلت له: الخطأ ليس فى الكتابة انما فى المضمون وفى الرسالة ، نهاية القصة ليست الطائرة الاسرائيلية التى تم اسقاطها بواسطة مقاتل مصرى ، وانما نهاية القصة هى الحقيقة التى نحن فيها الآن ـ نعم ـ معاً فى هذا المكان . فوقف العقيد المصرى وقفة انتباه وادى لى التحية العسكرية قائلاً : سيدى السفير الحق معك ، كل الحق معك ، وسوف انقل ملحوظتك لقائدى، وأنا آمل ان يتم تصحيح الخطأ .

عندما انهينا الزيارة ، كانت قد اعدت لنا مفاجاه فلقد اخذنا مرافقنا الى غرفة كبار الزوار، وفى احدى الزوايا اعد لنا انا وزوجتى طوفا وروديفيتا شراباً خفيفاً وفى الزاوية الاخرى اعد شراب خفيف لمساعدى الذى رحب به بعض ضباط الامن المصريين فى المتحف

شربنا القهوة ، وقال لى العقيد سراج عزت : لم اتخيل يوماً من الايام ، ان يأتى اليوم الذى اقوم فيه بإرشاد سفير اسرائيل فى معرض تاريخ الحرب ، وان اعرض امامه حرب اكتوبر كما نراها ، قاطعته قائلاً : لماذا ؟ فقال لى محدثى ببساطة انظر سيدى السفير، ان تعليمى فى المدارس الابتدائية والمتوسط وفى الكلية العسكرية ، كلها كانت ايام الرئيس جمال عبد الناصر، وبداية من السنه الاولى وفى نهاية دراستى كانوا يعلموننا ثم يعودون

ويعلمونا شيئاً واحداً : ان دولة اسرائيل تريد تدميرنا ، فواجبنا ان ندمر ها . وكما هو مكتوب لديكم اقتله قبل ان يقتلك . ولكن فى احد الايام يظهر فجأة زعيم شجاع ، ذو رؤية يقوم « بصدمة كهربية » مثلما كان الرئيس السادات يسمى مساراته ، وهكذا سقط مرة واحدة الحاجز النفسى . حاجز الخوف المتبادل ، نفس اسطورة رغبتكم فى تدميرنا ، ورغبتنا فى تدميركم . وها انا اجد نفسى اليوم اجلس واتحدث مع سفير اسرائيل فى مصر. هل يوجد هناك اجمل من هذا سيدى السفير ؟ هل يوجد امل اقوى واكبر من هذا لابنائك ولابنائى ؟

وبعد مرور عدة سنوات وقبل ايام من انتهاء مدة خدمتى ذهبت لزيارة نفس المتحف واستقبلنى نفس العقيد سراج عزت ، وقابلنى بحرارة كأحد معارفه القدامى . وفى نهاية الزيارة اخذنى الى حجرة مدير عام المتحف ، اللواء ممدوح غنام الذى قدم لى بعض الكتب للذكرى ، بل طلب منى ايضاً التوقيع فى سجل الزوار .

ومرة اخرى شربنا القهوة ، وسألنى المدير القام عن انطباعى عن المتحف ، فقلت له وانا اوجه نظرى الى العقيد سراج عزت : المثل المصرى يقول « وعدتنى بالحلق خرمت انا ودانى » ان ما هو مكتوب اسفل حطام جناح الطائرة الاسرائيلية لازال فى مكانه، وانا لازلت اسأل نفسى بشأن الرسالة التثقيفية للمتحف ، اجابنى مدير عام المتحف بمثل مصرى أخر وقال : « الصبر هو مفتاح الفرج » .

المقاطعة :

بالرغم من التوقيع على اتفاقية السلام وتنفيذها بين مصر واسرائيل ، الا ان اغلب النقابات المهنية قد قررت عدم الاعتراف بهذه الاتفاقية بل ومقاطعة اسرائيل وممثليها فى مصر. والنقابة التى تمادت فى هذا الاتجاه هى نقابة المحامين المصريين، ان هذه النقابة لم تطلب فقط من اعضائها الامتناع عن تقديم اى مساعدة قانونية للاسرائيليين الذين يقعون فى ضائقة فى مصر، بل انها تعاونت مع عناصر عربية اخرى فى مصر وفى خارجها. ممن

عارضوا السلام مع اسرائيل.

وقد قامت نقابة المحامين بمشاركة العناصر بعقد الاجتماعات واجراء اللقاءات العلنية الاخرى ضد اتفاقية السلام . والمنظر المؤلم كان احراق علم اسرائيل يتم بواسطة بعض الرعاع الذين كان يتم دعوتهم لهذا الغرض ، وكان هذا المنظر يعود ويتكرر فى بعض الفرص المختلفة امام مكاتب نقابة المحامين فى القاهرة . وعندما كان يتم تنظيم مسيرة او مظاهرة من هذا النوع ، كانت الشرطة بوجه عام لا تقوم بمنعهم او بتفريقهم . كان يهتمون فقط بالقيام بتأمينى . ومن شباك مكتبى فى السفارة فى الطابق الثامن عشر من المبنى الذى تقع فيه السفارة كنت متعوداً مراقبة هذه المظاهرات والمسيرات ، وقد لاحظت ان قوات الامن المصرية كان يتم تعزيزها فى هذا الوقت . ومن تصرف رجال « الامن المركزى » كان من الواضح ان دورهم التمسك بعدم الخروج عن الخطوط التى حددها وزير الداخلية .
والشئ الذى كان غريباً بالنسبة لى هو ان الافراد الذين يمثلون نقابة القانون والحق - نقابة المحامين - قد رفضوا بشدة الاعتراف باتفاقية السلام التى تم التوقيع والتصديق عليها قانونياً ، ومع ذلك فانا لم اتذكر حالة واحدة احتاج فيها شخصاً اسرائيلياً لدفاع قانونى فى محكمة مصرية ، ولم يحصل على هذه المساعدة وبسهولة نسبية ، فان المحامى الذى يدافع عنه ويمثله فى المحكمة يحصل على اتعاب كريمة ، تزيد على الاتعاب المعروفة .

والامر كذلك بالنسبة لنقابة الصحفيين ، فإن هذه النقابة فرضت مقاطعة على اسرائيل إبلغت اعضاءها بعدم السفر الى اسرائيل لمتابعة الاحداث ، وكذا عدم متابعة الاحداث الاسرائيلية فى القاهرة : وعندما رافق ابراهيم نافع - رئيس تحرير الاهرام ورئيس نقابة الصحفيين فى ذلك الوقت - رئيس الوزراء كمال حسن على فى زيارة لمعرض الكتاب عام ١٩٨٣ و فضل السيد نافع ان يترك رئيس الوزراء المصرى الذى اخذ على عاتقه الدخول الى الجناح الاسرائيلى فى معرض الكتاب لكى يرحب بى، لقد توقف ابراهيم نافع بالقرب من مدخل الجناح وانتظر رئيس وزرائه خارج الجناح وبشكل علنى، وهو الامر الذى اعتقد

انه قد جرح مشاعر رئيس الوزراء المصرى اكثر مما جرح مشاعرنا نحن الاسرائيليين، لأن ابراهيم نافع دعاه رئيس الوزراء لمرافقته ، ولم ادعوه انا وعلى ضوء موقف النقابة فلم يستطع صحفى مصرى عادى ان يقوم بزيارة اسرائيل دون ان يهتم من البداية بتأمين نفسه بمساندة من السلطات العليا والتى تكون احياناً من السلطات ذات اكبر صلاحيات فى الدولة . وكان هذا الصحفى يقول لزملائه من الصحفيين ولنقابته ان سفره لاسرائيل كمهمة خاصة من قبل هذه السلطة او الاخرى . وهناك بعض كبار الصحفيين من المعروفين جداً لم يحضروا الى اسرائيل كما هو مفهوم ، إلا بعد الحصول على الموافقة من رئيس الدولة شخصياً، او تم ايفادهم الى اسرائيل من قبله ، وعندما كان يعود ذلك الصحفى الى بلاده، كان يجد لزاماً عليه ان يجتاز سباق عوائق جديد . واحياناً قليلة كان يسمح له على الفور بطباعة انطباعاته عن اسرائيل ، وعندما تسمح له بذلك فغالباً ما يتم النشر متأخراً كثيراً وبعد تعديلات بانواعها المختلفة . ولقد تعجبت لهذا الامر اكثر من مرة ، بل وتحدثت مع بعض كبار المحررين والصحفيين فى هذا الشأن ، انهم يخدمون من عندما يمنعون عن جماهير القراء الصورة الحقيقية لاسرائيل ؟ ومن اين يأتى التصريح غير المفهوم وغير الواضح لبعض الصحفيين المصريين لكى يضعوا فقط ما هو سلبى فى اسرائيل وما هو غير موجود فى اسرائيل ؟ فى كل مجتمع توجد ظواهر ومواقف سلبية كما توجد ايضاً ظواهر ايجابية . من اين تأتى هذه الرغبة الغريبة لتجاهل الامور الطيبة تماماً، والكتابة عما يبدوا سيئاً ؟ واحياناً كثيرة واجهنا حملات تشهير ليس لها اساس ، وليس لها مثيل فى العلاقات بين شعبين وقعا منذ وقت قريب على اتفاقية سلام ان هذه الظاهرة لم تتطور قبل ان تكمل اسرائيل اعادة سيناء الى السلطات المصرية فى ابريل ١٩٨٢، فحتى هذا الوقت كان الصحفيون مكبوحى الجماح من قبل السلطات العليا . وكانوا يتصرفون بحذر تجاه إسرائيل ومع نشوب الحرب فى لبنان انطلقوا .

لقد رفضت الصحف والاذاعة والتليفزيون نشر اى حديث مع سفير اسرائيل ، او حتى

اى بيان رسمى من السفارة . لقد كنت دائما اخرج من مكتب وزير الخارجية بعد حديث معه لأجد جيشاً من الصحفيين المصريين ينتظرنى خارجاً ، ويسجل كل كلمة تخرج من فمى، ولكن لاشئ تقريباً . ولم يحدث ذات مرة ان تم نشر بيانى ، والبيان الذى يتم نشره فى وسائل الاعلام يكون غالباً اعيد صياغته واعداده وابلاغه لهم من قبل وزارة الخارجية المصرية.

وكنت احياناً اجد انه من الهام جداً نشر رأيى على الجماهير المصرية ، ولكن لا اجد امامى الا ان اتصل تليفونياً من القاهرة بالقدس لابلغ رأيى هذا الى اذاعة صوت اسرائيل باللغة العربية.

ولقد قلت اكثر من مرة لبعض كبار الشخصيات المصرية « لكم الحق كما هو مفهوم ان تختلفوا مع رأيى ، ولكن الشئ الذى لا يمكن التفكير فيه الا تمكنونى من عرض موقف اسرائيل امام الرأى العام المصرى » ولكن مثل هذه الاقوال لم تزيل السد الذى اقيم بينى وبين وسائل الاعلام المصرية، والذى كان يبدو لى احياناً انه اعلى من سد اسوان .

ان الافتراءات التى نشرت فى القاهرة ضد اسرائيل ازعجتنى كثيراً طوال مدة خدمتى فى القاهرة ، وكانت هذه الافتراءات الامر الثابت تقريباً فى محادثاتى العديدة مع وزير الخارجية المصرى ورئيس الوزراء ووزير الاعلام المصرى صفوت الشريف ، بل مع الرئيس مبارك نفسه . وفى هذه الايام حددت هذه الظاهرة بأدب ، ولكن بوضوح امام من تحدثت معهم ، حددتها بأنها تعليم الكراهية ، بدلا من تعليم السلام .

وفى احد احاديثى مع الرئيس مبارك ذلك الحديث الذى كان يشترك فيه ايضاً مدير عام ديوان مكتب رئيس الوزراء فى ذلك الوقت افراهام تامير ، ومدير عام ديوان وزارة الخارجية الاسرائيلية فى ذلك الوقت دافيد كمحى وايضاً وزير الخارجية المصرى فى ذلك الوقت عصمت عبد المجيد ، وجدت نفسى اطرح امام الرئيس مبارك قلقى ، بينما اشير الى «الدور الحالى» المنوطة به الزعامة المصرية : اذا ما استمرت الامور تسير بمثل هذه الصورة

بدون كابح فمن الممكن ان يأتى اليوم سيدى الرئيس الذى يسألك فيه ابناء شعبك وبحق ، اذا كانت اسرائيل بهذا الامر فلماذا قررت عقد اتفاقية سلام معها .

وهناك نقابة الفنانين ، لممثلى السينما والمسرح والرسامون والنحاتون والملحنون والمغنيون، ايضاً من النقابات التى تقاطع اسرائيل .

واتذكر اننى ذات يوم طلبت من مستشار السفارة ايلى لبنيادو ، ان يشترى لى ولزوجتى تذاكر لمسرحية فى احد المسارح الصغيرة فى القاهرة. لقد كنت اريد ان اشاهد هذه المسرحية ، وقد سبقنا الى المسرح ايلى وزوجته « بلها » واشترا التذاكر وانتظرنا نحن ومجموعة صغيرة اخرى من السفارة ، بجانب باب المسرح .

وكانت هذه احدى الامسيات الجميلة والسعيدة التى قضيناها فى القاهرة . فعند دخولى الى المسرح تعرفوا على ، على الفور استقبلونا بمودة وبحرارة كبيرة . ولقد رحب بنا مدير المسرح وكبار الممثلين بل دعونا اثناء الاستراحة لشرب القهوة من وراء الستار وجلسة تعارف وحديث مع الممثلين ولقد قلت فى نفسى « ان المقاطعة فى ناحية والادب المصرى فى ناحية اخرى » بل اكثر من ذلك ، فلقد شعرت فى هذه الامسية بمدى فرحة الممثلين للقائى ، بل لقد عبر احد منهم وامام زملائه عن سعادته وقال « اخيراً اصبح هناك سلام مع اسرائيل . وبعد يومين ظهرت احدى جرائد المعارضة بمقال طويل يحمل عنواناً ضخماً بعرض الصفحة . وجاء فيه : ان فنانى مصر قاطعوا سفير اسرائيل ، وجاء فى نفس المقال ان ممثلى هذا المسرح عندما لاحظوا ان سفير اسرائيل يجلس بين المشاهدين اوقفوا العرض ، واعربوا عن اسفهم لأنهم لا يريدون الاستمرار فى العرض لوجود سفير العدو الاسرائيلى بين المشاهدين ، ومن هذا اليوم قررت عدم الذهاب الى عروض مسرحية فى القاهرة ، لان النتيجة سوف تكون نشر المزيد من القصص من هذا النوع، التى من شأنها فقط الاضرار بالعلاقات الاسرائيلية المصرية ، فلقد أرسلت الى القاهرة من اجل تنمية هذه العلاقات، وليس لاكون ذريعة لنشر قصص تشهير كاذبة . ولم اجد معنى لتقديم

شكوى بهذا الشأن الى الخارجية المصرية ، ولكنى قمت باستقلال اول فرصة غير رسمية اتيحت لى ، لكى اقص على وزير الخارجية المصرى هذا الامر بينما انا اشير اليه اننى سمعت عن حرية الصحافة فى مصر ، وكل شخص له الحق فى ان يكتب على هواه ولكن المسافة بين الحرية والكذب كبيرة .

وعلى عكس موقف نقابة المحامين ونقابة الصحفيين والنقابات الاخرى كان تصرف الشعب المصرى وتصرف الطبقة المتوسطة ، وفى احد ايام الجمعة وفى ذروة حرب لبنان، بينما توجه وسائل الاعلام والصحافة كيلاً من النقد الموجه ضدنا قررت ان اذهب مع زوجتى طوفا ومع المفوض افرايم دوفيك وزوجته ساره لكى نتناول الغداء فى مطعم ولقد قصدت ان اختار مكاناً غير فاخر ، لقد اردت ان اعرف كيف سيكون تصرف ابناء الطبقة المتوسطة فى مصر الذين يخرجون لتناول الطعام بصحبه عائلاتهم ، تجاهنا نحن .

وفى المطعم تعرف على الشيف على الفور واستقبلنا بأهلا وسهلاً وبترحاب حار، وقادنا الى احدى الموائد الجيدة ، واسرع الجرسونات من حولنا لتلبيه طلباتنا بسرعة. وكان الموجودون فى المطعم ينظرون الينا بابتسامه جميلة على وجوههم .

وكان بعضهم يومئ برأسه لتحيتنا عندما تلتقى اعيننا ، وكان صاحب المطعم اسعدهم حالاً ، والذى جاء الينا بعد ان انتهينا من اتناول الطعام يحمل فى يده كتاب «كبار الزوار» ويطلب منى ان اكتب بعض الكلمات وان اوقع عليها باسمى ، وهو تكريم يقدم للشخصيات عالية المستوى فقط .

وفى يوم ٢٨ ابريل ١٩٨٢ بعد مرور ثلاثة ايام على اعادة سيناء لمصر اقمت فى منزلى احتفالاً كبيراً بمناسبة عيد الاستقلال ، وقبل الاحتفال ذهبت الى الحلاق فى فندق ميرديان للحلاقة من اجل هذا الحدث ، وكان الوقت ظهراً ومحل الحلاقة يخلو من الزبائن فيما عدا مصرى واحد يجلس ويقص شعره . وعندما جلست على الكرسى وبدأ احد الحلاقين فى التعامل مع شعرى ، سمعت فجأة صوت المصرى الذى يقوم بقص شعره فى الزاوية الاخرى

من القاعة ويوجه كلامه الى الحلاق الذى يقوم بقص شعرى قائلاً :انتبه جيداً للسفير اعتنى به جيداً فهو عريسنا اليوم ! الشئ المؤسف اننا لسنا لدينا كل عام «جزء من سيناء » لكى نعيده اليهم ، فكرت فى نفسى ، كم هو صادق الرئيس السادات رحمه الله عندما قال لى ان سعادة الشعب المصرى بالسلام سوف تتزايد اضعافاً عندما تعودت سيناء طبقاً للاتفاقية الى حضن مصر .

هذا هو رجل الشارع المصرى ، يعيش حياته ويعانى من مشاكله اليومية ، لا يحمل حقداً ولا كراهية ، ليس له ميول مغامرات ، متماك النفس ومعتد بنفسه ، يحترم من يحترمه ويسعد لملاقاة من يمد يده اليه ، وه يتقبل حكم القدر ، واحياناً ما يسعى لابعاده ، انه مؤمن بالله ومنصاع لقدرته . وهو يستقبلك بابتسامة صافية ويحب النكات - وبصفة خاصة على زعمائه. وولاؤه يكون طبقاً للاولويات الاتيه : عائلته وهى على رأس اهتماماته ، يأتى بعدها ولاؤه وافتخاره بمصريته . ووطنه فى نظره هو« ام الدنيا » بعد ذلك ولاؤه لدينه الاسلامى . وفى النهاية فهو يجد نفسه جزءاً رئيسياً من الامه العربية .

وليس هناك سفير اسرائيلى آخر فى انحاء العالم ، الا السفير الاسرائيلى فى القاهرة، والذى يعمل فى دولة كانت فى الماضى فى حالة حرب معنا ودخلت معنا بالفعل فى خمس حروب . وهذا الواقع له مغزاه السياسى ، وله ايضاً آثاره على الحياة الخاصة للسفير الاسرائيلى وطاقم السفارة الذى يقيم معه فى مصر . بل اكثر من ذلك ، ففى دولة مثل مصر وحتى ايامنا هذه ، كل شئ فيها طبقاً لما يقوله الرئيس « الريس » فإن تصريحات الرئيس او تصرفاته تجاه سفير اسرائيل لها آثارها المباشرة على تصرفات الطبقة الحاكمة فى مصر.

ففى ايام الخلافات او التوتر السياسى بيننا وبين مصر تكون ابواب المسئولين المصريين مفتوحة امامى للاتصالات الرسمية ، ولكن باب الرئيس لا يكون كذلك ، ومع نشوب حرب سلامة الجليل قرر الرئيس مبارك عدم اجراء لقاءات عمل مع رئيس وزراء اسرائيل

ومع سفير اسرائيل فى القاهرة . وفقط عندما تقرر نقل النزاع حول طابا الى التحكيم الدولى استقبل الرئيس مبارك ولاول مرة منذ يونيو ١٩٨٢ رئيس وزراء اسرائيل فى ذلك الوقت شمعون بيريز ، كما استقبلنى قبلاً مع بعض الزملاء الذين جاءوا من اسرائيل للأعداد لهذا اللقاء.

وقبل ذلك عندما توقف المسار السياسى فى المنطقة عاد الى سياسته السابقة ورفض بشدة اجراء اى لقاء مع خليفة السيد بيريز ، السيد يتسحاق شامير .

اما علاقة الطبقة المثقفة فى مصر بى فقد كانت تتغير طبقاً للاوامر - كل شئ حسب البارومتر السياسى ، او آخر نشرة اخبار من صوت القاهرة او صوت العرب المصرية ولكن الحق يقال ان الرئيس مبارك لم يكن يحتاج ابداً الى اصدار اوامر او توجيهات للجماهير المصرية المثقفة حول كيفية التعامل مع سفير اسرائيل والانطباع هو وجود « شفرة متفق عليها بين الرئيس وبين الطبقة المثقفة فى مصر ، ويكفى ان يتعامل الرئيس مع اسرائيل او مع السفير بكلمة او باخرى ، الا ويتم على الفور ترجمتها بواسطة الطبقة الحاكمة فى مصر لتصبح توجيهاً ملزماً تقريباً . وفى اللغة العربية كلمة « خواجة » ومعناها السيد الاجنبى وكلمة السيد معناها المحترم ويكفى ان يقول الرئيس الخواجة ساسون او مستر ساسون حتى يفهم الجميع ان الرئس غير راض عن اسرائيل ولكن عندما يقول الرئيس «السيد ساسون» نفتح ابواب المجتمع المصرى امامى على الفور كأنها كلمة سحرية.....الم يحك السادات ذات مرة لمناحم بيجن ، انه عندما يكون غاضباً من وزير الدولة بطرس غالى فإنه يدعوه بأسم بيتر بينما ينادية باسمه العربى « بطرس » ؟

خلال فترة خدمتى الطويلة بمصر ، خاصة بعد يونيو ١٩٨٢ كانت هناك لحظات سعادة واستمتاع حقيقى ولكنها قصيرة وقليلة نسبياً فى المقابل ، كانت هناك فترات طويلة من التوترات ، والخلافات والملابسات وكان علىّ ان اعمل باجتهاد شديد من اجل تسوية الامور.

وكل هذه الامور ادت الى صدور تصريحات انتقادية « تم ترجمتها » فوراً الى مقالات

شديدة الانتقاد ضد اسرائيل . وكلها اثرت بشكل مباشر على حياتى الاجتماعية والخاصة فى القاهرة ، هذا الى جانب القيود التى التزمت بها لاسباب امنية : فعندما كنت فى القاهرة تم اغتيال اثنين من افراد العمل الخاص بى ، البرت اتركشى الراحل واتى تلنور الراحلة هذا اضافة الى الجرحى ومحاولتين فاشلتين للاغتيال - الاولى محاولة فاشلة لاغتيال احد العاملين بالسفارة والثانية ، وهى فاشلة ايضاً لضرب مكتب فى السفارة وكان رد فعل كل المصريين الذين التقيت بهم بعد مقتل البرت واتى ، كان تلقائياً ومتشابهاً : « اننا على اقتناع بأن القتلة ليسوا مصريين ، ان المصريين ليسوا قتله. المصريون لا يحبون الدماء انهم يخشونها مما لاشك فيه ان يداً غريبة هى التى ارتكبت هذه الجريمة الآثمة » ... مثل هذه الكلمات قيلت لى كرد فعل فورى واولى - سواء من وزير الخارجية المصرى وسواء من وزراء اخرين وصحفيين ومثقفين مصريين وغيرهم . قالها لى الخادم والسائق والبستانى فى منزلى ، وكانت الكلمات صادقة من الجميع وبعد مرور سنتين ، بعد القبض على القتله ثم اتضح انم مصريون متطرفون تابعون لتنظيم ابن الرئيس السابق جمال عبد الناصر، ذهل الجميع وكانت الدهشة هذه المرة حقيقية وصادقة مصحوبة بمشاعر الخجل، والتى لم يحاولوا ان يخفوها بل عبروا عنها .

لن اكون مخلصاً للحقيقة اذا لم اضف انه داخل تلك الفقاعة الصناعية من العزلة الشخصية التى اضطررت لان اعيش فيها ، كانت هناك نظرات غير قليلة التى خففت جداً على حياتى فى القاهرة بل واعطتنى احساساً بأننى ضيف مرغوب فية يقوم بمهمة مطلوبة اضافة الى الى ابناء الشعب المصرى البسيط والطبقة المتوسطة العريضة من الجمهور المصرى الذين استقبلونى - حتى فى الاوقات والايام العصيبة - بود وحرارة وكانت هناك مجموعات من المصريين الذين ينتمون الى الطبقة المثقفة فى مصر الذين قربونى اليهم للغاية كان من بينهم اطباء ومهندسون ومحاضرون فى كلية طب الازهر ، وصحفيون ورسامون وفنانون من بينهم مطربة اوبرا معروفة واخرون ، انهم اناس اخيار على درجة عالية جداً من

الثقافة ووجهات نظر رائعة ، اناس يعتزون بقضية السلام . الا ان الشئ الذى ميز هؤلاء الناس مقارنة باقرانهم من نفس الطبقة كان شجاعتهم . فقد كانوا يسعدون بحق عند حضورهم لمنزلى .

لم يترددوا لحظة او يخافوا من حقيقة ان رجال الامن المركزى الذين يتولون حراسة منزلى سجلوا بدقة هويتهم وارقام سياراتهم ، وانا ايضاً من جانبى سعدت لزيارتهم وبحث المشاكل التى كانت تضايقنى . فى حفل الاستقبال الذى اقمته بمنزلى فى ذكرى عيد الاستقلال الاربعين ، عندما لم تحضر اى شخصية رسمية واحدة باستثناء وزيرين من الاصدقاء الحقيقيين ، لتقديم التهنئة بيوم عيدنا القومى . جاء فى المقابل ، مصريون من الطبقة المتوسطة والبسيطة وكذلك من هؤلاء المثقفين الذين قربونى اليهم جداً . وما ان لحظ المصريون من الطبقة المتوسطة عدم وجود مندوب رسمى واحد فى هذا الحفل ، ارتدع الكثيرون منهم وغادروا المكان بعد زمن وجيز جداً . فى المقابل ، اقترب منى احد الاصدقاء، من بين تلك الطبقة المثقفة وقال لى « اننى اشعر اننا قد تحولنا هنا اليوم الى فدائيين للسلام ونحن فخورون بذلك .

فى حفل الاستقبال هذا الذى لم تحضره اى شخصية رسمية واحدة لتقديم التهنئة ، سبقه فى اسرائيل حدث تعارض تماماً وتشكل بارز لما حدث فى القاهرة وهذا التعارض هو الذى ركز فى داخلى على معنى « الغياب المصرى الظاهر » : ففى هذا العام - ١٩٨٨ - تشرفت بإشعال شمعة فى جبل هرتسل خلال اعياد الاستقلال ، واثناء ذلك قرأت فقرة من ميثاق استقلالنا جاء فيها اننا « نمد ايدينا بالسلام وحسن الحوار مع كافه الدول المجاورة وشعوبها وندعوم الى التعاون وتبادل المعاونة مع الشعب المصرى المستقل فى ارضه » .

كان الاحتفال فى جبل هرتسل رائعاً . بالنسبة لى كان احتفالاً مؤثراً بشكل خاص وعبر عن بعض التقدير الذى يكنوه لى فى اسرائيل بسبب نضالى على امل السلام » فى مصر بعد الاحتفال فى جبل هرتسل اعد لى اصدقائى حفلاً مفاجئاً حضره كل الاصدقاء

الذين خدموا ـ على مر السنين ـ فى مصر . كان هناك حوالى سبعين او ثمانين شخصاً من بينهم الياهو بن اليسار ، اول سفير لاسرائيل فى مصر وزوجته نيتسا وكذلك من كان سيخلفنى فى القاهرة شمعون شامير وزوجته دانيئلا . وكانت هذه اللحظات بالنسبة لى، هى لحظات سمو فلم تكن هناك سابقة لمثل هذا الحفل فى خدمتنا بالخارجية ولكن هذا يحدث فقط بالنسبة للخدمة فى بالقاهرة كانت هذه مجموعة من « الرواد » السابقين . رواد تطبيق السلام، مع تحمل مخاطرة شخصية فعلية فى اكبر دولة عربية .

ولعلمى انه غداً فى الظهيرة ، سيحضر مندوب الرئيس مبارك الى منزلى فى القاهرة كما هو الحال كل سنه من اجل ابلاغه تهنئته الشخصية والرسمية بمناسبة عيد استقلالنا، بكرت بالحضور الى القاهرة بسيارتى من اجل استقبال مندوب الرئيس وكذلك من اجل استقبال المصريين الكثيرين الذين دعوتهم الى حفل الاستقبال الذى تم اعداده لذلك المساء وكما هو محدد وصلت الى منزلى وقت الظهيرة كان فى هذه الرحلة معى ابنتى اورنا والصحفية الممتازة بن يديعوت احرونوت السيدة سميدار بيرى التى طلبت تغطية احتفالنا بعيد الاستقلال عند وصولى الى القاهرة قال لى القائم باعمال السفارة ، دافيد افيك، ان احداً لم يتصل من الرئاسة ولم يبلغ بحضور مندوب الرئيس قبل عدة ايام من عيد الاستقلال اغتيل فى تونس كبير المخربين وكبير القتله الفلسطينيين ابو جهاد ، وعندما لم يحضر مندوب الرئيس لتقديم التهنئة ادركت ان هذا يعنى « رد فعل » مصرياً على الاتهامات التى الصقتها آنذاك اجهزة الاعلام باسرائيل بالنسبة لاغتيال ابو جهاد. ولما لم يحضر اى مصرى رسمى واحد باستثناء وزير الزراعة صديقنا يوسف والى ووزير البترول آنذاك صديقنا عبد الهادى قنديل ولا حتى « سكرتير » من قس المراسم بوزارة الخارجية. كان الغرض الواضح امامنا بأننا نواجه « عملية انتقام » مصرية لقد نظرت الى هذا الغياب التام والاستعراض على انه مساس حقيقى بنا لا حدود له فى مقدور مصر ان تصبر عن تحفظها تجاه هذا الموقف الاسرائيلى او ذلك ولكن ما علاقة الموقف السياسى بمقاطعة وقحة لعيد

استقلال دولة مجاورة ؟ كذلك ساد فى اليوم شعور جارف بعدم التناغم والتعارض . بينما فى اسرائيل يحتفل الشعب بالسلام مع مصر عبر سفيره فى القاهرة، الذى يشعل الشموع، يقوم المصريون فى القاهرة على خطوة وقحة من الاستهزاء باستقلال الدولة التى صنعوا معها السلام انهم لم يمسوا اسرائيل فقط بل اساءوا للسلام ذاته. وقد برزت هذه الاساءه بالذات نظراً لآلاف الاسرائيليين الذين يتدفقون كل سنه الى السفير المصرى باسرائيل لتقديم التهنئة بمناسبة العيد الوطنى. ورئيس الوزراء ، وهو غير معتاد على حضور مثل هذه الحفلات ، يحرص على الحضور وان يقدم بنفسه للسفير بسيونى التهنئة كما يحضر معه ، اغلب وزراء الحكومة واعضاء الكنيست وقادة الجيش لم انجح ابداً فى ان اذكر نفسى بمثل هذه الظاهرة الاسرائيلية الفريدة فى نوعها فهى من جانب تعبر عن سعادة الاسرائيليين بالسلام مع مصر وتقدير لمصر لانها شقت طريقها واصبحت الرائده امام المعسكر العربى . ولكن من جانب آخر اليس فى هذا التدفق تجاهل لعدم التوازن القائم بين حفلات السفير المصرى بإسرائيل وبين « المقاطعة » للسفير الاسرائيلى بمصر؟ وقلت فى نفسى ، هل الى هذه الدرجة وصل عدم الاكتراث المصرى تجاه اسرائيل ؟ ان الدول والشعوب التى تعيش فى سلام يجب ان يظهروا المشاعر تجاه بعضهم البعض ، ما ان لاحظت احساس زملائى فى السفارة وزملائى فى وزارة الخارجية بالقدس ، توصلت الى نتيجة بأن اذا كان المصريون يريدون الحصول على شئ عن طرق مقاطعة عيد الاستقلال لدولة اسرائيل ، وبما ان الامر كله يتعلق باسرائيل ، فقد حققوا عكس ما يريدون ، هكذا تبلورت الامور داخلى لحظة ان شعرت ولاحظت الغضب والاستياء فى النصف الفارغ من الكأس، ولكن كعادتى ، نظرت فوراً الى النصف الملآن وقلت لنفسى : رغم كل هذا فأن مصر هى الدولة الوحيدة العربية التى يقام بها اليوم حفل استقبال يعقده السفير الاسرائيلى بمناسبة عيد الاستقلال لاسرائيل .

الاطباء :

نقابة الاطباء المصرية تقاطع هى ايضاً اسرائيل عندما وصلت الى القاهرة لم اجد مستشفى مصرياً واحداً على استعداد لان يعقد معنا عقداً دائماً يسمح بتوفير الرعاية الطبية المنتظمة لسلك العاملين بالسفارة فى احد لقاءاتى مع نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية آنذاك ، كمال حسن على ، اخبرته بالمصاعب التى اصادفها فى هذا الموضوع الحساس والهام واعربت له عن قلقى اجابنى كمال بقوله « واصل جهودك فهذا هو مخاض علاقات السلام اذا لم تجد حلا ، سوف اصدر توجيهات الى مستشفى المعادى العسكرى لتقديم الخدمات الطبية للعاملين بالسفارة .

مبدئياً كان مهما بالنسبة لى ان اتوصل بنفسى وبدون اوامر من كمال حسن على ، لاتفاق مع مستشفى متخصص ، ولكن على ضوء الموقف الامنى كان مهما بالنسبة لى ان اجد حلاً فى اسرع وقت ممكن، وبشكل مريح اخذت الموضوع من المسئول الادارى الذى تولى مهمة البحث عن مستشفى وتوجهت الى ادارة المستشفى الحدث والجديد «السلام» القريب من الحى الذى نقيم فيه ، وكان واحداً؛ من افضل ثلاث او اربع مستشفيات فى المدينة. بعد حوار دام نصف الساعة مع المديرة ، تصافحنا وتوصلنا لاتفاق وتفاهم ، ويبدو ان ذلك قد حدث رغم ان المستشفى اقيم برأس مال سعودى ، الا انه يتبع هيئة ادارة مستشفيات دولية امريكية ، والامريكيون هم بالطبع يرون فى انفسهم « شريكاً كاملاً » فى اتفاقية السلام .

لقد استقبل مستشفى السلام موظف السفارة الذى اصيب اصابة خفيفة واحتاج الى رعاية فورية بعد محاولة القتل الفاشلة التى تعرض لها . وايضاً تم وضع جثمان البرت اتركشى الراحل فى هذا المستشفى بعد اغتياله، وعلى مر الوقت كان يذهب اليها اى موظف فى سلك السفارة يحتاج الى العلاج او اجراء فحوص وقد دخلت هذا المستشفى لعدة ايام زوجتى طوفا عندما احتاجت الى علاج طبى فى الرعاية المركزة لمدة تزيد على الشهر

الاطباء من الصف الاول والعلاج يتم بأمانه واخلاص ، والممرضات على درجة عالية من التخصص والرحمة بفضل علاجهم انقذوا حياة الجرحى وحياة طوفا ، والى اليوم فأننى احمل لهم جميلاً وعرفاناً نظراً لتفانيهم الانسانى الذى نجح فى اختبار الاوقات العصيبة .

على مر الوقت تعلمت ان المقاطعة الرسمية من جانب نقابة الاطباء شئ والاستجابة الفورية والتى بلا حدود لتقديم المساعدة الطبية وقت الحاجة شئ آخر . يوم اغتيلت موظفة السفارة انى تلئور الراحلة عند خروجها من معرض القاهرة الدولى ، اخذت هى وزميلاتها الجرحى الى مستشفى آخر « المقاولون العرب » الموجود بالقرب من مكان الحادث . عندما بلغنى خبر الاغتيال واصابة ثلاثة من زملاء الموظفة ، الذين كانوا معها فى السيارة وقت الاغتيال كنت فى الفندق الذى ينزل فيه وزير السياحة ابراهام شارير الذى وصل فى ذلك اليوم الزيارة فى القاهرة . واعتذرنا لوزير السياحة المصرى الذى كان قد وجه لنا دعوة لمأدبة عشاء فى ذلك اليوم وانطلقنا انا والوزير شارير الى المستشفى بعد عدة دقائق من وصولنا، حضر محافظ القاهرة ثم بعد ذلك وزير الصحة وهو طبيب جراح شهير فى الحجرة التى خصصت لى جاء ايضاً مدير المستشفى وكبير الجراحين - وكنا محظوظين - حيث كانت معنا تسيفى زوجة زميل بسلك السفارة وهى تعمل فى اسرائيل ككبيرة ممرضات بغرفة العمليات قيل لى انهم جميعاً كانوا فى حاجة الى عمليات جراحية وكان على ان اتخذ قرارات سريعة بالنسبة لاسلوب معالجة الجرحى .

طلب كبير الاطباء الاذن للبدء فى العمليات الجراحية واردت ان اعرف منه ومن وزير الصحة ومن تسيفى ، اجابات على سؤالين : معنى عنصر الوقت بالنسبة لكل واحد من الجرحى ، وما هى الجراحات التى لا يمكن تأجيلها لحظة واحدة وما هو الوقت المتاح لها بالنسبة لكل واحد من المصابين بعد ان يتلقى الاسعافات الاولية . كذلك اردت معرفة ماهى الخبرة المطلوبة فى الجراحين . قال كبير الجراحين ان احد الجرحى يجب ان تجرى له جراحة عاجلة وقد اكد وزير الصحة وتسيفى على موافقتهما على رأى كبير الجراحين اما

بالنسبة لباقى الجرحى فقد قيل لى انه يمكن الانتظار لمدة ساعتين وربما ثلاث ساعات «انه تقدير اولى ، وغير ملزم ولكن هكذا تبدو الامور فى هذه اللحظة » وقد ايدتهم تسيفى فى هذه النقطة ايضاً . ابلغنى وزير الصحة ان فريق الجراحين الذى تم استدعاؤه يعتبر من افضل الجراحين فى مصر . وجاء مندوب عن وزير الدفاع وقال ان هناك فريقا من الجراحين خاصاً من عند وزير الدفاع عبد الحليم ابو غزالة آنذاك موجوداً بالفعل فى المستشفى الان وعلى استعداد لان يقوم بالمعاونة المطلوبة .

وعلى ضوء هذا الوضع اتخذت القرارات التالية :

- وافقت على اجراء جراحة للمصاب الذى لا تسمح حالته بالتأجيل فى اجراء جراحة .

- طلبت من وزير الصحة والجراحين ان يقدموا للمصابين الأخرين اسعافات اولية بدون الانتقال الى مرحلة الجراحة الا بعد موافقتى .

- طلبت ان ينقلوا للمشير ابو غزالة خالص تقديرى العميق .

- طلبت من القيادة فى القدس عبر التليفون المباشر المفتوح ارسال فوراً طائرة اسعاف مجهزة ـ وابلغت عن نوعية الجراحين المطلوبين والعلاج الذى قد يحتاجون اليه هنا .

واكدت على عنصر الوقت هو اهم عنصر فى نظرى واضفت « يحتمل الا يكون هناك وقت ونضطر لاجراء كل الجراحات هنا ـ ولو امكن يمكن اجراء بعضها فى اسرائيل . على كل حال لا اريد اضاعة الوقت الثمين ومن الافضل ان تأتى الطائرة وتعود خالية ويعدو اطباؤنا بلا عمل عن ان يحدث العكس » وافقت القيادة على طلبى .

وكان الاعداد فى اسرائيل نموذجياً تماماً، مثلما كان اهتمام الاطباء المصريين ووزير الصحة المصرى والمشير ابو غزالة واعضاء السفارة من حولى كان ايضاً نموذجياً .

طلبت من تسيفى ان تدخل الى غرف العمليات والعلاج وان تبلغنى بشكل مستمر عما يحدث هناك .

كان الوزير شارير بجوارى طوال هذا الوقت ، وجاء من المدينة مدير مكتب رئيس الوزراء ابراهام تامير ، ومدير عام وزارة الخارجية دافيد كيمى اللذان كانا هنا خلال المفاوضات حول طابا . وقد انضما فى هدوء للزملاء الاخرين من السفارة الذين وصل بعضهم الى هنا حيث كان كل واحد يؤدى بالضبط كل ماطلبته منه عامل التليفون حريص على الخط المفتوح مع غرفة العمليات باسرائيل ورئيس مجموعة العمل مهمته احضار زوج اتى التى ماتت ، والحرص على وجود طبيب لمعالجته ورعايته عندما يصله هذا النبأ المفزع، واحضار اقارب بقية الجرحى الى المستشفى والاهتمام بالجانب الامنى للتحرك ليلاً فى الوضع الذى نعيشه وغير الواضح، والترتيبات فى المطار لهبوط طائرة الاسعاف العسكرية وتأمين التحرك السريع والامن من هناك الى المستشفى وطاقم الاطباء الاسرائيليين الذى على وشك الوصول.... وغيره .

اقتربت الساعة من الثامنه والنصف مساء سألت غرفة القيادة فى اسرائيل « متى ستصل طائرة الاسعاف العسكرية ؟ » قالوا « اننا نفترض ان الهبوط سيكون فى حوالى الحادية عشرة اننا نقوم حالياً باعداد الطائرة واحضار افراد الطاقم الطبى من منازلهم » وعملت حساباً بينى وبين نفسى : نصف ساعة من لحظة هبوط الطائرة وحتى وصولهم الى المستشفى. اذن امامى حوالى ثلاث ساعات يجب على ان اتابع كل مايحدث داخل غرفة العمليات الجراحية والرعاية .

غادر الوزير شارير وابراهام تامير ودافيد كيمى المكان ووعدت الوزير ، حسب طلبه ، انه ايا كان الوقت ، فإنه سأحضر اليه حتى ابلغه كما سأكون على اتصال تليفونى معه. احسست انه كان من الصعب عليهم ان ابقى مع زملائى الجرحى فى المستشفى ولكننى احترمت جداً مشاعر الثلاثة بأنه فى مثل هذه اللحظات من الافضل ان اخصص كل لحظة ثمينة للاهتمام بالجرحى واكون حراً وغير مرتبط بالاهتمام بهم هم .

ما ان خرجوا من المستشفى حتى استدعونى للتليفون . فقد ابلغتنى القيادة فى

القدس بأن مجموعة من الصحفيين الاسرائيليين ومن التليفزيون الاسرائيلى الناطق بالعربية والعبرية يريدون المجئ مع الطائرة . وكانت هذه هى المرة الاولى ، فى ذلك المساء التى رفعت فيها صوتى « اننى اعرف مدى قلق الجمهور فى اسرائيل وضرورة ابلاغه بالتطورات قوموا انتم بذلك طبقاً لتقاريرنا من هنا . ولكن بالنسبة لى ـ فلا اريد واحداً من رجال اعلامنا هنا . علىّ ان ارعى الجرحى والاهتمام بحياه الزملاء ، ولن التفت الى رجال الاعلام . اذا حضروا الى هنا لن يسمح لنا بالدخول طبقاً لطلب صريح سأتقدم به الى السلطات المصرية . من الافضل ان تمنعوهم من الصعود الى الطائرة » بعد ذلك اعطيت السماعة الى عضو فريق العمل المسئول عن الخط المفتوح مع اسرائيل واستدعيت تسيفى كى اسمع منها عما يحدث فى غرفة العمليات .

الجراحة العاجلة مازالت مستمرة . العناية الاولية بالجرحى الاخرين تتم جيداً جداً كانت تسيفى متأثرة جداً باداء الاطباء المصريين الذى عاجلوا الجرحى . وقد اظهروا معاملة حسنه مع جثمان اتى الراحلة . كنت اتلقى كل ربع ساعة تقريراً مفصلاً ووافياً من تلك المرضة الممتازة والمرأة الشجاعة .

ابلغنى عامل التليفون « لقد اقلعت الطائرة فى طريقها الى القاهرة » نظرت فى ساعتى الجدول الزمنى تماماً مثلما وعدونى . مرة اخرى قمت بحساب الوقت ، وقلت لنفسى ان الهبوط سيكون فى حوالى الساعة الحادية عشرة ليلاً اى بعد حوالى ساعة . وتأكدت من استكمال الترتيبات فى مطار القاهرة الدولى وهل انتقال الاطباء من المطار الى المستشفى مؤمن ومنظم كما ينبغى قبل ذلك بنصف الساعة استدعيت المسئول المصرى عن تأمين المنشآت الاجنبية فى القاهرة . لقد جاء الى المستشفى . وبحث معه ترتيبات حماية رجالنا فى هذه الليلة ، كثيرة الحركة . وعن ترتيبات الامن بالنسبة للغد . صحيح انه يجب ان اهتم بالجرحى ولكن يجب ان اهتم ايضاً بأمن طاقم العاملين بالسفارة .

خلال هذا الحديث ، طلبونى فجأة للقاء كبير الجراحين . طلبت من تسيفى ان تأتى

معى. ان معلوماتها المتخصصة فى مثل هذه اللحظات كانت هامة جداً .

كان دورها ان تقدم لى المعلومات وان ترشدنى فيما يتعلق بالاعتبارات الطبية ، ركضنا فى الردهه المؤدية الى حجره العمليات بسرعة . قالت لى تسيفى ان الاطباء وادارة المستشفى كانوا متعجبين لحقيقة « ان السفير لم يترك المستشفى » . قالت تسيفى ببساطة وصدق« كلهم متأهبون وبهم بعض العصبية ولكن وجودك هام جداً » . وصلنا الى نهاية الممر هناك كان يقف كبير الاطباء بملابس العمل والقفازات فى يديه مما يدل على انه فى ذروة العمل . فماذا خرج ...؟ ما الذى جعله يستدعينى بهذا الشكل ؟ حاولت ان ابدو هادئاً . وانا اصلى فى داخلى ... نظرت بسرعة الى ساعتى كانت الساعة الحادية عشرة ـ كان يجب ان تكون طائرة الاسعاف على ممر الهبوط . من يدرى فقد لا تكون هناك اخبار سارة من الجراح . قال الطبيب « سيدى السفير لقد انتهيت الآن ، والحمد لله بنجاح من اجراء جراحات للمصابين الاول والثانى ، وقد مرت الامور كلها والحمد لله بسلام . واريد منك الاذن باجراء جراحة للثالث » وتجاهلت حقيقة انهم قد اجروا جراحة للجريح الثانى بدون استئذان منى. فمن المؤكد ان كانت لديهم الاسباب وان هذا ليس وقت المحاسبة . قلت لنفسى ان مهمتى هى ان اتأكد وبشكل مسئول ما اذا كان يمكن تأجيل الجراحة الثالثة لمدة نصف الساعة، بدون ان امس مشاعر هؤلاء الاطباء الممتازين الذين ارادوا ـ حسب شهادة تسيفى ـ عملهم بتفان وقررت فى داخلى ـ انه اذا لم يكن هناك خيار فاننى سأفضل المساس بمكانتهم المهنية عن ان اخاطر بحياة انسان .

كانت هناك مناقشة مهذبة ولكنها ثاقبة جداً . قلت « انا لست طبيباً او جراحاً ـ اذا لم يكن هناك خطر على حياة الجريح الثالث ، فمن فضلك خفف عنى وليس عنه ...فبعد حوالى عشرين دقيقة سيحضر اطباء من اسرائيل عليكم ان تتباحثوا وتقرروا فيما بينكم ما تقررون الا اذا قلت لى ان كل لحظة هى غالية » . كنت اعلم اننى امسه . كانسان انقذ الى الآن حياه اثنين من رجالنا . لقد وثقت به ، ولكن اذا تسرعت واعطيته الاذن باجراء جراحة

ثالثة فان ذلك قد يعرقل موعد اقلاع الثلاثة عودتهم الى اسرائيل .

ربما بذلك اكون لا اعرضه هو للخطر ، وانما ايضاً الاخرين الذين اجريت لهم جراحة، وافقنى الجراح « منطقياً ولكن واضح انه قد غضب منى . بعد طلبى ، الذى وصفته بأنه طلب سفير يمر بلحظات صعبة جداً ، وافق على الانتظار .

عدنا الى حجرتنا كان الخط التليفونى مع اسرائيل مازال مفتوحاً لقد ذهب رجال الاعلام الى الطائرة الا انه قد تم استبعادهم بأمر عسكرى وواصلت الحديث مع رجال الامن المصريين ابلغونى عبر جهاز اللاسلكى ان الطائرة قد هبطت فى القاهرة وان الاطباء فى الطريق . سيصلون بعد دقائق معدودة. تم استقبال اطبائنا عند باب المستشفى، باحترام شديد، حيث كان كبير الجراحين والطاقم الطبى المصرى هناك ثم اصطحبوهم لزيارة المصابين وكنا نحن مجتمعون فى حجرة الاجتماعات بالمستشفى- انصت الى المشاورات بين الاطباء المصريين والاسرائيليين- كان هناك جو من الاحترام المهنى يسود الحجرة وقد ذكروا تعبيرات كثيرة وجدت صعوبة فى فهمها ، وتوصلوا الى نتيجة بأن من الناحية الطبية يمكن نقل جميع المصابين الى اسرائيل ، ان حالتهم مستقرة قالت لى طبيبة بالمجموعة الاسرائيلية هامسة « لقد قاموا بعمل رائع وبسرعة وبكفاءة ، لو كنا مكانهم لسعينا ان نفعل بالضبط ما فعلوه هم بنجاح » . وسألتها بتوجس « هل كنت على حق عندما قررت عدم اجراء الجراحة الثالثة ؟ » اجابت لى بالتأكيد بل كان يمكن الانتظار حتى الغد صباحاً فى هذه النقطة بدأ صراع غريب ومثير للغبط مع البيروقراطية المصرية : فلم يسمح النائب العام بسفر المصابين الى الخارج يجب ان يبقوا فى مصر الى ان تتحسن حالتهم والادلاء بشهاداتهم . فهذه هى الاجراءات وليس هناك مصرى على استعداد لأن يتحمل المسئولية ويغير من هذه النظم الازلية وبح صوتى ولكنهم كانوا مصرين . وتفهمت موقفهم ولكننى لم اكن على استعداد بأى شكل ان اوافق على ذلك . لماذا لا يطلبون الحصول على اذن من جهه عليا اكبر منهم ؟ وما ان نفد الصبر سألت مندوب النائب العام ما اذا كان هى مسموحاً لى

استخدام التليفون الموجود بغرفة المستشفى واستجاب لطلبى . طلبت منه ان يطلب لى رئاسة الجمهورية . واندهش المندوب وسأل بصوت خفيض ومتردد ، لماذا اريد المكالمة فى هذه الساعة المتأخرة اجبت بهدوء وبرباطة جأش بأننى اريد ان اتحدث الى رئيس الدولة واطلب منه ان يعطيهم توجيهات مناسبة لهذا الموقف ، وضع الرجل السماعة وخرج للحظة للتشاور مع زميل له . عادا واخبرانى بأنه فى مقدور الجرحى السفر الى اسرائيل اذا تعهدت انا كتابياً بأن يعودوا الى مصر للادلاء بأقوالهم عندما تطالبهم السلطات المصرية بذلك وبعد ان تتحسن حالتهم الصحية استدعيت المستشار اسحاق نوريئيل وامليت عليه «خطاب تعهد» باللغة العربية . وقلت بعد ان تنفست الصعداء . لقد عبرنا هذه العقبة ايضاً عند الخامسة والنصف صباحاً اخرجوا جرحانا الواحد تلو الاخر الى سيارات الاسعاف واخذت القافلة طريقها كانت قافلة مؤلمة جداً بالنسبة لى . اشرفت على نقل كل جريح الى سيارة الاسعاف. طلبت من قائد القافلة المصرى ان اكون فى بداية القافلة. طلبت ان يكون معدل السير بطيئاً وهادئاً ، ولكن فى النهاية وجدت نفسى بعد سيارة الاسعاف الثالثة: يجب على الحرس المصرى الخاص بى ان يكون خلفى مباشرة ولو كنت اول السائرين لفصل الحرس المصرى بينى وبين سيارات الاسعاف ثم فتح البوابات ، وقدم الحرس التحية لى. دخلنا مباشرة الى ممر الاقلاع كانت نساء الجرحى واحد الازواج ينتظرون عند الطائرة العسكرية الاسرائيلية كلهم كانوا موجودين . كانت جوازت سفرهم مختومة تم ادخال الجرحى الى الطائرة. صعدت بعدهم كلمة وداع مختومة لكل واحد منهم . قبله على جبين كل واحد منهم قلت له « الى اللقاء ». حاول كل واحد منهم ان يهز رأسه... هبطت من الطائره التى اغلقت ابوابها وبدأت تتحرك على الممر. انطلقت بسيارتى الى خارج المطار وطلبت من السائق الانتظار الى ان ارى الطائرة فى الجو. ومرقت الطائرة من فوق رؤوسنا ولمحت الالوان العسكرية للجيش الاسرائيلى . نظرت الى ساعتى: انها السادسة صباحاً. فى السابعة كنت فى منزلى ، افتح جهاز الراديو الذى يعلن فى نشرات الاخبار ، ان الطائرة قد هبطت الآن فى مطار بن جوريون وان الجرحى فى طريقهم الى مستشفى تل هاشومير....

ذات يوم احتجنا فجأة الى مشورة طبيب من احد كبار الاطباء فى القاهرة . وكان الوقت متأخراً ليلاً وطبيب الاسرة ، وهو احد افضل الاطباء المصريين فى منطقة المعادى ، الذى عالج زوجتى طوقا ، احس بأن مشوره احد الخبراء تعتبر حيوية . اتصل بهذا الطبيب المتخصص . فالاطباء فى القاهرة يعملون ـ لزيادة دخلهم ـ فى عياداتهم الخاصة ، وعامة فى الليل . فى النهار فهم اما اساتذة فى الجامعات او يعملون فى المستشفيات الحكومية. وما ان سمع هذا الطبيب المتخصص بان الامر يخص زوجة السفير الاسرائيلى . حتى الغى جميع ارتباطاته فى ذلك المساء ، واغلق عيادته وحضر الى منزلنا ، وقام بفحص طوقا فحصاً دقيقاً استمر لاكثرمن نصف الساعة لم يجرؤ طبيب الاسرة على الجلوس بينما معلمه واستاذه موجود معنا . وتشاورا فيما بينهما: حيث شرح الطبيب المتخصص لتلميذه السابق، طبيب الاسرة ، ما توصل اليه من نتائج مختلفة . حواراً هادئاً ومتخصصاً وحضارياً.

انهى الطبيب المتخصص ، الشهير كأحد كبار المتخصصين فى مجاله ، الفحص وظل معنا . تكلمنا فى كل شئ عدا السياسة بعد اكثر من ساعة ونصف نهض ليرحل اردت ان ادفع له . قال لى كيف تتخيل ان احصل على اجر مقابل اول زيارة لى لمنزل سفير اسرائيل . يشرفنى ان اكن هنا ويسعدنى ان قدمت يد المساعدة ، ضغطت عيه ورفضت الا يحصل على اجره وقلت « عندنا تأمين صحى ، وعدم الحصول على اجر منى يعنى مساهمة منك لحكومة اسرائيل »ـ قلتها بنوع من الاثارة ـ اما هو ذلك الطبيب المشهور الذى يعتبر احد رؤساء نقابة الاطباء المصرية التى تقاطع اسرائيل ، فقد اجاب ببساطة : « ولم لا ؟ فليكن! اليس هناك سلام بيننا . »قال كلماته وضغط على يدى بحرارة قبل ان يغادر منزلنا.

لقد قمت بتوجيه الدعوة الى كافة الاطباء والممرضات الذين عالجوا جرحانا بعد عملية الاغتيال بجوار المعرض . كى يزوروا اسرائيل وينزلوا ضيوفاً علينا ، وقد كانت لدى الجميع بلا استثناء الرغبة فى الحضور الا ان النقابة قالت : رسمياً هناك مقاطعة ولا يجب الاستجابة لهذه الدعوة » .

العزلة :

لسوء حظى ، ولمصيبتى ، حكم علىّ فى اغلب سنوات خدمتى عزلة مزدوجة ، الاولى عامة، فى اوساط جزء من الطبقة المثقفة فى مصر، الثانية خاصة فى منزلى بالقاهرة .

بعد حوالى نصف عام من حضورنا الى القاهرة بدأت زوجتى طوقا تشكو من صداع مستمر فى الرأس ، وبمعدل اكبر من السابق كما بدأت تعانى من ضعف فى الذاكرة . ولم يمر وقت طويل حتى اكد صديقنا الطبيب الاستاذ سهر ـ حيث حضرنا اليه خصيصاً من القاهرة ـ انها مصابة باخطر الامراض انه مرض التسهايمر ـ على مدى ست سنوات كنت ارى طوقا امامى وهى تخبو رويداً رويداً . كنا احطناها بعطف لا مثيل له ـ ابناؤنا روبى الراحل واورنا حفظها الله ، وام طوقا وشقيقاتايها يافا وجافا ، وكذلك الممرضتان الهولنديتان بيترنال ويالينا اللتان حضرتا من القدس وقامتا برعايتها بشكل لا مثيل له ، لم نترك مكاناً فى العالم لم نلجأ اليه ، حيث كنا نبحث عن اى علاج . ولما لم نجد بحثنا عن شئ يوقف التدهور والانفصال المتزايد عن البيئة المحيطة وحتى يومهاالاخير لم تكن طوفا تعلم انها مريضة بهذا المرض العضال طوال هذه السنوات الصعبة والطويلة جداً احسست بأنه ليس هناك ما هو اصعب على الانسان من ان يقف وينتظر الكارثة التى تقترب منه ، وهو يقف عاجزاً تماماً وليس فى مقدوره ان يفعل شيئاً للحيلولة دونها .

لقد تعرفت على طوقا عندما كنا فى الرابعة عشرة ومنذ ان تزوجنا بعد حرب الاستقلال وحتى حدث تدهور فى صحتها ، خلال وجودنا فى القاهرة ، عملنا كل شئ معاً . دائماً كنا شركاء فى كل عمل وكل مهمة وكانت دائماً شريكتى وصاحبة مشورتى . عندما اقترح على وزير الخارجية السيد اسحاق شامير ورئيس الوزراء مناحم بيجن فى مارس ١٩٨١ ان اكون ثانى سفير لاسرائيل فى بالقاهرة ، طلبت من السيد بيجن مهلة يوم قبل ان ارد عليه وقد ذهل السيد بيجن عند سماعه لطلبى ، فهو يعلم اننى كنت اريد ان اصبح اول سفير لاسرائيل فى اول دولة عربية نعقد معها سلاماً من اجد العمل على ترسيخ وتقدم هذا

السلام. كان واثقاً من اننى سوف اوافق فوراً ، لانه وجدنى مناسباً لهذا المنصب، قلت للسيد بيجن « انه موضوع شخصى وخالص ، سيدى رئيس الوزراء » فوافق على طلبى واعطانى مهلة يوماً بشرط ان اعده بأنه عندما ابلغه بردى ، اذكر له هذا السبب الخاص والشخصى . فى اليوم التالى ، عندما ذهبت الى رئيس الوزراء حاملاً موافقتى للسفر الى القاهرة ، قاطعنى السيد بيجن وسألنى « ما هو السبب الخاص والشخصى » حكيت لرئيس الوزراء ان والد طوقا ، شموئيل سوكولوف الراحل ، وكان واحداً من كبار قادة منظمة «اتسل» بالقدس ، قد قتل خلال معركة عند قرية ملحة العربية عند مشارف القدس ، لقد قتل من قذيفة مصرية انطلقت من قرية بيت جالا العربية . قلت له « كان يجب ان اسأل طوقا ما اذا كانت تستطيع ان تتحمل هذه المهمة فى القاهرة ، وتواجه حقيقة ان والدها قد قتله جنود مصريون . سألنى رئيس الوزراء« وماذا قالت السيدة سيسون » وكان بيجن يعرف والدها جيداً بل انه هو الذى صاغ بيان النعى عند موته . قلت «قالت طوقا انه مما لا شك فيه ان والدها كان سيبارك هذه المهمة لانه مات من اجل السلام» وهذه الاجابة كانت مؤثرة على السيد بيجن نهض من مكانه وصافحنى بحرارة. منذ ذلك الحين لم يترك رئيس الوزراء فرصة واحدة كى يسأل عن طوقا وان يتابع عن كثب مراحل مرضها الصعب لقد سافرت طوفا معى الى القاهرة وهى سعيدة ومستعدة لمواجهة التحدى الجذاب الذى فرض علينا ثم اعادتها من القاهرة محمولة على نقالة، وهى غائبة تماماً عنى وعمن حولها لقد استقبلت مرضها العضال بهدوء وسكينة وهى تحافظ على جمالها واصالتها.

بعد وصولنا الى القاهرة بعدة ايام اقامت السيدة جيهان السادات حفل استقبال خاصاً على شرف طوقا ودعت اليه زوجها جميع « الاكابر » فى مصر .

ثم عندما جاءت السيدة جيهان الى منزلى لتقديم العزاء فى وفاة طوقا قالت : «لقد كنت فخورة جداً بطوقا فى حفل الاستقبال الذى اقمته لها . كانت لطيفة جداً . وبشوشة جداً كانت فى نظرى أجمل اسرائيلية والاكثر حكمة واصالة ، بعثت بها اسرائيل الينا كى تكون

رمزاً للسلام».

لم اكن ابداً فى يوم من الايام فى حاجة الى طوقا مثلما كنت فى ايام وليالى العزلة فى القاهرة، ففى هذه المرحلة بالذات ابتعدت عنى دون ان استطيع منعها .

كيف ينظم الانسان حياته وهو منعزل فى بيته وخارج بيته ؟ ان حياه العزلة قد تؤثر على اداء الانسان، وقد تصبح الامور اكثر خطورة بالنسبة لحكم السفير على الامور ، حيث يجب ان يتميز بالهدوء والسكينة فى قاهرة الثمانينات ، ذات الظروف السياسية والامنية المعقدة؟ الا يزداد داخل السفير غضب على البيئة المحيطة التى تفرض عليه نوعاً من المقاطعة ، حتى لو كانت جزئية ؟ كيف يدافع وحده ضد ظواهر مختلفة يجب ان يكافحها وهل سيستطيع ان يواجه يهدوء وحسن تفكير مواقف تقتضى المصلحة القومية ان يواجهها؟

كانت الاجابة على كل هذه الاسئلة واحدة ووحيدة - ان قوة التحدى الذى وقف امامى - تحدى المحافظة على السلام وبذل الجهود لترسيخه ، والايمان العميق بحيويته ، والتمسك بالهدف والعمل الدائم لتحقيقه - كل هذه الامور هى التى اعطتنى القدرة النفسية على مواجهة هذه المواقف وساعدتنى ان اطور الكفاءة المهنية التى تعتبر حيوية من اجل بلورة اساليب العمل التى اتاحت لى العمل بشكل مسئول ، وذلك على الرغم من المصاعب والظروف الحساسة جداً . كان يجب على ان اواجه التحدى بل وان اصمد امامه - وكان ايمانى هو لو لم افعل ذلك فسوف اعيش انا واولادى على اطلالنا....

اغفر لهم سيدى السفير :

حوار مع الاديب نجيب محفوظ فى مايو ١٩٨٢ بعد شهر واحد من الجلاء عن سيناء . وقبل اسبوعين من بداية حرب « سلامة الجليل » قمت بزيارة لنجيب محفوظ اكبر ادباء مصر . مبنى دار الاهرام هو مبنى كبير به ثلاثة عشر طابقاً وقد شيد فى عهد جمال عبد الناصر المتحدث باسم وكاتم اسراره حسنين هيكل . وما ان تتخطى بوابته تشعر وكأنك قد

اقتلعت من القاهرة ودخلت مبنى امريكياً حديثاً. وعلى عكس ما هو فى مصر ، فان عاملات المصاعد رائعات . النظام والنظافة فى كل مكان . حتى الناس ينتظرون فى هدوء وبشكل مهذب لدورهم . ليس هذا الهدوء ولامبالاه لدى الواقفين فى الطوابير الطويلة فى شوارع القاهرة بل انها نوعية مختلفة تماماً . حجرة نجيب محفوظ حجرة صغيرة ، ٤ × ٤ امتار كل اثاثها مكتبان كبيران وثلاثة مقاعد، وتليفونان وارفف ليس بها الكثير من الكتب وللديكور: صورة وحيدة - رسم لسيدتين مصريتين الاولى تعطينا ظهرها والثانية تنظر الينا بعينين ثاقبتين وجميلتين جداً ، عينان مصريتان، وللون الغالب على اللوحة هو الاصفر . اصفرار صحراوى مصرى تقليدى لون مصر .جلس نجيب محفوظ بجوار احد المكتبين وكتب . نهض ليستقبلنى انتقل الى الجانب الاخر من المكتب وجلس كلانا على المقعدين المتجاورين .

رأيت امامى شخصاً قصيراً ونحيفاً قلت فى نفسى - عندما يسير فى شوارع المدينة، فانه ينوب وسط الملايين المتدفقين . يرتدى ملابس بسيطة ، بغير هندام ، بعباراتة بسيطة شعبية. العينان فقط ثاقبة لا تثبت على حال تستوعب قال انه لشرف كبير له ان اذهب لزيارته. ماذا اشرب ؟ هل قهوه ام « حاجة ساقعة » قلت اننى منفعل للقاء اكبر ادباء العالم العربى « واشار بالرفض بيده » . وجئت لأعرب عن تقديرى له عن المقال الذى نشره عن اسرائيل فور انتهاء الانسحاب من بقيه سيناء اجاب (لقد وقع ظلم على الشعبية . ففى الماضى ركزنا ، سواء نحن وسواء انتم ، على كل ما يفصل بيننا ، من الآن فصاعدا يتحتم علينا ان نبرز كل ما هو مشترك . بعدما اوفيتم بوعدكم - واحترمتم توقيعكم واعادتم سيناء، لم يعد هناك اى جرح لقد قدر الشعب المصرى جداً حقيقة ان اسرائيل قد اوفت بوعدها، من الآن فصاعداً لن تجد اى مشاكل لدى المصريين . من الآن علينا ان نطور السلام معا وان نثرى مضمونه) . وقلت له ان كل حفل اسرائيلى يقابل اسم مصر ٦٨٠ مرة عند دراسة كتاب العهد القديم. فاعتدل فى مجلسه. ولمعت عينيه وواصلت كلامى وقلت ان اول دولة اجنبية يقابلها الطفل الاسرائيلى عند دراسة التوراه فى المدرسة الشعبية هى مصر. وقد

بدت عليه المفاجأة ولكنه فكر على الفور وقال « هذا حقيقى » وقال فى نفسه « انه امر مثير للاهتمام». واصلت كلامى وقلت له انه فى عالمنا يوجد اليوم شعبان فقط يعيشان ويعملان بكامل حيويتهما، وقادران على ان يقول كل منهما للاخر ان التعرف بينهما بدأ من ٣٧٠٠ عام. وعلق نجيب محفوظ قائلاً « ياله من تشبيه حقيقى وجميل انها حقيقة تاريخية اكيده وعظيمة الايحاء » وابديت ملاحظة ، بأنه من ضمن المشاكل انه فى جميع الاكتشافات الاثرية المصرية لا يوجد لدى الهيروغليفيين اى ذكر لهذا الماضى المشترك . ولا هكذا بالطبع فى التوراه ولا فى القرآن . ومن ضمن المشاكل هو انه اليوم ايضاً - فى ايام السلام بين اسرائيل ومصر - لا يوجد اى عمل او نشاط ثقافى مشترك رغم الجيره والماضى المشترك الغنى. هناك مثلاً تعطش لدى ادباء اسرائيل للاتصال والحوار ورجال الفن والثقافة بالذات يبدون تحفظاً خطيراً . هل يعقل ان يكون العسكريون والسياسيون راغبين وينفذون السلام، نجد ان المثقفين بالذات يتحفظون منه ؟ هل انقلبت المقاييس فى مصر ؟ هل يعقل ان يكون الادباء والفنانون بالذات على قدر من العداء ويساندون استمرار المغامرات والحروب؟

اجاب محفوظ « لا ليس هذا هو السبب اننى اعرف شعبى وهو ليس بشعب يحمل الكراهية لا توجد كراهية تجاه اسرائيل وهذا ينطبق على الادباء وعلى الفنانين ايضاً . حقاً انهم فى مشكلة . ولكن ليست اسرائيل هى سبب هذا المأزق ، انه مأزق مادى وليس روحياً كل واحد يكتب او يقول كلمة من اجل ان يزيد من دخله . لا يوجد اهتمام جاد بالشعب وما يحدث خارج مصر وبما فى ذلك ما يحدث فى العالم العربى ان تلك القائمة السوداء التى وضعها الحكام العرب ، للادباء والفنانين ، والكتاب والرسامين والممثلين تثير مخاوفهم. لوتمت مقاطعتهم، فسوف ينهار مصدر رزقهم ويعزلون من السوق ، ومن مجال معيشتهم الحقيقى والطبيعى « خدنى كمثال . لقد ارادوا مقاطعتى . حدث فى فترة ان هبطت مبيعات كتبى فى العالم العربى الى حوالى النصف . ولكن هذا لم يردعنى . ان كبار الادباء الذين ترسخت مكانتهم لا يخشون المقاطعة . حاول تقريباً هؤلاء . فهم الوراد وبعضهم قد يكون اكثر

شجاعة وبالنسبة للاخرين الذين مازالوا خائفين ومازالوا محتاجين ـ اغفر لهم سيدى السفير انهم ليسوا اعداء بسبب فقرهم ـ هم فى حاجة للمحافظة على مصدر رزقهم وليس اكثر. لا توجد فلسفة ضد السلام . الشعب ، المصرى رجل الشارع المصرى البسيط الطيب ، هو الاهم والشعب على استعداد ويريد التعارف ، ومن المهم تشجيع هذه الرغبة عندما يتم حل المشكلة ولن تكون هناك اى مقاطعة على الاديب الصغير ، او الفنان الصغير ـ سترون كيف سيستجمعون شجاعتهم ويدخلون فى حوار هام بين طبقة المثقفين عندنا وعندكم . اؤكد انه علينا ان نبرز كل ما هو مشترك وتشجيع الشعوب على ان تتعارف اكثر فيما بينهما والعمل ـ كذلك على الصعيد الثقافى ـ معا » .

دار الحديث بيننا بينما كان باب حجرته مفتوحاً . وكان اناس كثيرون يدخلون من حين لآخر لالقاء التحية عليه ـ الاديب ثروت اباظة واحمد التهامى وغيرهما .

كان ينهض من مكانه ويصافح ضيوفه بحرارة ويقدمنى لكل واحد منهم باسمى كاملاً ومنصبى . هو ـ العملاق ـ لا يكتب « ليزيد من دخله » لان نجيب محفوظ سيحصل بعد عدة سنوات على جائزة نوبل فى الادب .

نجيب محفوظ الى اللبنانين والفلسطينيين :

عن نظرة الاديب الكبير نجيب محفوظ الى السلام مع اسرائيل ، يمكن ان نعرف من خلال الحديث الذى ادلى به فى ٢٧ ابريل ١٩٨٧ لصحيفة الشراع اللبنانية . كانت هذه فترة صعبة ومعقدة وحساسة جداً فى العلاقات بين مصر واسرائيل .

ـ هل مازلت متمسكاً بالسلام مع الدولة التى اثبتت انها لا تحترم السلام ؟

محفوظ : فى رأيى ان اى حرب فى اى مكان فى العالم ، يجب ان تنتهى بالسلام .

ـ الا زلت مقتنعاً بفائدة السلام مع اسرائيل ؟

ـ لن يتم الحل الا بالسلام . كنت اول من طالبت بالسلام فى عام ١٩٧٥ . اى قبل ان تتجه مصر الى السلام . واليوم ازداد مؤيدو السلام .

ـ ولكن اسرائيل لا تحترم السلام ومازالت ترتكب اعمالاً اجرامية ضد شعوب عربية اخرى فى لبنان وضد الفلسطينيين ؟

ـ هذا صحيح . ولكن منذ التصالح بيننا لم ترتكب « بواسطة اسرائيل » اى عمل بربرى ضدنا . عندما تصنع اسرائيل السلام فهى تحافظ عليه .

ـ اسرائيل تسلك سياسة كارهة للسلام . اليس كذلك ؟

ـ لا اتخيل ان اسرائيل تكره السلام . لا مفر من ان تسلك مثل هذه السياسة لان من يوجهونها لا يريدون السلام . انكم لم تتحدثوا اليها بالمنطق وانما بالقوة ....

انيس منصور عن السلام :

القاهرة فى ذكرى مرور عشر سنوات لزيارة السادات للقدس . مازال جيش الدفاع متواجداً فى عمق لبنان . لم يتذكر احد فى مصر هذه الزيارة التاريخية التى غيرت وجه الشرق الاوسط . ولا حدث رسمى واحد . . ولا تصريح ، ولا مقال فى اى من الصحف المصرية ولا تلميح ـ ولا فى الاذاعة ولا فى التليفزيون . كل شئ هنا فى القاهرة على عكس تام مما يحدث فى اسرائيل فى ذلك اليوم حيث يخطب الخطباء ، ويكتب الكتاب ، ومذيعوها يذيعون فى كل المحطات وعلى كافة الموجات « ارسال الحياه » اما النادمون، اى المصريين، فبسبب ذلك العمل الذى قام به زعيمهم الكبير هل هم خاجلون من السلام ام من شركائهم فى السلام ؟ ان صمتاً صارخاً يحتاج الى تفسير .

فى ذلك المساء قام الممثل المعروف عمر الشريف بافتتاح اول عرض لاوبرا عايدة وقد فوجئ الجميع بأنه قد خصص كلمة الترحيب فى ذلك المساء لذكرى مرور عشر سنوات على زيارة الرئيس السادات للقدس . فى اليوم التالى خصص الكاتب الصحفى انيس منصور عموده اليومى فى الاهرام ١٩ / ٩ / ١٩٨٧ « مواقف » لتلك الذكرى جاء فيه « كان لم ذكى جداً من جانب الفنان عمر الشريف ان يخصص حفل اوبرا عايدة لاحياء ذكرى مرور عشر

سنوات على زيارة السادات للقدس». لقد نسب هذا الحدث الى اربعة اشخاص : انور السادات الذى لولاه ، ما كانت مبادرة السلام وما كان السلام . ولحسنى مبارك الذى لولاه ، ما كان الاستقرار ولا الاستمرارية . استمرار السلام واستمرار المسيرة ـ والذى لولاه ماكنا شاهدنا اوبرا عايدة بالامس . وللملك فهد ولصديقه العزيز وزميله فى كلية فيكتوريا ـ الملك حسين ان عمر الشريف هو الذى لفت انظارنا الى السلام الذى اعتادنا عليه منذ عشر سنوات . لقد اعتادنا عليه لدرجة ان احداً لم يشعر به.. ولولا انتصارات قواتنا المسلحة فى حرب اكتوبر ما كانت مبادرة السادات للسلام ولا زيارته للقدس ، الذى قال بشجاعة وعناد لشعب اسرائيل ما قاله هنا فى مصر ، كلمة .. كلمة ، فى كل اجهزة الاعلام . تصريحاته فى مصر لم تكن من اجل الاستهلاك المحلى امام الشعب المصرى . وهو لم يسافر الى القدس كى يطرح على الشعب الاسرائيلى افكاراً جديدة للتصدير بل كانت « البضاعة » واحدة.

ولكننا تعودنا على انه لن تكون هناك حرب اخرى مع اسرائيل . وتعودنا ايضاً على الا نتذكر ذلك لقد جاء الينا السلام متسللاً . وكأنما هو لص. لن يمضى وقت طويل حتى نقبض عليه ونعاقبه لانه جاء ... منذ عدة ايام تحدثت مع الاديب الروسى جوليا الذى كتب مسرحية اخناتون فى رأيه ان هذا الفرعون لم يكن متمرداً وفاشلاً لأنه ظهر قبل اوانه وسابقاً لعصره. وقد ترجم حديثنا المستشرق الروسى بريمكوف الذى قال ان اخناتون القديم جداً، مثل السادات الحديث ، قد فشل لأنه سبق عصره جداً ، اى انه قام بعمل لم تكن الناس مهيأه له ولتقبله. وكأنه شخص ينفخ فى قربة مثقوبة وان كانت هذه القربة روسية . كان خطأ السادات «فى رأى الروسى» انه لم يطلب اذن اصحاب القربة كى ينفخ فيها....

شكراً للاصدقاء السوفييت : حقاً اننا لم نعرف الا الفشل . فشل عبد الناصر فى الحرب وفشل السادات فى السلام .. ولكن علينا ان نشكر الله الذى اعطانا «اخناتون فاشل» مرة كل خمسة آلاف سنه.. » .

الحكم قبل المداولة :

ان انتاج الادباء المصريين يعتبر كما هو معروف صدى لم يحدث فيها . لو اردت ان تتعمق وان تفهم جيداً ما يحدث داخل الشعب المصرى ومعرفة مشاعره وطريقته فى التفكير او معرفة آلامه وأمانيه ـ فما عليك الا ان تقرأ على الدوام الانتاج الادبى لادبائه ، صغارهم وكبارهم من بين هذا الانتاج الشهير ، هو انتاج كبير الادباء المصريين فى عصرنا هذا نجيب محفوظ بما فى ذلك قصته « ثرثرة فوق النيل » . وكذلك بعض انتاج ادباء مصريين اخرين ، وخاصة بعض الصغار منهم الذين يبشر عملهم بمستقبل ادبى بما ان جميع افراد كبار المسئولين فى سفارتنا بالقاهرة ، خلال فترة عملى. احسنوا معرفة اللغة العربية فقد اعتادنا على ان نوزع على انفسنا عملية قراءة الانتاج الادبى وكان كل منا يوصى الاخر بقراءة كتاب او مسرحية او شعر استمتع به او تعلم منه شيئاً فى حالات معينة اعتادنا على ان نرسل من حين لاخر الى وزارة الخارجية بالقدس ملخصاً لانتاج ادبى يبدو لنا انه مهم او ذو مغزى خاص . واكثر من فعل ذلك كان اسحاق برموشى ، صحفى وكاتب « بالعربية » . الذى تولى منصب مستشار لشئون الصحافة « الادب » وسجل ملخص مسرحية فريدة فى مضمونها وفى البناء والرسالة التى ارادت ان تقولها انها مسرحية مكونة من مائة صفحة كتبها مؤلفها فى الستينات ، فى عهد عبد الناصر ولم تمثل ابداً على المسرح . وقد حصلت على موافقة الرقابة بعد ان تولى السادات الحكم ، ونشرت فى كتاب ، فى عام ١٩٨٥ فى عهد حسنى مبارك ، بعد العثور على النص الذى كتبه المؤلف .

نجيب سرور ، كان فى الستينات والسبعينات مسرحياً كبيراً ومسرحياته لقيت فى مصر اصداء جيدة . وقد توفى فى بداية الثمانينات فى ظروف مأساوية فقد فقد عقله ، كان يسير فى شوارع القاهرة ـ يكلم نفسه او يخطب بصوت مرتفع . وقد ادخل مستشفى الامراض العقلية حيث توفى .

ومجرد نشر المسرحية فى شكل كتاب ، ليس مجرد تحية لمسرحى مصرى كبير انهى

حياته بشكل درامى كما ان طباعتها ونشرها لا ينبعان من الرغبة فى المحافظة على عمل ادبى ذى قوة نادرة فى المضمون والبناء ، وانما امامنا شهادة تعبر وتصف الحالة التى وصل اليها الانسان المصرى فى عهد جمال عبد الناصر .

فى مقدمة المسرحية خارج اطار الزمان والمكان يقف شخص اسمه « س » ويحكى لجمهور كبير من فوق منصه عن مصيره المرير : انه مكروه ومنبوذ ، ومن حوله عالم مادى . لقد اختفى الاخيار وظهر الاشرار ونجحوا بجواره يقف افراد الجمهور .ـ مثلما يحدث فى المسرحيات اليونانية القديمة بعبارات قصيرة ومحددة ينظر « س » الى العالم المحيط به : لا توجد ثقة فى اى احد ، الناس تتنكر لاخوانها . لا يوجد شخص واحد يعيش فى سلام مع من حوله . واصبح الموت هو العلاج الوحيد للموت رائحة النرجس . الاشتياق للموت مثل مشاعر الشرق الى الدار الذى ضاع . بعد كل عبارة من عبارات « س » ، يكرر من يقفون حوله السؤال « الى من يتكلم اليوم ؟ » .

فى الجزء الاول يظهر الكاتب ويقول : « س لن يتكلم من الآن فصاعداً . » ويحتج الجمهور الذى حوله ويرفض الكاتب ان يرد على الاحتجاج ، يرفض القول ما اذا كانت مسرحية كوميدية ام تراجيدية . يكتفى المؤلف بالقول بأنه هو نفسة لا يعرف. وهو اى المؤلف يحكم على « س » بالصمت حتى يصبح انساناً حراً . ولم يمت المؤلف شخصية «س» لأن الموت ليس حرية فالحرية موجودة فقط فى اطار الحياه . وحرية « س » سوف تنتهى مع موته .

فجأه تقوم الشرطة باعتقال « س » وتقدمه للمحاكمة . من المنتظر ان يحكم عليه بالاعدام «س» يقف امام المحقق ولا يجيب على اسئلته . ويقول افراء الجمهور للمحقق ان «س» لا يجيب . ويبدأ المحقق فى التحقيق فى هوية هذا الجمهور . ويعلن افراد الجمهور انهم المحامون القانونيون للدفاع عن « س » . ويعلن المحقق ان المتهم سيحاكم حتى اذا لم يتكلم، وسيعدم فوراً .

عند هذه النقطة يبدأ الجمهور فى تلاوة فقرات من الادب الفرعونى القديم . فى هذه الفقرات وصف مأساوى لمصر امس ومصر اليوم كلمات احتجاج شديدة واشارة الى ما تطلبه الآله من البشر، والبشر لا يستجيبون ، وتبدأ المحاكمة . ثلاثة قضاه احدهم يرتدى زياً ابيض ، وهو رئيس المحكمة الجالس فى الوسط ، والثانى يرتدى زياً احمر والثالث زياً اسود وهى الوان علم الثورة المصرية » ومظهر يوحى بكهنة من العهد الفرعونى .

فى الفصل الاخير يتلو الادعاء كلاماً من داخل مفكرة « س » : « ماهى حالة الارض؟ لقد اختفت الشمس ولم تعد تسطع والناس لم تعد ترى . الارض تملتئ بالعذاب » .

يستدعى رئيس المحكمة الشهود ولكنهم غير مرئيين وشهادتهم غير مسموعة ـ شاهد واحد فقط هو الموجود ـ انها ام المتهم . تصعد الام على المنصة تغنى اغنية حزينة يغنيها الناس عند شعورهم بالمرارة . يسأل رئيس المحكمة « ما هذا ؟ » ويأتى رد الجمهور : « لقد صمم المؤلف على هذا » الام تتنكر لابنها . ويعلن رئيس المحكمة : « ترفع الجلسة للمداولة» وتنتهى المسرحية .

ثقافة ـ على طرف الشوكة :

اول لقاء للرسامة الاسرائيلية روث لفين مع الصحراء ، كان فى المناطق الصحراوية للولايات المتحدة. واللقاء الثانى لروث مع الصحراء ، كان عندما قامت برحلتها الاولى الى مصر باتوبيس سياحى، بعد اتفاقية السلام فى الطريق الى القاهرة، فى العبارة التى عبرت قناة السويس لاحظت روث لاول مرة ذلك الاختلاف البارز بين مزاج الاسرائيليين ومزاج المصريين الذين كانوا، هم ايضاً، على نفس العبارة لقد بدا لهم الاسرائيليون كمن جاءوا «ليخطفوا ويتنوقوا» ملء ايديهم هذا السلام كان واضحاً عليهم تماماً عدم الهدوء النفسى... فى المقابل برز هدوء المصريين . يلبسون الجلباب ويتحركون ببطء وهدوء وكأنهم قد خلقوا بدون اعصاب تماماً ، وبدلا من هذا اخذوا جرعة كبيرة جداً من الحساسية . فى مقابل

الضد اليونانى او الرومانى المصقول باروع القدرات ، امام التمثال اليونانى الرائع ، الذى يصل الى درجة « ايدوس » ذات الجسد الكامل - يوجد فى مصر العليا فن قديم ذو قوة ضخمة متأثر بالاعمال الفرعونية القديمة ،. وقد اخبرتنى روث ذات مرة بما تشعر به عندما تقف امام هذه الاعمال الفنية لمصر القديمة ، التى تعبر بقوة عن عظمة الصحراء المصرية لديهم هناك الاعمدة والمعابد والمقابر والتماثيل الفرعونية ذات الصمود الابدى . منذ تلك العهود القديمة جداً وهى موجوده هناك فى صعيد مصر تشهد على نفسها وعلى انه اعظم من قدرة الفنان البشرى .

حتى النظرة الفرعونية للموت بدت ايجابية ، بل ربما بها نوع من المتعة ان الموت يعيش هناك - عندهم - كاستمرار للحياه ، وليس كنهاية لها .

هذا الفن الفرعونى - من آلاف السنين ، يرسخ الاحساس بأنه لا يوجد اى شئ له نهاية. وليس المقصود السموات العالية وإنا هنا فى اسفل على الارض. انه واقع مركب وساحر لا يتوقف رغم مرور اجيال كثيرة منذ ذلك الحين ، هناك فى مكان ما على الضفة امام مدينة الاقصر ، يوجد التمثالان الضخمان ، وكانا فى قديم الازل عند بوابة معبد الفرعون امنحتب الثالث ، ومنذ ذلك الحين والى اليوم وهم ينظران الى ما وراء الافق ، لا مبالين لما يحدث حولهما ، وعلى وجهيهما المطموسين مازال واضح آثار ابتسامة وكم مقدار الاختلاف بين هذه الابتسامة وبين ابتسامة التماثيل اليونانية : فى ابتسامتها تلاحظ نوعاً من التعبير عن السمو يضفى على الناظر اليهما الشعور بعلو شأنهما .

هذه الصحراء المصرية والتماثيل والمعابد الفرعونية اسروا احاسيس روث خلال اول زيارة لها لمصر بعد ذلك جاءت رحلاتها الكثيرة لهذا البلد كان يجب ان تعود عدة مرات لترسم وكأنها انجذبت الى هذه القوة والى هذه التماثيل العملاقه ، لقد انجذبت الى السماء المصرية الممتده فوق الصحراء ورسمتها اكثر من مرة، فى الليل ، بدت لها هذه السماء وكأنها قطعة قماش من القطيفة الممتدة وبدت لها النجوم وكأنها ثقوب لامعة فى هذا القماش

وقد عبرت عن هذا جيداً فى رسوماتها .

لقد انجذبت الى الصحراء المصرية اللانهائية والهادئة جداً ، والنيل الذى ينساب فى هدوء وكأنه يتسلل فى تواضع وسكون بين رمال الصحراء ، والسماء ذات اللون الواحد والاعمدة الواقفة بشموخ وتماسك بقوة جدران المعابد . والمسافات بين الاعمدة ، وارتفاع المسلات ، والمعابد والتماثيل التى تعطى لمن يمر بها او يقف امامها شعوراً بأنه يقف امام الابدية امام اللانهائية .

فى احدى رحلاتى من القاهرة الى القدس على طريق الساحل الممتد من مداخل القنطرة وحتى مداخل العريش ، هاجمتنى مرة عاصفة صحراوية هذه الصحراء الخامدة والساكنة تحولت فجأة الى عاصفة، عشنا داخل هذه العاصفة الهوجاء وقتا طويلاً فجأه وكأن الصحراء قد تحولت الى عملاق ينهض من نومته الهادئة - ومثل قوة السكون والهدوء الذى كان يلفة ، تحول فجأه الى عاصفة هوجاء . وقد استطعنا بصعوبة ان نميز الطريق على مرمى مترين او ثلاثة وانقضت العاصفة فجأة على السيارة حيث كانت حبات الرمال تهاجمها من كل ناحية هذه الحبات وكأنها قد اقتلعت من اماكنها ونطلقت بقوة تهاجم نوافذ السيارة وجوانبها وقد استولى الخوف على زوجتى طوقا التى كانت معى فى الرحلة بينما شعرت انا بالقلق وقد جذبتنى هذه الثورة المفاجأة للصحراء التى اعتدت على ان اراها وكأنها تنام ابد الدهر . كم كانت قوية ومتتالية موجات هجوم الرمال على السيارة . لدرجة انها قد ازالت اللون المميز للوحة الارقام التى اصبحت لوحة معدنية صدئة وقلت فى نفسى، ماذا كان سيفعل هذان التمثالان العملاقان لو استيقظا فجأة ونهضا من على مقعديهما وبدءا السير فى صحراء صعيد مصر .

احدى صديقات روث وهى السفيرة استر هرلتس ، اعطتها عنوان رسامة مصرية - امال شكرى ، وهى رسامة وضعت لنفسها اسلوباً تصويرياً خاصاً استوحت موضوعاته من العهد الفرعونى القديم . ارادت روث ان ترى هذه اللوحات وان تتعرف عن قرب على امرأة

مصرية . وما ان التقيا ، حتى تولد انطباع لدى روث ان امامها سيدة ذكية ، ذات شخصية قوية ومسيطرة ولكنها بسيطة . وكلما تعرفت عليها اكثر ، تحولت الى لغز فى نظر روث . فى مصر على عكس اسرائيل لا تستطيع ان تقرأ على الفور شخصية الذين تلتقى بهم . لقد قامت الرسامة امال وزوجها شكرى بدعوه روث الى منزلهما ، وكلاهما قبطى . امال تتحدث العربية والفرنسية والالمانية والانجليزية والايطالية وهى غارقة فى الرسومات الفرعونية، بينما زوجها ـ على المعاش ـ يشجعها على ان تزيد من رسوماتها ومحاولة بيعها للتخلص من وضعهما المادى السئ .

وكانت امال شكرى هى التى طرحت فكرة اقامة معرض رسومات مصرى ـ اسرائيلى مشترك فى القاهرة . جاء هذا الاقتراح فى الوقت الذى كان فيه الجلاء الاسرائيلى على وشك ان يبدأ فعلاً . فى تلك الايام كان كل شئ ممكناً . حتى معرض لوحات مصرى ـ اسرائيلى ورد فى الحسبان فى تلك الايام . كان السلام فى بدايته . كان جديداً ولامعاً ومضموناً وبالصدفة المحضة ، فى هذه الفترة بالضبط قامت بلها لينيادو، زوجة المستشار الصحفى بسفارتنا بالقاهرة بتعريف امال شكرى على رسامة اسرائيلية اخرى ـ السيدة لفنازامير التى كانت تزور القاهرة أنذاك لرعاية شئون جمعية الصداقة الاسرائيلية . وقررت الرسامات الثلاثة ان يقيمن فى القاهرة اول معرض مشترك للرسومات منذ التوقيع على اتفاقية السلام وقد قمت انا والسفير المصرى فى اسرائيل ، سعد مرتضى بتشجيع الرسامات الرائدات .

قبل عدة اسابيع من هذا القرار ، تقدم السفير مرتضى بطلب ملح الى لفنا ان تساعده على اقامة معرض لرسام مصرى فى تل ابيب خلال اسبوع واحد وبما انها ترأس جمعية الصداقة عندنا ذهبت الى متحف تل ابيب الذى رفض طلبها تماماً . قالوا لها لا يمكن اقامة معرض هكذا فجأة يجب اولا معرفة شخصية الفنان ، والاطلاع على بعض لوحاته، وعرض الاقتراح على اللجنة المختصة فى المتحف والمزيد من الاجراءات الطويلة

المعقدة التى يتطلبها اى متحف يحترم نفسه . ولم تفلح كل مساعى لفنا امام مديرى المتحف لقد اغمضوا عيونهم عن رؤية تلك الخاصية والاهمية الخاصة فى استضافة معرض مصرى الاول من نوعه فى اسرائيل فى عهد السلام . قالوا بحزم يجب عليهم ان يعملوا وفقاً للاجراءات» . ولفنا امرأة مجتهدة لم تيأس كانت تشعربأنها تؤدى رسالة . وعندما ضاق الامر بها، اتجهت الى مسرح « هابيما » الذى وافق على الفور ان يضع تحت امر سفير مصر قاعة الدخول الواسعة لم يكن الرسام المصرى محمود سعيد وكذلك الرسامان الاخران اللذان سيضعان لوحاتهما ـ وهما يوسف كمال واحمد صبرى ـ فى المعرض بتل ابيب ، على قيد الحياه ويبدو ان المصريين رأوا ان ذلك افضل من ان يعرضوا لوحات رسام مصرى على قيد الحياه ، قد يصطدم بنقد شديد من جانب زملائه المصريين حيث تحفظ كثيرون منهم رسمياً وحسب تعليمات نقاباتهم من التعامل مع اسرائيل . ويبدو ان السلطات المصرية قد تذكرت الدرس من عام ١٩٨٠ ، عندما اتفق تسيفى جباى ، مستشار سفارتنا فى القاهرة ،مع المصرى سماح بنانى الذى وافق بحماس على اقتراح بعرض اعماله فى صالة عمليا اربل بتل ابيب ، ولكن سماح الغى معرضه فى اللحظة الاخيرة . فى تلك الفترة كان الفنان بنانى يقوم بتدريس الفنون فى جامعة القاهرة وقد قام زملاؤه بممارسة ضغوط قوية عليه حتى لا يقيم معرضه فى تل ابيب . وقد خضع لضغوطهم وتراجع . ومؤخراً قامت الحكومة المصرية بمبادرة وقررت ان ترسل الى اسرئيل معرضاً اخر ، ولكن هذه المرة معرض لرسامين «موتى» ... خلال اسبوع استطاعت لفنا ان تقيم المعرض فى قاعات مسرح « هابيما » وقد حضر وزير الثقافة المصرى عبد الحميد رضوان خصيصاً من القاهرة للمشاركة فى افتتاح المعرض . وحضر معه نائبه يوسف شوقى . فى هذه المناسبة اخبرت لفنا يوسف شوقى عن مشروع « المعرض الثلاثى المشترك » فى القاهرة وقد استجاب بأن يقدم كل مساعدة ممكنه . وقررت الرسامات الثالث ـ امال وروث ولفنا ـ اقامة المعرض فى الفندق الفخم مريديان على ضفاف النيل. وقد اخترن هذا المكان لان المسئول عن العلاقات العامة فى هذا الفندق كان حسام السادات ابن شقيق الرئيس الراحل السادات .

اخذت امال وروث ولفنا طريقهن الى مكتب وزير الثقافة المصرى آنذاك الشاب واللطيف عبد الحميد رضوان ، كانت جدران المكتب مغطاه بورق الحائط وسكرتيرة تجلس عند المدخل الى مكتب الوزير وكانت تقوم بطلاء اظافرها .

اتربة وعدم نظام يسودان المكتب . وقد استقبل وزير الثقافة فكرة المعرض المشترك بحماس وقال ان هذا المعرض سيقام تحت رعاية وزارته ، وانه سيذكر ذلك فى بطاقات الدعوة التى سيتم طبعها . ونظراً لانشغاله يوم افتتاح المعرض فانه سيرسل الى هناك مندوبين ولكن سيقوم بزيارة للمعرض فى وقت لاحق . المهم ـ قال الوزير ـ ان نقيم المعرض المصرى الاسرائيلى المشترك الاول فى القاهرة الذى يرمز الى عهد السلام. ان لفنا، وهى من اصل مصرى، تحسن الكلام باللغة العربية بلهجة مصرية ولا يمكن ان نعتقد انها قد تركت مصر منذ وقت طويل ، وهى فى العاشرة من عمرها . عندما هاجرت الى اسرائيل. وقد احسنت معرفة العادات والتقاليد المصرية . ذات يوم الفت كتاباً عن المأكولات المصرية ولكن منذ ان تركت مصر لم تعد الى هناك ـ الا بعد التوقيع على اتفاقية السلام ومنذ ذلك الحين ويبدو انه ليست القاهرة هى التى تغيرت جداً كان يبدو لها ان المصريين ايضاً قد تغيروا نوعاً ما .تنقلت بسيارة اجره وفى نهاية رحلة قصيرة جداً دفعت للسائق خمسين قرشاً اى ضعف الاجرة اما السائق الذى كان ينتظر ان يحصل على المزيد قال « ازاى كده يا ستى » .لقد نظر الى السيدة المحترمة الجالسه على المقعد الخلفى بالتاكسى وتتحدث لهجة مصرية طليقة . كان مقتنعاً بانها سيدة مصرية ، وتمتم قائلاً « معلهش ....مظاهر » لقد اتضح للفنا ان التركيبة الاجتماعية فى مصر، رغم انها تختلف عن تلك التى عرفتها فى طفولتها ، الا ان نفس التقسيم مازال قائماً : طبقة « الذين يعطون » الى جانب طبقة «الذين يأخذون»، وكلاهما يحافظ على هذه التركيبة . الذين يأخذون يحرصون على هذا الوضع لانه مصدر رزقهم « احنا خدامينك ياستى » ... « دى ارادة ربنا » .. عبارات سمعتها اكثر من مرة من سعاه وموظفين وسائقين .

وامال شكرى ، رغم ان وضعها الاقتصادى كان سيئاً الا انها لم تر نفسها ضمن طبقة« الذين يأخذون» بالعكس . كانت تقول للفنا عند تعاملها مع مختلف الموظفين الذين احتاجت الى معونتهم لاقامة المعرض « دول غلابة » رأت امال فى نفسها ضمن طبقة الذين يعطون ، وعن طريق المال الخاص لزميلتها الاسرائيليتين ارادت ان تطبق هذا الاسلوب وان تعطى للذين ياخذون بيد كريمة وبسخاء كلما واجهت صعوبة . ولكن سرعان ما تعلمت امال ايضاً وهى المجربة ان هذا الاسلوب غير مضمون النجاح دائماً ، فى جميع الاحوال ، لقد وصلت لوحات روث ولفنا زامير الى مطار القاهرة قبل ان تصلا. وشخص ما فى اسرائيل اخطأ وارسل اللوحات باسم امال شكرى . وقررت سلطات الجمرك المصرية انها سلعة مستوردة وانها تستحق رسومات جمركية كاملة . وسرعات ما اتضح انه لا يوجد فى مصر موقف معقد اكثر من هذه الامور ، خاصة عندما تتحد رعونة المدير المصرى ووجهة النظر السياسية لموظف الجمرك . كان الدكتور برومى مدير جمرك المطار على ما يبدو ليس فقط ادارياً متصلباً لا يعرف الليونة بل كان ايضاً غيرمؤيد للسلام. انه قد قال كلمته وانه ليس لديه وقت لمقابلتهن . اخذت النسوه الثلاث مقاعد صغيرة وجلسن بجوار باب مكتب المدير، لمدة سبع ساعات متصلة ـ بدون ان يتناولن كوب ماء او قهوة هذا الاعتصام لم يؤد الى تغيير موقف المدير فى اليوم التالى جلسن انتظاراً له عند مكتبه هذه المرة مكثن اربع ساعات كاملة. وخلال هذه الفترة قمن باستدعاء مستشار السفارة اسحاق نوريئيل الى المطار . وما ان سمع الدكتور برومى عن منصب مندوب السفارة الاسرائيلية بالقاهرة حتى قرر على ما يبدو انه من الافضل له الا يزيد من تعنته . وتنازل المدير والتقى مع المستشار والرسامات الثلاث. ومن غرفة الدكتور برومى اتصلى بى تليفونياً فى السفارة المستشار نوريئيل وابلغنى باللغة العربية « حتى يدرك المدير ويتأكد ان المتحدث هو بالفعل المستشار مع السفير». ان فخامة مدير الجمرك تعطف ووافق على الافراج عن اللوحات، كبادرة نادرة بشرط ان يترك المستشار خطاب ضمان رسمى بعشرة آلاف دولار فى حالة عدم عودة اللوحات الى اسرائيل بعد انتهاء المعرض . قال نوريئيل فى المحادثة « ان نية المدير طيبة.

ولكن التعليمات التى لديه لا تعطيه صلاحية الخروج عن القواعد الا اذا احضرنا له سلسلة طويلة من التوقيعات من مختلف الوزارات الحكومية » . انا عن نفسى كنت اعلم انه من اجل الحصول على هذه التوقيعات من وزارات الثقافة والخارجية والاقتصاد والادارة العامة للجمارك ، ومن اجهزة الامن وبقية الجهات المعنية ستحتاج الى عدة اسابيع ، بينما يجب افتتاح المعرض خلال ايام . ابلغت نوريئيل موافقتى على ان يوقع على الخطاب المطلوب المهم ان يتم الافراج على اللوحات فوراً وطلبت من نوريئيل طلباً آخر : ان ينقل كامل تقديرى لفخامة مدير الجمرك بمطار القاهرة الذى لولا مبادرته ما كان المعرض قد اقيم ابداً

تقبلت لفنا المشاكل الادارية والبروقراطية بالمطار كأمر طبيعى فى مصر. المحت آمال انها قد اخطأت من البداية لانها لم تعرض على مدير الجمرك مقابل مادى عن المجهود الكبير الذى طلبوه منه اما بالنسبة لروث فان هذه الواقعة بمثابة ظاهرة تتعارض بشده مع الصحراء الضخمة والتماثيل العملاقة انها تشعر بالاسى والصدمة الحقيقية .

فى ٢٠ مايو ١٩٨٢ فى الساعة السابعة مساءً وصلنا ، فى وقت مناسب حفل افتتاح المعرض . لقد علقت اللوحات بذوق رفيع فى احدى القاعات الرائعة ـ بالطابق الثانى من فندق ميريديان . ثلاثة اساليب وقفت جنباً الى جنب تشير الى مصر : لوحات الصحراء التى رسمتها روث لوحات المناظر الطبيعية المصرية التى رسمتها لفنا ولوحات امال من العالم الفرعونى الغامض .

لقد تجمع عدد كبير وحضروا الافتتاح مسئولون من وزارة الثقافة ومدير ادارة المراسم بوزارة الخارجية المصرية صديقنا رفعت يحيى وزوجته اللطيفة منى . حضر عدد من ابناء الطائفة اليهودية بمصر حيث تجمعوا فى سعادة وكأنهم فى حلم . حضر ايضاً سفراء اجانب وجهت اليهم دعوات وكذلك بعض الكتاب والصحفيين ورجال السياحة والتجار كذلك التليفزيون المصرى الذى سجل الافتتاح وأذاعة . القيت كلمة قصيرة وقصصت الشريط الذى كان موضوعاً عند نهاية السلم المؤدى الى مدخل المعرض ، حيث كان يقف الى جوارى

حسين مهران، رئيس المجلس المصرى الاعلى للثقافة ، مندوباً عن وزير الثقافة .

فى تلك اللحظات الجميلة كان هناك شعور ببدء مسيرة النشاط الثقافى المتجدد بين الشعبين بعد فترة طويلة من العداء وهذا الحدث اعاد الى ذاكرة اعضاء الطائفة اليهودية مباريات كرة القدم وكرة السلة التى اقيمت بين الاسرائيليين والمصريين فى القاهرة قبل قيام الدولة . كان هذا بالنسبة لهم بمثابة « عودة الامور الى نصابها » . اما بالنسبة لنا جميعاً، اسرائيليين ومصريين واجانب فقد انتابنا الاحساس فى هذا الحدث بأن هناك طفرة كبيرة قد حدثت بكل ما فى الكلمة من معنى .

ظل المعرض مفتوحاً حتى الثالث من يونيو . فى هذه الفترة زارة مصريون كثيرون. قال كمال حسن على بعد زيارته للمعرض « اننى سعيد بالانتاج الثقافى الخاص من اجل الصداقة والسلام » . وقال وزير الثقافة آنذاك عبد الحميد رضوان فى دفتر الزائرين « لقد سعدت سعادة بالغة بثمار الرسالة الهامة للثقافة من اجل السلام » .

لم يفكر احد آنذاك ، ان هذا المعرض سيكون اول معرض اسرائيلى مصرى مشترك فى القاهرة وسيكون الاخير ايضاً حتى يومنا هذا : ان المقاطعة التى فرضتها نقابة الرسامين المصريين على التعاون الثقافى بين مصر واسرائيل ـ على النقيض التام والصريح لما جاء فى اتفاقية السلام « البند الثالث بالملحق رقم ٣ باتفاقية السلام » ، هى التى حسمت وقتلت فى المهد هذه البراعم الاولية والجميلة للعلاقات الثقافية التى كانت ستزدهر وتعطى لاتفاقية السلام البعد العميق جداً . بعد الحوار والتعارف بين الفنانين والادباء والشعراء والرسامين والمفكرين من كلا الجانبين ، والذى كان سيصبح الضمان الجيد جداً لمستقبل مضمون السلام .

الفصل الخامس

ثلاثة اسئلة

ثلاثة اسئلة عويصة :

من يوم وصولى الى القاهرة ، طاردتنى ثلاثة اسئلة لمدة سنه :

- ماذا سيكون مصير هذا السلام مع مصر لو حدث فجأه واختفى الرئيس السادات، وترك منصبه ؟

- هل سيظل السلام قائماً حتى بعد ان نستكمل انسحابنا من سيناء ونعيد لمصر، وفقاً لاتفاقية السلام ، سيادتهاعلى سيناء ؟

- هل سيصمد هذا السلام المنفرد فى الظروف التى يصعب التكهن بها مسبقاً، فى حالة ان تضطر اسرائيل لأن تبادر بحرب ضد احدى الدول العربية الاخرى المجاورة ؟

على مر السنة الاولى لعملى فى القاهرة اعطى الواقع السياسى اجابات، الواحدة تلو الاخرى، على هذه التساؤلات المصيرية ولكن فى تلك الشهور الاولى لعملى فى القاهرة كان على ان اعود وان اضعها نصب عينى دائماً حتى احسن تقديم النصح الى وزير خارجيتنا ورئيس حكومتنا اذا حدثت ازمة فى السادس من اكتوبر ١٩٨١ ، اى بعد اكثرمن خمسة شهور من حضورى الى القاهرة وعندما كنت اجلس على بعد عشرة امتار من الرئيس السادات وقتما اغتيل على المنصه امام العرض العسكرى . جاء اول اختبار بين اسرائيل ومصر وبعد ايام قليلة جاءت اول اجابة على اول سؤال كان يقلقنى . فى اللحظات الاولى بعد الاغتيال ، حتى قبل ان اعرف ان الرئيس قد اصيب ومات متأثراً بجراحه ، واثناء ما كان المكلفان بحراستى- « م » ، « ق » يحاولات ابعادى عن المكان بدأت ترتسم امامى سلسلة كاملة من التساؤلات التى تتابعت الواحد تلو الاخر فى فكرى : « ماذا سيكون مصير السلام لو اتضح ان الرئيس قد اغتيل فعلاً ؟ » ، « لماذا اغتيل ؟ » ، هل هناك علاقة ما بين هذا الاغتيال البشع وبين حقيقة ان الرئيس السادت كان الزعيم العربى الاول الذى خرج عن التناغم العربى ووقع على اتفاقية سلام منفصل مع اسرائيل ؟ » . « من سيكون الحاكم الجديد لمصر؟» ، « هل سيظهر فرعون جديد الذى لا يعرف يوسف يتنكر لاتفاقية السلام؟ »

«هل القاتل هو شخص ام مجموعة ضباط ليس لها مؤيدون ام انها ثورة فعلية ضد النظام من جانب مسئولين كبار من داخل القوات المسلحة المصرية وخارجها ضد السادات ونظامه؟».... فى هذه اللحظات الدرامية . لم يرد على بالى انه فى هذا الوقت فعلاً كانت القيادة المصرية ذاتها فى حيرة بما فى ذلك نائب الرئيس ووزير الدفاع ورئيس الاركان والسيدة جيهان السادات تواجههم نفس هذه التساؤلات، انهم فى هذه الساعات كانوا مثلى يتحسسون طريقهم فى الظلام . واحدة من هذه الشخصيات الرئيسية قالت لى بعد مرور عدة ايام « ان البيان الرسمى حول مقتل الرئيس عطلناه سبع سنوات ونصف قبل اذاعته على الامة المصرية لانه كان علينا ان نبكر باتخاذ اجراءات امنية وان نضع قوات موالية حول مبنى الاذاعة والتليفزيون ، ومنشآت الرئاسة وهيئة الاركان والوزارات الحكومية الرئيسية . لم نكن نعرف شيئاً عن هوية القتلة وخاصة لم نكن نعرف من وراءهم وهل المقصود محاولة انقلاب ضد النظام كله ام المقصود قتل الرئيس فقط . فى الحقيقة ان الليلة التى اعقبت عملية الاغتيال ، كانت مليئة بعلامات استفهام وفى اليوم التالى بعد ان وصلت ـ ليلاً ـ بيانات التأييد لنائب الرئيس والنظام من قادة القوات المسلحة من مختلف انحاء الدولة وبعد التحقيق مع القتلة والسيطرة على الاضطرابات التلقائية فى الصعيد، آنذاك فقط كنا على ثقة بأن العملية هى مجرد اغتيال قام بها اعضاء مجموعة صغيرة وليس الا.....

وبالنسبة لمخاوفى ـ بعدما اتضح ان الاغتيال قد تم بدون الارتباط باتفاقية السلام وعندما تم الاتفاق فى محادثاتى التليفونية مع مكتب الرئيس وبطرس غالى وكمال حسن على على اشتراك رئيس الوزراء الاسرائيلى شخصياً فى جنازة الرئيس وانه سوف يلتقى ، فور تقديم واجب العزاء لزوجة الرئيس الراحل ، مع نائب الرئيس حسنى مبارك، استرحت واقتنعت بان هذه الجريمة قر مرت بدون اى مساس باتفاقية السلام وبالفعل فإن اول كلمتين صدرتا عن حسنى مبارك ومناحم بيجين عند لقائهما كانتا متشابهتين........

«سلام للابد Peace Forever ».

لقد جاءت الاجابة على السؤال الاول العويص ، وان كانت من خلال حدث مأساوى مؤلم، ولكنها جاءت صريحة لم تدع مجالاً للشك ، وقد تكررت وتأكدت فى ١٤ اكتوبر، بشكل علنى ورسمى فى اطار اول خطاب للرئيس الجديد محمد حسنى مبارك من فوق منبر مجلس الشعب بعد انتخابه رئيساً لمصر . فى هذا الخطاب ، الذى استمعت اليه مع زملائى السفراء الاخرين فى القاهرة من اماكننا فى شرفة المجلس ، عندما قال ان السلام هو قرار استراتيجى وليس خطوة تكتيكية واعلن امام العالم ان مصر سوف تحترم جميع المعاهدات والتعهدات الدولية التى وقعت عليها ، عندئذ تأكدت كم صدقت السيدة جيهان السادات عندما قالت فى لقائها مع رئيس الوزراء مناحم بيجن ـ الذى ذهب الى منزلها فور هبوطه من الطائرة للمشاركة فى جنازة زوجها وفى حضورى ـ انه يمكن ان يعتمد ويثق فى ان حسنى مبارك الذى كان نائب زوجها الراحل لمدة ست سنوات مؤيداً تماماً لقرار السلام مع اسرائيل . واضافت السيدة جيهان وببساطة « لقد اعد انور حسنى من اجل المنصب الصعب الذى سيكون عليه ان يتولاه الآن واعده لمواصلة السلام والتمسك به ، يمكنك سيدى رئيس الوزراء ان تعتمد تماماً على حسنى انه شخص ممتاز . يحب السلام ويؤمن بالسلام مع اسرائيل » لحظة ان قالت السيدة جيهان هذا الكلام فى تلك اللحظات الصعبة جداً فى حياتها شعرت نحوها بتعاطف عميق كسيدة اصيلة وشجاعة تهتم بالمصالح الحقيقية لبلادها وتعطيها افضلية عن حزنها العميق ، وقد وصف رئيس الوزراء مناحم بيجن اللقاء الذى شاركت فيه مع نائب الرئيس حسنى مبارك والقائد الاعلى للقوات المسلحة « وقد تولى منصب القائم باعمال الرئيس ـ صوفى ابو طالب رئيس مجلس الشعب » ـ بقولة : « قال كل منا للاخر ان عملية السلام سوف تستمر . وجميع اللقاءات التى تحددت فى عهد الرئيس السادات سوف تتم . كانت هذه لحظة انسانية جداً جداً ولا اخشى القول انها كانت درامية جداً عندما مد كل منا يده للاخر قال كلانا نفس الكلمات .. سلام للابد ونحن ليس الا ابناء الموت ولا نستطيع ان نضمن شيئا الى الابد كان قصدنا هو ان نصنع سلاماً يرثه الابناء والاحفاد من بعدنا . وقد نادنى بصفة « صديقى السيد بيجن » وانا قلت له « صديقى السيد مبارك » .

اما المخاوف التى نبعت من السؤال الثانى الذى طرحته على نفسى عند حضورى الى القاهرة - حول مصير السلام بعد ان نجلو عن سيناء ونعيدها لمصر - اتضح انها ايضاً غير حقيقية . بالعكس : من لحظة ان اخذ حسنى مبارك على عاتقه المسئولية واصبح رئيساً عرف ان اول واكبر اختبار له سيكون مقدار نجاحه فى ان يرسم سياسة الاستمرارية وان يتم تنفيذ الجلاء الاسرائيلى عن سيناء فى موعده وكذلك الوعد بأن تسلك مصر بعد الجلاء سياسة لا تدع أى مجال لظهور ندم اسرائيلى قد يولد رغبات اسرائيلية بالعودة السريعة الى ضفاف القناة ، بعد اغتيال السادات احتل مرة اخرى رأس جدول الاهتمامات لدى السياسة الخارجية المصرية ، مسأله الانتهاء من كافة الاستعدادات المطلوبة ، بما فى ذلك المناخ المناسب ، ليوم الانسحاب الاسرائيلى ، وقد تمادى الرئيس مبارك فى تلك الايام لدرجة انه استدعى الى القصر الجمهورى كل زعماء المعارضة فى مجلس الشعب وحصل منهم على وعد بعدم الادلاء بأى تصريحات تثير اسرائيل . واكد الرئيس ان كل من سيفعل ذلك قد يعتبر كالخائن الذى يخرب فرص مصر فى ان تستعيد سيناء من ايدى الاسرائيليين طبقاً لاتفاقية السلام . . وبالفعل لم يكن هناك امر من رجال المعارضة الصاخبة على استعداد لأن يعرض للخطر عملية قرب استعادة شبه جزيرة سيناء الى احضان الوطن، تماماً مثلما لم يكن احد من رجال المعارضة البرلمانية فى مصر ، رغم دعاواهم ضد السلام، على استعداد، حتى بعد الجلاء، لان تعود اسرائيل مرة اخر الى ضفاف قناة السويس مقابل الغاء معاهدة السلام . دخلت مصر واسرائيل ، هذه المرة بقيادة حسنى مبارك، سلسلة لانهائية لها من اجتماعات ومداولات ومشاورات واتفاقيات بين كافة المستويات المعنية من اجل استكمال الترتيبات بمناسبة الجلاء فى ٢٥ ابريل ١٩٨٥ فى هذه الفترة تم التوقيع على ما يقرب من ٥٧ اتفاقية تنظم « العلاقات الطبيعية » التى كانت ستسود بين الدولتين وبين الشعبين بعد الجلاء عن سيناء . فى تلك الايام تناثرت الوعود المصرية بسخاء. وبالفعل طوال الاسابيع السته الاولى التالية للجلاء كان يبدو ان مصر واسرائيل وصلتا الى ذروة علاقات حسن الجوار وحسن النوايا المتبادل والذى لا يؤكد فقط علاقات الثقة بين مصر

واسرائيل بل نموذج مفيد للدول والشعوب الاخرى المجاورة التى مازالت فى حالة حرب مع اسرائيل.....

مرت العلاقات الاسرائيلية - المصرية بعدة ازمات صعبة ، منها القصيرة والعنيفة ومنها الطويلة والصعبة ، واحياناً كانت ازمات شديدة الصعوبة اول هذه الازمات كانت فى عهد الرئيس السادات ، بعد قصف المفاعل النووى العراقى على ايدى الجيش الاسرائيلى ثم جاء بعد ذلك قانون ضم الجولان وقانون اخر حول ضم القدس الشرقية .

وتوالت ازمات اخرى فى عهد محمد حسنى مبارك : خلافات شديدة فى الرأى ومفاوضات طويلة ومرهقة حول مصير قطعة ارض مساحتها ١٠٢٠ متراً مربعاً - انها طابا ، ازمة ثقة من جانب اسرائيل تجاه مصر بعد الاتفاقيات التى لم تحترمها مصر وثارت القلق حول مسألة مصداقية التوقيع المصرى - والسياسة المصرية الخاطئة والتى فى اعقابها حالت الحكومة المصرية دون اى اتصالات انسانية واسعة بين الشعبين ان امتناع زعماء مصر وخاصة رئيسها من الاتصال بزعماء اسرائيل ، ورئيس وزرائها ، والصفات المشوهه، بما فى ذلك المساس الشخصى بزعماء اسرائيل على صفحات الصحف المصرية . فى العهد الذى سبق اتفاقية السلام حرصت مصر على ان « تدرس العدو » ، والآن فى عهد السلام فان مصر لم تتوقف فقط عن البحث عن طرق لبناء الثقة لذى الجار الجديد بل اتضح اكثر واكثر انها لا تسعى حتى لتدرس اسلوب تفكير هذا الجار ، ومشاعره ودوافع ردود فعله ومواقفه ، ان النظرية الخاطئة فى اساسها بأن بعض الضغوط - ضغوط مصر او الولايات المتحدة وكذلك اوربا هى التى ستغير اسرائيل - بدأت تحكم - آنذاك الاسلوب السياسى المصرى تجاه اسرائيل .اضيف الى ذلك اتهام اسرائيل بقتل كبير المخربين فى تونس - ابو جهاد - كل هذه الامور كانت علامات مميزه على طريق الازمات فى العلاقات المصرية - الاسرائيلية فى تلك الايام.

الا ان اول واخطر ازمة، عصفت بالعلاقات المصرية الاسرائيلية جاءت بعد سته

اسابيع من الجلاء عن سيناء ، حيث كانت هذه العلاقات فى ذروتها، جاءت هذه الازمة لتكون الاجابة على السؤال الثالث الذى لاحقنى عند تولى منصبى فى القاهرة ـ وهو «ماذا سيحدث لاتفاقية السلام المنفصل مع مصر وهل سيصمد اذا اضطرت اسرائيل لان تبادل بحرب مع احدى الدول العربية الاخرى المجاورة لها » . وقد برز هذا السؤال لكل خطورته عند دخول جيش الدفاع الى لبنان ، فى اطار عملية « سلامة الجليل » ـ لمقاتلة المخربين الفلسطينيين الذين حولوا هذه الدولة الى قاعدة للاعمال الارهابية ضد مستوطنات الحدود الشمالية لاسرائيل.

محفور فى ذاكرتى ذلك الاجتماع الهام الذى عقد فى العاشر من يوليو ١٩٨٢ بينى وبين نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية آنذاك ، صديقى كمال حسن على . بدأ كمال الحديث بقوله « ان الوضع صعب ـ الى ان دخلتم لبنان كانت اسرائيل قد حققت رصيداً قوياً فى مصر وكذلك فى العالم العربى ، لانكم اوفيتم بتعهدكم وخرجتم من سيناء فى الموعد المتفق عليه ، نحن المصريين ، كنا نسير فى ذلك الوقت مرفوعى الهامة وقلنا للعالم العربى : هذه هى اسرائيل التى وقعنا معها على السلام ، ان كلمتها صادقة وتوقيعها حقيقى وقد اثبتت انا تفى بكلمتها ولهذا ضعوا ايديكم فى يدها . تفاوضوا معها ، ووقعوا معها انتم ايضاً على اتفاقية سلام . وفجأة ، تهجمون وتغزون ، ان لبنان هى دولة عربيةورغم كل انتقاداتنا لها وللفلسطينيين العاملين من داخلها ، لن نستطيع ان نتجاهل حقيقة انكم هاجمتم وغزوتم دولة عربية بينما نحن وانتم فى ذروة علاقات السلام . ان حجم الخسائر فى لبنان، وعمق تغلغل قواتكم فى هذه الدولة وحجم القوات التى دخلت هناك ـ كلها فاقت اى خيال ممكن سواء عسكرياً او سياسياً . كذلك ـ اضاف كمال حسن على ـ تتقدم قواتكم بسرعة فى اتجاه بيروت . اذا دخلتم عاصمة عربية سيكون هذا من جانبكم خطأ تاريخياً خطيراً». كان صوت كمال حسن على مرتجفاً كانت عيناه الزرقاوين زائغتين. كان من الواضح لى ان الرجل فى ورطة حقيقية. كلام كمال حسن على ذكرنى بالملاحظة التى قلتها

لوزير دفاعنا اريك شارون قبل فترة وجيزة من دخولنا الى لبنان « ان اى عملية عسكرية مكثفة فى لبنان قد يكون بها انجاز تكتيكى فى الشمال ، ولكنها قد تكون ايضاً مخاطرة بمصلحة اسرائيل الاستراتيجية الحيوية فى الجنوب » . كان تقديرى آنذاك ، انه فى حالة عدم وجود خيار وتفهم للازمة الامنية التى تعانيها مستوطنات الشمال . كانت مصر ستسلم بعملية عسكرية اسرائيلية بشرط ان تكون محدودة جداً وقصيرة جداً ولكن عملية كبيرة وموسعة طويلة الوقت يمكن ان تمس فى تقديرى ذلك الرصيد الكبير جداً من حسن النوايا الذى حققناه فى مصر بعد الجلاء عن سيناء . ليس لدى شك فى انه يجب ان يدخل هذا الاسراف فى ميزاننا القومى بالنسبة لحرب « سلامة الجليل » .

عند اندلاع حرب لبنان قال لى السفير الشافعى عبد الحميد القائم على العلاقات مع اسرائيل فى وزارة الخارجية المصرية ان مصر قررت ان تؤجل لفترة زمنية قصيرة تنفيذ اربعة خمسة اجتماعات كانت ستتم فى اطار توثيق العلاقات المصرية الاسرائيلية وما ان طالت الايام وادركت اننا نواجه بالفعل قراراً شاملا بتجميد جميع الانشطة المتبادلة ، ذهبت الى مكتب الشافعى فى محاولة لكبح التدهور الواضح فى العلاقات قلت للشافعى انه باستعراض للعلاقات اتضح لى انهم « فرضوا عقوبات وجمدوا سلسلة طويلة من الانشطة... لدى قائمة باكثرمن ثلاثين بنداً تم تجميدها ، وهذا الامر جعلنى اتوصل الى نتيجة خطيرة وهى انهم فى موضوعات معينه خرقوا اتفاقية مكتوبه ، وفى موضوعات اخرى لم يفوا بالاتفاقيات الشفوية. الاكثر من هذا فإنهم حتى لا يفون بالاتفاقات الواجبة الاقدام مما ادى الى شلل تام على صعيد ما يسمى بالتطبيع » . كذلك اضفت فى حديثى الى الشافعى اننى لا اتجاهل حقيقة انهم قد اصبحوا فى وضع حساس ومحير وانه فى مواقف معينة لا يمكن استضافة اسرائيلى فى مصر. او المشاركة فى حدث معين ، ولكن من هنا وحتى النقطة التى وصلوا اليها ـ فالمسافة طويلة . قلت للشافعى اننى اريد ان يعلم ان خرق الاتفاقات يعتبر تآمراً خطير جداً فى نظرنا .

من البداية كان هدف المخربين ليس فقط ضرب مستوطناتنا بل وايضا ضرب اتفاقية السلام المصرية الاسرئيلية وعلى المصريين الا يكونوا العوبة فى ايدى هؤلاء ياللأسف على العمل الكبير الذى قمنا به جميعاً والذى يضيع الآن سدى كذلك لم اكن اريد ان ارى مصر تخرق اتفاقيات وان تضر بنفسها بمصداقيتها فى نظرها بينما اسرائيل اوفت بكل تعهداتها . و فى اجابته رفض الشافعى فى هذا الحوار تماماً تعبيرات « عقوبات » و « تجميد » وقال الشافعى بتأكيد انه لا يوجد مثل هذا القرار وكل الموجود ليس الا « تأجيل لبعض المناسبات لفترة قصيرة » كلما طالت الحرب فى لبنان اخذت الصورة تتضح اكثر واكثر فى مصر: شخصيات ذات ثقل فى رسم الفكر السياسى بمصر اصيبوا فى تلك الايام بهزة اخذت تتزايد ، نوع من « الصدمة الكهربائية » ، باللغة التى كانت محببة لدى الرئيس السادات الراحل اكثرمن مرة سألت نفسى ، ماذا كان سيفعل الرئيس السادات فى الوضع الذى سقطنا فيه جميعاً . ان القوة الشديدة التى اظهرها جيش الدفاع فى لبنان اخافت الجميع مرة واحدة انهارت عندهم القصة التى اشاعوها هم وتقول ان « حرب يوم الغفران قد اسقطت اسطورة تفوق المقاتل الاسرائيلى » لقد ظهرت اسرائيل امام عيونهم مرة اخرى كصاحبة قدرة واستعداد لاستخدام القوة الكاسحة العظيمة فى الوقت الذى يناسبها، وفى العمق الذى تقرره هى وللفترة الزمنية التى تحددها هى وقد اذهل مصر قدرة اسرائيل على تحريك الولايات المتحدة لتساند الحرب وان تؤيد اهدافها الاستراتيجية . كذلك لم يخف عن عيون المصريين قدرة اسرائيل على ان تحسن تقدير عجز الدول العربية الحليفة للاتحاد السوفيتى فى المنطقة لم تفاجئ مصر بالطبع من الصمت الذى لف العالم العربى وكانت على اقتناع بأن سوريا لن تدخل الحرب . لقد تذكر المصريون جيداً ما قاله وزير الدفاع الاسرائيلى بأنه لا يجب عليهم ان يسمحوا لمنظمة التحرير بشن اى هجمات تخريبية من قواعد موجودة على الاراضى المصرية . قال شارون آنذاك لمحدثيه فى القاهرة «سوف يدفعوكم ونحن ايضاً ضد رغبتكم وايضاً ضد رغبتنا للتورط فى حرب لو سمحتم بأى نشاط تخريبى ضدنا من حدودكم » .

ولكن كان من الواضح انه كانت لدى مصر اسباب خاصة بها ، تجعلها لا تسمح للمخربين الفلسطينيين بأن يكون لهم اى موقع فى مصر : لقد خشيت السلطات المصرية ـ وعن حق من ان يتعاون المخربون الفلسطينيون مع عناصر المعارضة المتطرفة غير البرلمانية فى مصر ضد النظام الحاكم . ان مصر لم تكن على استعداد لأن تدخل هذه المقامرة وكانت هذه الخطوة ستتناقض تماماً مع سياستها . فى هذه الايام حقاً كان فى مصر رأوا اسرائيل دولة نجحت فى « تحييدهم » عن طريق معاهدة السلام ولكن كان هناك ايضاً رجال على قدر من الاهمية وقد اعترفوا فى قرارة انفسهم ـ فى تلك الايام من صوم رمضان .

بالشكر لله الذى اتاح لهم ، بفضل اتفاقية السلام. ان يقفوا بعيداً وعدم التورط فى مغامرة عسكرية وقالوا كان الاولى بأن تقف سوريا فى مواجهة اسرائيل لانها لم توقع معها على معاهدة سلام . الدكتور مصطفى خليل ، الذى كان رئيسا لوزراء مصر ، كان ضمن الوفد الذى صاحب الرئيس السادات خلال زيارته لمصر ولعب دوراً رئيسياً فى دفع اتفاقية السلام مع اسرائيل ، قال لى فى تلك الايام : « دائماً تقولون وتؤكدون ان لديكم مشاكل امنية بينما فى الحقيقة اننا نحن الذين لدينا مشاكل امنية وليس انتم » وقالت لى شخصية مصرية اخرى فى نفس الموضوع « انتم قادرون على عودة احتلال سيناء ودخول القاهرة، وان تحتلوا دمشق او عمان او اى مكان تريدون اذا رأيتم ان هذا فيه مصلحة لكم، وهذا امر يقلقنا كذلك ، كان هناك فى القيادة المصرية فى تلك الفترة من كانوا على قناعة بأن الهدف الاسرائيلى السياسى للحرب كان فرض سلام منفرد على لبنان رغم رغبة مصر الكبيرة فى توقيع اتفاقية سلام اسرائيلية ـ عربية اخرى ، حتى تخرجها من انحرافها عن الخط ولكن كان بشرط هو الا يتم السلام مع لبنان تحت قهر سياسى او عسكرى وانما بكامل رغبتها الحرة والسيادية وبعد انسحاب اسرائيلى كامل من الاراضى اللبنانية .

على النقيض من الصحافة المصرية التى كتبت آنذاك ضدنا بشراسة ونغمة من الترفع والزهو كان يمكن ان نشعر بالاحباط لدى الكثيرين من ابناء الطبقة المثقفة، بل احياناً

بالصدمة، بسبب الضعف السياسى والعسكرى . ليس فقط فى العالم العربى وخاصة فى سوريا، بل فى مصر نفسها ، كان هناك جو من الاستسلام لحكم القدر مع هذا كان من الممكن ملاحظة الشجاعة الذكية التى ابدتها القيادة المصرية وعلى رأسها الرئيس مبارك وقرأتها هذه المرة على قراءة الخريطة العسكرية والسياسية قراءة سليمة والعمل، فوراً بشكل ناضج جداً وحذر جداً .

كذلك بذلت جهود ، خاصة لدى بعض المفكرين السياسيين ، لمحاولة النظر الى الامام، الى المدى الطويل جداً كانت النتيجه التى توصلوا اليها هى ان المصلحة القومية المصرية العليا تستوجب منهم التمسك بكل قوة وبقدر المستطاع باتفاقية السلام مع اسرائيل والضمانات الرسمية الهامة جداً الواردة بها .

لقد شقت مصر طريقها فى هذه الفترة بواقعية باردة ومحسوبة وبذل الجهود لتغيير بعض من صورتها فى العالم العربى وكذلك جهود سياسية لتحقيق اربعة اهداف : ان تحول عن طريق الحوار مع اسرائيل دون دخول القوات الاسرائيلية الى بيروت، وان تساعد على التوصل لاتفاقية لوقف اطلاق النار وثباتها و القيام بمحاولة محسوبة لانقاذ ما تبقى من منظمة التحرير مع مطالبتها بالكف عن الارهاب وان تتحول الى منظمة سياسية واقعية، واخيراً الانتظار حتى تنتهى الحرب حتى تقوم باعادة حساباتها وتقدير الوضع سواء من منظور قومى مصرى وسواء من منظور عربى اقليمى حتى يمكن الوصول الى اجابة سليمة على السؤال « وماذا بعد » ، بالنسبة لجوهر علاقاتها مع اسرائيل ، وبالنسبة للوضع الاقليمى .

فى ٣٠ يونيو ١٩٨٢ بعث وزير الخارجية الاسرائيلى السيد اسحاق شامير برسالة اخرى الى كمال حسن على وزير الخارجية المصرى متضمنة محاولة اخرى لشرح الهدف من العملية العسكرية فى لبنان ، فى ١٨ يوليو رد وزير الخارجية المصرى على قرينه الاسرائيلى برسالة تفصيلية وكانت رسالة كمال حسن على هذه بمثابة جزء من جهود مصر لوضع نهاية

فى اقرب وقت ممكن للتدخل الاسرائيلى فى لبنان . لم تتضمن اى ضغوط او تهديد ، وانما حوار. صحيح انه حوار شديد الوطأه وانطوى على خلافات قوية من خلال وجهات نظر متباينة ، ولكنها فى صورة حوار وليس الا فى هذه الرسالة اكد كمال حسن على ان قلقه الوحيد ينصب على فرص السلام فى المنطقة « ولم تكن بها كلمة قلق واحدة عن السلام بين مصر واسرائيل » ان السلام الحقيقى يقتضى احترام السيادة والسلام الاقليمى للدول وعدم التدخل فى شئونها الداخلية . قال « عليك ان تستخلص من ذلك ان جهودنا لرفع مؤشرات عملية السلام قد تلقت ضربة قوية . نحن من جانبنا استنتجنا اننا غير قادرين على قبول الغزو الاسرائيلى للبنان وحجمه على انه عملية اجهاض » وعدم وجود اى تطلعات اقليمية يستلزم انسحاب فورى وتام من لبنان وهو لم يدخر اى اوصاف لاذعة عند تناوله للعملية العسكرية فى لبنان .

فقد استخدم تعبيرات شاملة : « اهانه » . « فظ » . « غضب » . « اعمال القتل » . «خوف ورعب » .

وما ان تعمق التغلغل الاسرائيلى فى لبنان وتقدمنا صوب بيروت قال كمال حسن على لاريك رولو . مراسل الليموند الفرنسى فى الثالث من اغسطس ١٩٨٢ « اذا انقضت اسرائيل على لبنان لا اعرف كيف يمكن ان تواصل العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل» . وبالفعل ، بعد ان دخلنا الى بيروت وبعد مأساة صبرا وشاتيلا ، جاء رد الفعل المصرى فى ٢١ سبتمبر تم استدعاء السفير المصرى من اسرائيل ـ سعد مرتضى ـ وعاد الى القاهرة وتولى القائم باعمال السفارة عمله مؤقتاً . فى هذه الفترة الصعبة جداً فى العلاقات المصرية الاسرائيلية انه لم يكن فى اليد حيلة ، وهذا ما الح به كمال حسن على لمراسل الليموند.

وقد ضمنت بأن مصر قد واجهت آنذاك ثلاثة احتمالات الاول ـ قطع كامل للعلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل . وهى خطوة بالغة القوة قد تؤدى الى انهيار السلام والى كارثة

ليس فقط على الصعيد المصرى الاسرائيلى وانما ايضاً على صعيد علاقة الولايات المتحدة بمصر وما يتعلق بذلك خاصة فى المجال الاقتصادى اما الاحتمال الثانى فهو ـ استدعاء السفير المصرى من تل ابيب والاستجابة فى المقابل ، لمطالبة المعارضة المصرية بطرد السفير الاسرائيلى من القاهرة ، وهى خطوة خطيرة جداً كان يمكن ان تصاحبها آثار سيئة، مماثلة ولكن ليس على نفس شدة اثار الخطوة الاولى ، بالنسبة لمصر . الاحتمال الثالث الاكتفاء باستدعاء السفير المصرى الى القاهرة من تل ابيب مع التأكيد على انها خطوة مؤقتة وعابرة وهى خطوة اصعب ما فيها ، من وجهة النظر الاسرائيلية، انها تمثل خرقاً لبند معين فى اتفاقية السلام . وقد اختارت مصر الاكتفاء بالرد ـ الصعب فى حد ذاته ـ ولكنه الاقل تشدداً عن الخيارات الثلاثة التى بحثها الرئيس المصرى فى اطار هذه الاعتبارات فكرت مصر سواء فى رد فعل اسرائيل وسواء فى رد فعل الولايات المتحدة، الشريك الكامل فى اتفاقية السلام المصرية الاسرائيلية . وبالفعل قبل اربع ساعات من تلقينا نبأ قرار المصريين ، باستدعاء سفيرهم من تل ابيب حرص المصريون على استدعاء السفير الامريكى بالقاهرة وقالوا له « انه ليس فى نيتهم ان يتعدوا خطوة استعداد السفير من اسرائيل، وانه ليس الا مجرد اجراء واحد ان يعتبر بداية لتدهور وتقويض وتصعيد فى اتفاقية السلام او العلاقات الاسرائيلية المصرية فى نفس الوقت اهتم كمال حسن على بان يلقى على مسامعى بعض عبارات التهدئة فقد وصف هذه الخطوة المصرية بانها الحد الادنى المطلوب القيام به من جانبهم على ضوء الغضب السائد داخل «الجمهور المصرى» والعالم العربى ، واضاف كمال حسن على انهم سيبحثون اعادة السفير المصرى الى تل ابيب ما ان تنتهى المعارك فى لبنان ، وقد لاحظت فى هذه المحادثة بان كمال حسن على لم يربط اعادة السفير بانسحاب جيش الدفاع من لبنان ولا «بحل المشكلة الفلسطينية» وعلى مر السنين تحولت قضية اعادة السفير المصرى الى تل ابيب الى دافع لحل مشكلة تدخل كلها فى اطار المصالح القومية المصرية ـ بعدما وافقت اسرائيل على حل مشكلة طابا عن طريق التحكيم الدولى، عاد السفير مرة اخرى الى السفارة بتل ابيب . فى المقابل فإن التطبيع فى

العلاقات الاسرائيلية المصرية الذى كان فى ذروته فى الاسابيع السته التى بدأت مع انتهاء الجلاء عن سيناء والتى سبقت اندلاع الحرب فى لبنان لم يرجع ابداً الى نفس معدله السابق ولم يبعث ثانية لقد تلقى ضربة قوية جداً فى لبنان وارتبط منذ ذلك الوقت ليس فقط بجهود مصر لاعادة علاقاتها مع العالم العربى وانما اساساً بمقدار تقدم عملية السلام فى المنطقة واصبحا معا بمثابة « وسائل متكاملة » بالفعل .

وهكذا جاءت جميع الاجابات على الاسئلة الثلاثة التى اقلقتنى من يوم وصولى الى القاهرة.

الاجابة على السؤال الاول جاءت فى ظروف مأساوية جداً ومؤلمة ومحزنة جداً سواء لنا او لمصر وذلك فى اعقاب اغتيال الرئيس السادات .

الاجابة على السؤال الثانى ـ الخاص بمخاوفى على مصير السلام مع مصر بعد اعادة سيناء ،ولم تثبت صحة اى من المخاوف التى انتابتنى فى هذا الصدد .

فى مقابلهما اثبتت حرب لبنان ودخولنا الى عاصمة عربية بأن مصر قد اصبحت بسيناء فى وضع حائر ، تحت ضغط الظروف، وقد وقعت ضربة قوية ان لم تكن قاتلة على المضمون اليومى للسلام مع مصر .

لقد وضعت حرب لبنان وتوقف عملية السلام فى المنطقة بصمة مريرة على العلاقات مع مصر بدون ان يتعرض السلام الاساسى ـ الاستراتيجى ـ مثلما اعتدت على تسميته للخطر، وانما السلام اليومى هو الذى اضير من الوضع الجديد الذى ظهر لم يكن هو نفس التعبير الشعبى الذى اخترعه الوزير بطرس غالى ـ اى « السلام البارد » السلام لا يمكن ان يكون بارداً او ساخناً ـ اما ان يكون سلاماً اولا يكون ولكن العلاقات هى التى اصبحت باردة . واحياناً علاقات غاية فى البرودة بل متجمدة .

انه ثمن باهظ جداً السلام كان سيصبح جزءاً من حياتنا اليومية ، ويمثل نموذجاً سواء لشعوب المنطقة وسواء لشعب اسرائيل الذى اصيب فى مفهومه « للسلام الحقيقى » .

الفصل السادس

على حافة ازمة

الذراع الطولية لاسرائيل :

وصل نبأ قصف المفاعل النووى العراقى فى ٧ يونيو ١٩٨١ على ايدى سلاح الطيران الاسرائيلى . اثناء وجودى انا وبعض المدعوين المصريين والاسرائيليين فى منزل عونجي وعوزى نانتئيل المستشار التجارى الاول بسفارتنا فى القاهرة انه انسان عزيز ترك مصنعه فى اسرائيل وجاء الى القاهرة من اجل ان يؤدى دوراً هاماً ومتطوعاً كنت اجلس فى ذلك الوقت فى احدى حجرات المنزل واتحدث مع احد المعارف المصريين عندما اقترب منى فجأة ايلى لنيادو ، المسئول عن الصحافة ، واخذنى جانباً فى احد اركان الغرفة واخبرنى بانفعال شديد عن قصف المفاعل النووى وعندما سألته عن مصدر النبأ المذهل الذى قاله لى، اجاب من اذاعة اسرائيل العبرية الشبكة ب الآن سمعته باذنى طلبت من ايلى لنيادوا ان يعود فوراً الى منزله ويواصل الاستماع سواء لاذاعة اسرائيل وسواء الاذاعة المصرية. كذلك طلبت منه ان يقول اى معلومات رسمية ولا نستطيع ان نؤكد او ننفى هذا النبأ . بحثت عن زوجتى طوفا . اخبرتها بما حدث وقلت لها انه من الافضل ان نعود الى المنزل: «على ان اكون فى المكان المفروض ان يعثورا علىّ فية فوراً» .

فى طريقنا الى الخارج اخبرت مضيفنا ـ عوزى نانتئيل ـ بالنبأ وان يخبر به بعض ضيوفة المصريين وان يبلغنى فوراً بردود افعالهم وقلت « يجب ان اعرف فوراً ردود الفعل الاولية ، الطبيعية للفرد المصرى غير الرسمى » .

اعترف وبدون خجل : لحظةً ان سمعت من ايلى لنيادو ذلك النبأ الضخم احسست بان قلبى يكاد ان يتوقف عن النبض : فمن جانب امتلأ قلبى بمشاعر الفخر بسلام الطيران الاسرائيلى، فليس كل سلاح طيران قادراً على ان ينفذ بدقة كهذه مثل هذه العملية المعقدة. قلت لطوفا« ان قدرتنا على الردع فى المنطقة سوف تبلغ عنان السماء هذا المساء » . ولكن الى جانب مشاعر الرضاء والفخر ، شعرت ايضاً بخوف عميق على مصير العلاقات المصرية الاسرائيلية ، لانها من المرة الاولى منذ توقيع اتفاقية السلام مع مصر، تستخدم

اسرائيل القوة العسكرية ضد دولة عربية . صحيح انها العراق - التى كانت تبغض مصر فى تلك الايام - ولكن فى النهاية تعتبر العراق دولة عربية واصبحت مسألة المسافات المتاحة لنا للعمل فى الدول العربية فى عهد السلام مع مصر ، تواجه بكل قوتها اختباراً لاول مرة بهذه الاحاسيس، من الرضاء والخوف فى آن واحد ، سأدخل عدة تجارب مستقبلاً خلال خدمتى الطويلة فى القاهرة بعد عملياتنا ضد المخربين فى الدول العربية ، واثناء حرب لبنان وليلة دخول جيش الدفاع الى بيروت . كذلك - وعلى صعيد العلاقات الاسرائيلية - المصرية كان توقيت العملية ضد المفاعل العراقى سيئاً خاصة وانه قبل القصف بثلاثة ايام حدث لقاء بين الرئيس المصرى وبين رئيس الوزراء الاسرائيلى فى شرم الشيخ « التى هى اوفيرا، مثلما كنا نسميها قبل ان نجلو عنها للمصريين » . قلت فى نفسى - هذه العملية ستضع الرئيس السادات - بشكل شخصى - فى وضع محبط كلما اكثرت من التفكير وانا فى السيارة فى الطريق الى منزلى كلما تزايدت التساؤلات : كيف سيرد الرئيس السادات ؟ هل ستصمد اتفاقية السلام ؟ كيف سيكون رد فعل الدول العربية المختلفة تجاه مصر؟ ماذا ستقول المعارضة المصرية على مختلف اتجاهاتها ؟ فى هذه اللحظات لم يكن لدى شك فى اننا نقف على اعتاب ازمة فى علاقاتنا، وكان من الواضح لى انه يجب علينا ان نخفف عن الرئيس السادات والعمل بسرعة حتى نقلل من الاثار السلبية المنتظرة على علاقاتنا مع مصر.

عند وصولنا الى منزلنا كان ينتظرنى هناك، ضابط الامن الاول بالسفارة طلبته حتى اوصيه بأن يعلن فقط عن حالة استنفار امنية وقلت « علينا ان نعمل على افتراض بانه قد تحدث ردود فعل تلقائية من جانب عناصر معادية وعلينا ان نحافظ على انفسنا وعلى السفارة»

مرت علىّ هذه الليلة وانا استمع الى اذاعات اسرائيل ومصر وبغداد ودمشق وكذلك فى مشاورات مع كبار مساعدينى . وعند خروجهم من عندى قرابة منتصف الليل . قلت فى نفسى، قد يحسن رئيس الوزراء مناحم بيجن اذا ارسل فوراً خطاباً شخصياً خاصاً الى

الرئيس السادات. فان مثل هذا الخطاب سيتيح لرئيس الوزراء ان يشرك الرئيس المصرى فى افكاره وان يضع سابقة للاتصال الشخصى بينهما حتى فى اوقات الازمة او التوتر استطيع ان اسلم هذا الخطاب شخصياً الى الرئيس وان احاول تقديم المساهمة للتهدئة وتسوية الامر فى صباح اليوم التالى كانت الصحافة المصرية تمتلئ بتعبيرات شديدة القسوة ضدنا : « عمل عدوانى » ، « هجوم بربرى » ، « عمل ارهابى » وتعبيرات لا كابح لها، كل هذا اضافة الى خطاب احتجاج رسمى سلمته لى وزارة الخارجية المصرية حيث وصفت عملية السلاح الجوى الاسرائيلى بأنها عملية عدوانية .

فى العاشر من يونيو ، فى الحادية عشرة ظهراً ، التقيت بالرئيس السادات حسب طلبى، تم اللقاء فى قصر المعمورة بالاسكندرية ذهبت اليه لابلغه بخطاب رسمى من رئيس الوزراء مناحم بيجن .

جلسنا انا والرئيس السادات بمفردنا فى حديقة القصر الرئاسى المطل على البحر المتوسط بعيداً عن اذان اى شخص . لم يكن حولنا لا ساقى ولا سكرتير ولا مستشار سياسى ولا وزير خارجية. على بعد فقط ، عند شرفة القصر . كانت تظهر من حين لآخر السيدة جيهان السادات ، وقد سعدت بأن الحديث كان على انفراد فى جو هادئ بفضل الخضرة والماء . ان يدور فى مثل هذا الجو ، بلا اى تسجيل ، سيتيح للرئيس السادات لأن يتكلم بحرية اكثر ، وربما ان يقول ما فى داخله حقاً .

فور دخولى ، وتبادل التحية مع الرئيس السادات ، سلمته رسالة رئيس الوزراء واقترح علىّ الرئيس بأن آخذ مقعداً واجلس ، وجلس هو وبدأ فى قراءة الرسالة باهتمام شديد وبطء اراد ان يغوص فى معنى كل كلمة. ما ان انتهى من القراءة حتى طوى الرسالة واعادها الى المظروف ، ووضعه جانباً وهو غارق فى التفكير وينفث دخان غليونه كانت ثوانى طويلة، طويلة جداً من الصمت المطبق كنت اسمع صوت تلاطم الامواج وصمتُّ انا ايضاً عن عمد ولم اضف كلمة واحدة . ما كان يجب ان اضايقه فى افكاره انتظرت رده الفعلى على رسالة

رئيس الوزراء، التى كانت مصاغة بيد فنان . انها ورقة تناولت حدثاً دراميا ، واشعت وداً واحتراماً كبيراً من جانب رئيس الوزراء للرئيس السادات فى لحظات الازمة التى يمر بها . كنت على ثقة من ان السيد بيجن هو الذى صاغ بنفسه هذا الخطاب .

ما ان مرت تلك الثوانى الطويلة من الصمت المتوتر جداً ، حتى نهض الرئيس السادات من مكانه وكنوع من الاحترام نهضت انا ايضاً ـ وصدرت عن يد السادات حركة تعنى ان اظل جالساً ، قلت لن اجلس طالما انه واقف قال انه « يأمرنى » بالجلوس واضاف على الفور انه لو كنت اريد ان اعرف رأيه فى عملية اسرائيل ضد المفاعل النووى العراقى فانه يستطيع ان يلخص ذلك فى عدة نقاط ولكنه يطالبنى بالجلوس بينما يعدد هذه النقاط الواحدة تلو الاخرى كان يسير على العشب الاخضر ذهاباً واياباً ـ ولم يكن هذا بسيرشخص هادئ يتنزه على عشب رائع كان يبدو لى ـ كالاسد فى سجنه ـ من حيث خطواته العصبية كان بلا شك منفعلاً فى داخله مع هذا كان يحاول ان يظهر بوجه هادئ اراد ان يدخل فى روعى انطباعاً بانه يتكلم الىّ بحرية كبيرة وبصدق .

احياناً كان يتحدث بصوت مرتفع الى نفسه واحياناً تحول الى اسلوب شخص يتكلم بلسان موجه الى رئيس الوزراء مناحم بيجن ، وكأن السيد بيجن موجود معنا فى الحديقة: واحياناً كان يقف امامى ويتكلم وهو يحاول ان يشرح لى وجهة نظره وموقفه او مشاكله.. وان جلست امامه منتبهاً على المقعد وتابعت كل حركة وكل ايضاح وكل حركة فى وجهه وان اسجل امامى من لحظة لاخرى ملاحظات على ورقة صغيرة ، كلمة او كلمتين وكانت بالنسبة لى تعتبر هذه هى المحدثة المتوترة جداً فى تاريخ حياتى الدبلوماسية بدأ الرئيس حديثه بالقول ان المهم فى نظرى هو عملية السلام فى المنطقة وفى نظرى فان الهجوم الاسرائيلى على المفاعل العراقى قد اعاد عملية السلام التى قام بها . لقد اعادت فى العالم العربى نفس النظرة الى اسرائيل حاملة نفس الشحنة النفسية السلبية الذى كان هو السادات مترنحاً فى هدمها، والقضاء عليها قال السادات هذه العملية تصور اسرائيل مرة اخرى فى

نفس الصورة التى كانت لها فى العالم العربى، قبل عملية السلام التى قام بها . مرة اخرى تظهر اسرائيل امام العالم العربى «كقوة لا يمكن الانتصار عليها » وانها ذات اليد الطولى القادرة على الوصول الى اى مكان » مهما كان بعيداً جداً فى العالم العربى « امامنا مرة اخرى نفس اسرائيل التى تتجاهل تماماً ما يحدث او ما يفكر فيه العالم العربى » ويبدو انه قد لاحظ على وجهى بعض علامات الاستغراب، فسارع بأن يؤكد انه يعلم انه فيما يتعلق بصورة اسرائيل فى العالم العربى لم يحدث تغيير كبير وانما هى بداية اتجاه سوف يستغرق وقتاً وجهداً ولكن نتيجه عمل اسرائيل ضد المفاعل النووى العراقى لم يتهدم المفاعل فقط بل وايضاً كل ما بدأ فى بنائه بالنسبة لصورة اسرائيل الجديدة فى العالم العربى. الى هنا كان الكلام عن الضرر الذى حدث، وواصل السادات حديثة بالنسبة لسياسة مصر فقال «من فضلك اخبر السيد بيجن اننى سأظل متمسكاً بعملية السلام وسوف امسك باسنانى ما تبقى منها. واذا سألتنى لماذا اقول لك هذا ببساطة شديدة جداً لاننى مقتنع من اعماقى بأن محظور تماماً ان يمس هذا الموضوع «موضوع السلام» التاريخ لا يجب ان يعود الى الوراء » .

وهنا ، وبينما احبس بكل قوتى تنهد الارتياح الذى كان على وشك ان يخرج من حلقى اذاء كلمات الرئيس ، توقف فجأة السادات عن سيره ، وقف فى مكانه وكأنه يتكلم مباشرة الى السيد بيجن وقال الرئيس السادات : « الله يسامحك يا مناحم » ، وكرر هذه الجملة اكثر من مرة وهويهز رأسه يميناً ويساراً .

بعد توقف قصير واصل الرئيس السادات كلامه ولكنه بدا لى كمن يتكلم بعضاً الى نفسه وبعضاً الىّ « كيف يعطى مناحم للسوفييت ولسوريا ورقة على بياض ؟ » اليس بعمله هذا ساعدهم مناحم على الاقتراب من هدفهم ـ اى اعادة الامة العربية الى الحالة النفسية التى كانت سائدة قبل ذلك .

ومرة اخرى توقف الرئيس لحظة ووقف مرة اخرى امامى ، ولكنه هذه المرة توجه الىّ

كمن يريد ان يشرح لى ويقنعنى « دائماً كنت اقول لبيجن ، يا مناحم حافظ على صداقة مصر. الشعب المصرى سوف يؤيدك دائماً اذا حافظت على صداقتك معه والدليل على حقيقة كلامى هذا انه لم تسقط شعره واحدة من العلاقات بين مصر واسرائيل وذلك على الرغم من المقاطعة العربية ضد مصر . ورغم محاولتهم لتجويعنا ، ورغم قطع العلاقات معنا وغيره ، دائماً قلت لبيجن : « اذا حصلت على صداقة الشعب المصرى آنذاك بمرور الوقت سوف تحصل على تفاهم العالم العربى ، ان الشعب المصرى هو شعب اصيل وطيب وعندما يعطى صداقته لشخص ما فانه لا يتراجع عنها الا اذا حدث امر خطير » .

مرة اخرى شعور بالراحة ومرة اخرى يتوجه السادات مباشرة الى السيد مناحم

وقال « كيف يامناحم تعطى للسوفييت ولسوريا امكانية ان يقولا للامة العربية انهم هم الذين على حق بينما ريجان وبيجن والسادات هم المخطئون . انها ضربة قوية ولكن من وجهة نظرى هذا موقف مبدئى - لن اتراجع امام الاتحاد السوفيتى وسوريا » .

واصل السادات حديثه وقال : « والنقطة الاخيرة هى ملحوظة شخصية - كيف يحدث ان اكون معه فى شرم الشيخ. وبعد اقل من يومين او ثلاثة يقدم على مثل هذا العمل؟ صحيح اننى لاحظت خلال لقائنا فى شرم الشيخ . ان بيجن لم يقل شيئاً عن هذا الموضوع، وصحيح ان شعبى هنا يصدقنى وباننى لم اكن اعلم بسر هذه العملية. ولم اعرف اى شئ مسبقاً ولكن فى الخارج - العالم العربى - الامر ليس كذلك هناك من يتربص بى السوفييت والاخرون، انهم يريدون الايقاع بمصر واقناعها بقطع العلاقات مع اسرائيل والعودة الى الوراء، وهم لا ينتظرون الا فرصة كهذه حتى يحاولان تنفيذ مؤامراتهم . هذه العملية التى قامت بها اسرائيل تعد ضربة قاصمة من الصعب علىّ ان ادافع عنها او ان اجد لها مبرراً، من الناحية الشخصية. فالجميع شاهدونا معاً فى المؤتمر الصحفى فى شرم الشيخ. الجميع رأوا اننا اصدقاء قل من فضلك للسيد بيجن انه الى جانب البعد السياسى الذى شرحته لك فانه من الناحية الشخصية هذه العملية آلمتنى جداً ، ومن الجانب السياسى

ما كان على مناحم بيجن ان يضع عملية السلام فى اختبار ، ومن الناحية الشخصية، عليه ان يعلم ان كل ما فعله بى العرب لم يؤلمنى . مثل هذه الضربة. الله فقط يعلم كيف سأعبر انا وشعبى هذه الاختبار المؤلم الذى فرض علينا » .

ما ان انتهى الرئيس من هذه الجملة الاخيرة ، حتى جلس على مقعده واخذ غليونة وبدأ يحشوه بالطباق، وهو ينظر الى الغليون مرة والىّ مرة طلبت ان اضيف بعض الكلمات. نوع من الرد على كلامه والرسالة التى طلب منى ان ابلغها للسيد بيجن رئيس حكومتى .

بدأت كلامى بالقول ان الرئيس سوف يظلم موضوع السلام لو تشكك ولو للحظة صغيرة - فى الاهداف السياسية للسيد بيجن ولصداقته الشخصية بمصر بعد القصف كتب رئيس الوزراء خطابين شخصيين فقط الاول الى الرئيس ريجان والثانى اليه . ذلك نتيجه يقظته للمغزى السياسى واثاره على مشروع حياه بيجن نفسه - اى السلام مع مصر - ونظراً للصداقة الحقيقية والثقة والتقدير العميق الذى يكنه رئيس حكومتى للسادات كرئيس لمصر وكزعيم وكانسان واضفت ، ان الرئيس قد وضع اليوم عملية السلام ومصيرها فى بؤرة محادثاتنا وفى هذا الصدد ، وفى هذا الصدد وعلى ضوء رده على الرسالة اريد ان ابدى ملاحظة تعتبر رئيسية فى نظرى وهى ان العراق قد تخيلت انها تستطيع ان توجد بديلاً للحل الذى تسير فيه مصر واسرائيل : ليس حلاً سلمياً بين اسرائيل وجيرانها وانما حلم تدمير اسرائيل بالاسلحة النووية ومن وجهة نظرى عملية السلام فى المنطقة ، فان حصيلة عمليتنا الدفاعية هى القضاء على هذا البديل الخيالى . وبهذا تم تعزيز الاحتمال الوحيد المتبقى وهو طريقه وطريقنا الى السلام، ولهذا طلبت من الرئيس، ان عليه فى نظرته البعيدة الا يضع هذه العملية التى تعتبر ضرورية من ناحيتنا على انها متعارضة مع عملية السلام وانما العكس هو الصحيح، وواصلت ردى على الرئيس السادات وقلت بالنسبة للتوقيت اننى منتبة للملاحظة الشخصية التى طرحها الرئيس وانا على اقتناع ايضاً بأن السيد بيجن كان منتبهاً لذلك لحظة ان اصدر قرار العملية الا ان التوقيت لم يحدده السيد بيجن بل فرض

عليه وذلك لحقيقة ان المفاعل اوشك على ان يصبح « مفاعلاً ساخناً » قريباً جداً ولهذا اسمح لنفسى بان اقترح على الرئيس وعلينا الا نقول ان التوقيت قد اختاره رئيس الوزراء وانما من الافضل ان نكون جميعاً منتبهين لحقيقة ان الوقت قد فرضه صدام حسين واولئك الذين ساعدوه.

قاطعنى السادات « اعود واقول لك بصراحة اننى شكرت الله سبحانه وتعالى على ان مناحم لم يخبرنى فى شرم الشيخ بنيته للقيام بهذه العملية ولم اتوقع ان يخبرنى». اجبت «عندنا مقولة سيدى الرئيس تقول لا تحكم على صديقك حتى تصبح مكانه وانا لا اتمنى للشعب المصرى ولا له كرئيس لمصر ان يصبح فى الموقف الذى اصبح فيه رئيس الوزراء مناحم بيجن ولكننى مقتنع انه كرئيس دولة وكقائد اعلى للقوات المسلحة المصرية كان سيفعل بالضبط ما فعله بيجن لو علم - مثلاً - ان القذافى او اى زعيم عربى اخر على وشك الحصول على خيار نووى من خلال قرار داخلى واعلان صريح بانه سوف يستخدمه ضد مصر. لاول مرة منذ ان تجدد استقلالنا ، تواجه اسرائيل احتمال المساس بوجودها ، وان عمليتنا كانت دفاعية بحته ان رسالة الاحتجاج التى قدمت لى رسمياً فى وزارة الخارجية المصرية كانت اشد مما يجب . لقد احتججتم على العدوان بينما هى عملية دفاعية عن النفس وعن وجودنا نفس الكلام ينطبق على التعبيرات التى تستخدمها اليوم الصحافة المصرية هذه التعبيرات مشوهه وضارة وفى هذا الشأن لم افرق بين ردود فعل اجهزة الاعلام المصرية التى لنا معها اتفاقية سلام وبين اجهزة اعلام الدول العربية الاخرى التى تتعرض لاتفاقية السلام وتريد النيل منها » .

انهى السادات كلامه بالقول « علينا ان نسمح بأن يتخلص هؤلاء الناس من كبت مشاعرهم . فليكتبوا ما يشاؤون وينفسون عن المشاعر الشديدة المكبوتة . وبما ان المهم فى نظرى هو موضوع السلام ، اصدرت تعليماتى لفؤاد «اى رئيس الوزراء فؤاد محى الدين» آنذاك بالمحافظة على اطار عملية السلام . صحيح ان ما حدث قد مسنى شخصياً ولكن

يمكنك ان تقول لمناحم باننى قد قرأت باطلاع شديد كل كلمة كتبها لى فى رسالته، كما اننى امضت تماماً لكل ما اضفته قل له انه ليس بيدى ما افعله سوى الاستمرار، رغم كل ما حدث فى عملية السلام والصمود بقوة ضد الاهداف السوفيتية واهداف الاخرين وعلى رأسهم سوريا، الذين يريدون تخريب عملية السلام ان الضربة قوية ولكن علينا ان نستمر».

بعد سنوات طويلة من هذه المقابلة الدرامية دار حوار بينى وبين ارملة الرئيس السادات الراحل السيدة جيهان السادات اخبرتنى كيف ضغطت على زوجها بعدم الاستجابة لدعوة السيد بيجن للقاء فى شرم الشيخ فى موعد قريب من الانتخابات فى اسرائيل قالت لزوجها حسب شهادتها ان السيد بيجن اراد استغلال لقاء القمة لاغراض دعائية ولا يجب على السادات ان يساعده على ذلك . قالت السيدة جيهان لزوجها « اذا كنت تريد تأييد احد فى اسرائيل فاننى افضل ان تؤيد شمعون بيريز وليس بيجن » وسألتها بحب استطلاع : «وما كان رد زوجك الراحل » قالت : « لقد رد السادات بالا يجب ان اشك فيه لانه ساذج انه يعمل جيداً ان بيجن يريد لقاء شرم الشيخ حتى يساعده ذلك فى انتخاباته فى اسرائيل وهذا هو بالذات السبب الذى من اجله قرر السادات الاستجابة لدعوة بيجن » كان فى تقديره ان بيجن رئيس وزراء قوى يستطيع ان يمرر قراراته فى النظام الديمقراطى الاسرائيلى.

بعد خروجى من المحادثة مع الرئيس السادات وما ان لاحظت بنفسى الضائقة النفسية والسياسية التى وقع فيها . كان تقديرى ان الرئيس قد اقتنع بأنه لم يكن امام اسرائيل خيار الا قصف المفاعل النووى العراقى وهو سلاح يتواجد لاول مرة فى يد احدى الدول العربية ويهدد وجود اسرائيل فى حد ذاته مع هذا تولد لدى انطباع بان الرئيس السادات مازال مصراً على رأيه بأنه على السيد بيجن ان يظهر اعتباراً اكبر له وان يؤجل لقاء القمة بينهما الى فترة طويلة جداً وليس ثلاثة ايام قبل قصف المفاعل .فى تلك الايام لم يفكر احد ان بعد عشر سنوات ستشكر مصر والسعودية وسوريا الرب لان اسرائيل قد ضربت فى الوقت المناسب الخيار النووى لدى صدام حسين فى الوقت الذى انضمت فيه هذه الدول

العربية وغيرها الى تحالف بزعامة الولايات المتحدة لمحاربة صدام حسين ، لاخراجه من الكويت وتدمير جزء من آلته الحربية الضخمة ما ان رأيت فى التليفزيون الجيش المصرى يدخل مع الجيوش الاخرى لتحرير الكويت من الغزو الصدامى ، كانت افكارى تدور حول ذلك الحديث الدرامى الذى اجريته مع الرئيس الراحل انور السادات .

على منصة الاغتيال :

فى ٢٧ سبتمبر ١٩٨١ ، وقبل تسعة ايام من العرض العسكرى الضخم الذى كان سيجرى فى مصر ، مثلما يحدث كل عام منذ حرب يوم الغفران قال احد وزراء الحكومة الاسرائيلية، فى اجتماع حكومى، انه كان من الخطأ السماح لاول سفير لاسرائيل فى مصر الياهو بن اليسار حضور العرض ، رد رئيس الوزراء مناحم بيجن بان موضوع حضور السفير الثانى الاسرائيلى فى العرض العسكرى فى مصر سوف يعرض للمناقشة فى الاجتماع التالى للحكومة فى ٦ اكتوبر اى قبل يومين من العرض المنتظر ما ان علمت بهذه الامور، ارسلت برقية لوزارة الخارجية بالقدس من جزئين فى الجزء الاول شرحت باختصارلماذا يجد ان يتواجد السفير الاسرائيلى على المنصة فى الجزء الثانى من البرقية اوصيت لوزير الخارجية بامرين : الاول ان يطلب من رئيس الوزراء عدم طرح الموضوع للبحث فى اجتماع الحكومة القادم ، والثانى ان يترك القرار لى بان اذهب الى العرض او لا، فى نهاية البرقية اضفت باننى ساكون على استعداد لتحمل المسؤلية ونتائج القرار الذى سأتخذه فى رد وزير الخارجية اسحاق شامير بتوقيع مدير عام الوزارة دافيد كيمحى كان يوجد بندان قصيران : فى البند الاول قيل إنه وفقاً لطلبى فان الامر متعلق بقرارى. وفى البند الثانى كتبر دافيد كيمحى ان وزير الخارجية يود ان يشير، باسم رئيس الوزراء انه ايا كان قرارى فان الحكومة سوف تسانده .

كنت مدركاً لحقيقة ان موضوع اشتراكى فى العرض الذى يقترب قد شغل الرأى العام فى اسرائيل وقد اتضح ذلك فى اجهزتنا الاعلامية هناك من قالوا او كتبوا انه لا

مجال لحضور السفير الاسرائيلى حدث يرمز فى نظر المصريين انتصار عبور القناه فى حربهم ضد اسرائيل فى عيد الغفران. شعرت باننى ملزم بان اشرح الامر خاصة الامر التكالى الذين فقوا اعزاءهم فى حرب يوم الغفران ، وما ان عرف فى اسرائيل بأن القرار اصبح بيدى، ضمنت انه بعد اجتماع الحكومة يوم الاحد او الاثنين ، سيتصل بى الصحفيون ومندوبو اجهزة الاعلام فى اسرائيل لمعرفة رأيى. قررت ان استغل هذه الفرص كى اشرح الخطوة التى صممت على الاقدام عليها لا اقول اننى لم اكن منتبهاً للاخطار الامنية لحظة قرارى حضور العرض ولكننى لم انكر لحظة فى احتمال اغتيال الرئيس الذى كان محاطاً بالحرس وجهازه الامنى الكبير. كذلك فان المساعدين الاسرائيليين والمصريين الذين تولوا حمايتى الشخصية زادوا من حرصهم فى تلك الايام. كان المناخ فى القاهرة مشبعاً بالمخاوف الا اننى اعتمدت على المرافقين الاسرائيليين . انهم شباب ذوى يقظة وكفاءة مهنية لا مثيل لها . فى تلك الايام كنت معتاداً على التحرك بسيارتى ودخل معى المرافق وفى سيارة ثانية تسير خلفنا بعض العاملين فى السفارة . وراء هذه السيارة كانت تسير احياناً سيارة او اثنتان حاملة رجال امن مصريين ، من خيار الاشخاص الذين ينتمون الى الامن المركزى.

عشية يوم الاثنين ، اى عشية العرض العسكرى ، بدأت تصلنى مكالمات تليفونية من الصحف الاسرائيلية والاذاعة واذاعة الجيش والتليفزيون الاسرائيلى . كنت قد سبقتهم وكتبت بعض الكلمات على ورقة وشرحت لكل من طلب موقفى . قلت انه علينا ان نعيش بشجاعة، ومن خلال رؤية سليمة ونبوءة علاقات السلام وعهد التصالح مع مصر . قلت اننى اشعر بقوة بانه فى هذا الوضع سوف امثل الرغبة الحقيقية التى من اجلها سقط ابناؤنا خلال خمس حروب مع مصر ، انها الرغبة فى السلام . واضفت الى صحف المساء- يديعوت احرونوت ومعاريف بأن « حضورى هذه المناسبة يعد جزءاً من عملية السلام، والتطبيع بين الشعبين والدولتين ».« ان توجيه دعوة من وزير الدفاع المصرى الى سفير

اسرائيل لحضور العرض العسكرى يرمز فى نظرى الى انتهاء عهد الحروب بين الجيوش ورفع علمنا فى هذا العرض بالذات، يعد فى نظرى تحية لرغبة السلام والامن لدى الاعزاء الذين سقطوا من اجلهما » . من اسلوب نشر الصحفيين للكلام الذى قلته وردود الفعل التى وصلتنى من اسرائيل ادركت ان كلامى قد دخل آذاناً صاغية وفاهمة وربما ايضاً قلقه. كذلك احسست بتقدير للقرار الذى اتخذته من جانب شخصيات مسئولة فى الادارة المصرية الذين تابعوا الجدل العام الدائر فى اسرائيل حول هذا الموضوع .

صباح يوم العرض يوم الثلاثاء اتخذ قرار آخر لم يعلم به احد « وفقاً للاجراءات المصرية. فى اى مناسبة شارك فيها رئيس الدولة يجب على السفراء الاجانب المدعوين لهذه المناسبة ان يكونوا فى مقاعدهم قبل ساعة من مجئ الرئيس خلال هذه الساعة تغلق كل الطرق ولا دخول ولا خروج ورغم هذه التوجيهات الصريحة ، التى تكتب فى بطاقة الدعوة قررت تجاهلها والا اكون بين اول من يصلون الى منصة العرض قلت « لميم » مساعدى والمشرف على جدول لقاءاتى « ان علم اسرائيل الذى يرفرف على سيارتى، سيكون آخر الاعلام الاجنبية التى ستصل الى المكان قلت له من الوجب ان اتواجد هناك ولكن ليس هناك معنى للحماس. على ان اتصرف برصانة احتراماً لشهدائنا قلت «اريد ان اصل الى المنصة قبل عشرين دقيقة من البدء فى العرض » .

واوشك العرض على البدء فى مدينة نصر، وهو حى سكنى يزداد اتساعاً فى شرق القاهرة على مقربة من مطار القاهرة. بالقرب من هذا الحى، فى شارع الاستعراض، توجد منصة شرف لاستعراض القوات والطقوس الرسمية ، امامها شارع عريض جداً يستخدم مساراً للعروض العسكرية . على الجانب الاخر من الشارع، وامام «منصة العرض» يوجد نصب الجندى المجهول المصرى وهو مقام على شكل اضلاع هرمية وعلى اضلاعه من القاعدة الى القمة الاسماء المشهورة لدى المصريين « محمد، محمود، مصطفى،.....» وعلى الارضية اسفل قمة الهرم . حجر من الرخام الاسود يرمز لقبر الجندى المجهول .

وبمناسبة هذه الطقوس الكبيرة تغلق المنطقة بقوات عسكرية. والحرس الجمهورى وحرس الرئاسة وكذلك وحدات تامين تضم رجالاً مختارين من الامن المركزى، بعضهم بالملابس المدنية وبعضهم بالزى الرسمى ، ودخول هذه المنطقة يكون خاضعاً لاجراءات، وكذلك عند كل نقاط التفتيش المؤدية اليها توقفت سيارتى عند الحاجز. قدم القائد المصرى التحية ونظر الى العلامة الملصقة على زجاج سيارتى ، ودعانى الى مواصلة طريقى الى المدينة اما بقية السيارات التى فى قافلتى - والتى لاتحمل امراً بالدخول - لن تواصل مصاحبتى». رد - ميم - على الضابط المشرف على النقطة بانه اذا كان الامر متعلقاً بالسيارة المصرية التى فى الركب فان على الضابط المصرى ان يقرر ما يريده ، اما بالنسبة للسيارة الثانية التى بها الحراسة الاسرائيلية فاذا مُنعت من مصاحبتنا فان السفير للاسف لن يستطيع الذهاب الى العرض وسيعود الى منزله . وقدم الضابط المصرى التحية مرة اخرى وسمح للسيارتين الاسرائيليتين بالمضى . وانضم رجلا الحراسة المصريان محمود وعبد اللطيف الى السيارة الاسرائيلية .

قام رونى - سائقى - بقيادة السيارة الى منصة العرض بيد مدربة بطول هذه المنصة المكونة من مقاعد متدرجة ، يوجد منبر بنى اللون وخلف هذا المنبر ساحة واسعة وخلفها حجرة كبيرة تستخدم كقاعة انتظار لكبار الضيوف ، ومنها يمكن الوصول الى المقاعد فى المنصة الرئيسية على جانبى المنصة الرئيسية يوجد درج يؤدى من الطريق وحتى طرفى المنصة وصل رونى حتى درج الجانب الايمن من المنصة المخصص للزوار الاجانب صعدنا الدرج ولاحظت ان المنصة مليئة بالضيوف الجالسين فى اماكنهم ووجدت صعوبة فى العثور على مقاعد خالية. على طرف الدرج وقف ضابط مسئول تقريباً عن الامن. سأل «ميم» ما اذا كان معه سلاح وما ان اجابة بالايجاب حتى قال الضابط انه للاسف الشديد يستطيع السفير فقط ان يدخل ويحتل على المنصة وطلب ميم ان يتحدث الى المسئول الرئيسى عن امن المنصة وجاء ضابط من حرس الرئاسة برتبة لواء واكد على موقف الضابط الصغير

واشار الى بقية السفراء وقال انهم لم يدخلوا الى المنصة مع مرافقين ولا حتى السفير الامريكى رد «ميم» بانه طبقاً للتعليمات التى لديه ، ولا يمكن تغييرها ، لن يستطيع السفير حضور هذا العرض اذا لم يسمح له هو وزميله المسلح دخول المنصة. دار الحديث فى هدوء ويأدب ولكن بتشدد. وساد الصمت لمدة ثانية نظر اللواء اليّ ولم اعلق .

ادى التحية وسمح لجميع المرافقين لى ميم وقاف ومحمود وعبد اللطيف بالدخول مسلحين استقبلنى السفير يحيى رفعت رئيس المراسم بوزارة الخارجية المصرية قائلاً «مرحباً بك يا موشى. لا توجد اماكن معينة ويمكنك ان تختار اى مكان نرغب فيه يؤسفنى انه لم تتبق اماكن كثيرة » فى هذه النقطة واجهت مشكلة : المنصة كلها مليئة بالناس حتى آخرها ، ويجب ان اختار مكاناً تكون خلفه على الاقل عدة مقاعد خالية من اجل المرافقين لى من المصريين والاسرائيليين ، وبدأت اهبط الدرج وانا استعرض كل صف فى الصف الاول من اعلى رأيت روى اترتون ، صديقى السفير الامريكى . ابتسم الى ولوح بيده علامة السلام . وهذا ما فعله ايضاً بعض السفراء الاخرين الذين التقت نظراتى بهم واصلت النزول حتى وجدت نفسى بالقرب من الصف الثالث من اسفل .

الاماكن الخالية فيه كثيرة وفى وسطة يجلس صديقى السفير السويدى . بجانبه وخلفه كانت مقاعد خالية استقبلنى بسعادة لقد وجد من يتبادل معه الحديث . جلس ميم خلفى مباشرة . نظرت الى ساعتى كانت ١٠ر٤٠ اى قبل عشرين دقيقة بالضبط من الموعد الذى سيبدأ فيه العرض، امامى فى الصف الاول لم يكن به احد، الصف الذى جلسنا فيه كان قريباً جداً من الطريق الذى سيمر به العرض على يسارى ، على بعد عشرات الامتار فقط من وسط المنصة . كان يوجد المقعد الذى سيجلس عليه رئيس الدولة بعد قليل . وعلى جانبيه مقاعد للجهاز الرئاسى وكبار قادة الجيش .

لقد قررت ان اصل قبل بداية العرض بعشرين دقيقة ، عن عمد ، والمنصة قد اصبحت شبه ممتلئه وضرورة البحث عن اماكن للمرافقين اليّ وهم الين قرروا بالفعل ان اجلس قريباً

جداً من الرئيس، وقريباً جداً من الطريق ما ان جلست فى مكانى حتى اعتقدت فى داخلى اننى محظور، حيث وقعت فى مكان قريب جداً لا يضايقنى فيه الجمهور الذى يفصل بينى وبين العرض، بعض الوزراء الذين جلسوا على المنصة الرئيسية اشاروا اليّ برؤسهم كنوع من التحية . ما ان علمت فى اليوم التالى ان ثمانية عشر شخصاً من الجالسين فى جناح السفراء والمدعوين قد اصيبوا وقتل اثنان منهم حتى تأملت يد القدر ويد الاعتبارات المتلفة تماماً التى لعبت دوراً فى موضوع الاغتيال والقتل. لقد تحدد مصيرى فى ذلك اليوم مرتين: المرة الثانية ساحكى عنها فيما يلى.

تأخر وصول الرئيس بعض الوقت . جاء مع نائبه حسنى مبارك ووزير الدفاع عبد الحليم ابو غزالة آنذاك جلس الرئيس على مقعده ، وعلى يمينه نائب الرئيس حسنى مبارك، ومندوب جيش عمان، المقدم خلفان بن ناصر وممثلو السودان والصومال ورئيس الوزراء السابق ممدوح سالم ومستشار الرئيس، وعبد القادر حاتم وكان هو ايضاً رئيس سابق للوزراء ورئيس مجلس الشعب د. صوفى ابو طالب على يسار الرئيس جلس وزير الدفاع عبد الحليم ابو غزالة ، ثم صهر الرئيس سيد مرعى ومستشاره الكبير، ثم المفتى الشيخ عبد الرحمن بيصار، ثم بعده رئيس مجلس الشورى ، صبحى عبد الحكيم ، ثم رئيس هيئة الاركان عبد رب النبى حافظ ثم قادة الاسلحة نهض الرئيس حيث حيى جمهور المدعوين الذين صفقوا له . بعد ذلك نزل مع حسنى مبارك وابو غزالة ، عبر الدرج الى الطريق، وسار الثلاثة بخطوة عسكرية تجاه قبر الجندى المجهول لوضع اكليل من الزهور .

عادوا الى اماكنهم وجلسوا على صوت عزف الموسيقات العسكرية وهتاف الجماهير الواقفة على اقدامها وهى تصفق . كان الرئيس السادات يبدو فى احسن حالاته. يرتدى ملابس فخمة جداً حيكت بالذات من اجل هذه المناسبة ، يرتدى حذاء جديداً برقبة . استطعت ان المح تعابير وجهه كان يبدو سعيداً. تبادل بعض الكلمات مع مبارك ومع ابو غزالة وكذلك مع سكرتيره الذى كان يجلس خلفه مباشرة فى الساعة الثانية عشرة تماماً

صدر الامر ببدء العرض ، فى تلك الاثناء امتلأ الصف الاول الذى امامى بنساء واطفال مصريين. اعتقدت انهم من عائلات شخصيات هامة سواء من المدنيين او العسكريين ، عند طرف كل صف كان يقف رجال الامن . الرجل الذى كان مخصصاً لصفنا اختفى فجأة ، مع بداية العرض وعاد بعد عدة دقائق حاملاً فنجان شاى ساخناً ، وقدمه لى قائلاً «اهلاً وسهلاً يا سيادة السفير » .

كان العرض فخماً مرت طوابير وطوابير من المعدات والاسلحة، جو من المعركة تدريبات هجوم كانت مصحوبة بضجيج الطلقات والانفجارات وحلقت الطائرات بتتابع على ارتفاع منخفض نزل رجال مظلات امام مقعد الرئيس مباشرة ومظلات تحمل صوراً كبيرة للسادات تعلقت على عمود كهرباء سألة السفير السويدى اذا كنت على استعداد لان اترجم له بعضاًمن هذه الشعارات الكثيرة المعلقة امامنا، على لوحات ضخمة جداً ، على طول طريق العرض كان هذا امراً هاماً بالنسبة له. كان ينوى كتابة هذا فى المذكرة التى سيرسلها الى وزارة خارجيته .

مرت امامنا طائرات ميراج فوقنا تماماً ونظرت امامى وترجمت لزميلى السويدى هذه الشعارات كتب السفير على ظهر برنامج العرض ما اقوله له . رفع الجميع رؤوسهم ونظروا الى العرض الجوى اثنان فقط والوحيدان تقريباً ، كانا يجلسان كل الى جوار الاخر الاول رأسه مكفى على برنامج العرض يسجل الترجمة والثانى ينظر امامه الى الشعارات التى يترجمها .

عندما نظرت الى الامام لاحظت ان ناقلة ثقيلة تجر مدفعاً ذا ماسورة طويلة فى الطابور الذى يمر امام منصه العرض ، وقد توقفت فجأه قلت لنفسى « عطل آخر» وواصلت الترجمة. فى بداية العرض حدث عطل لاحد الموتوسيكلات الذى توقف محركه امام المنصة بالضبط حاول راكبه المسكين ان يحركه ولكن بلا جدوى. بدأ يدفعه حتى لا يعطل الطابور، فجأة سقط والموتوسيكل فوقه، رفعوه بسرعة وبعد ذلك بفترة حدث عطب فى سيارة مدرعة.

توقفت هى ايضاً، ولكن السائق تغلب بسرعة على العطل وتحركت السيارة الى الامام . وتذكر العرض الذى لم يتحرك فى السنوات الاولى لدولتنا . لقد توقفت الناقلة التى تجر المدفع ولم تتحرك خرج منها قائدها، بلا غطاء رأس حاملاً سلاحه سمعت طلقات رصاص لم اعتقد انها طلقات حقيقية قلت فى نفسى « دفعه اخرى من الطلقات الصوتية » لم يحاول قائد الناقلة ان يصلح العطل بدلاً من هذا انطلق فى اتجاهنا حدث شئ ما فوق الناقلة ذاتها، نزل منها ثلاثة افراد وانطلقوا فى اتجاهنا واستمرت هذه الالعاب النارية . وقلت فى نفسى ما هذا التدريب الغريب الذى يحدث امامنا . ومع ذلك واصلت الترجمة للسفير السويدى الذى كان يكتب بالضبط وبخطة جميلة ومنمقة وقبل ان ادرك ان ما يحدث هنا هو شئ من نوع خاص غير مسجل فى برنامج العرض و شعرت بذراع ميم الجالس خلفى صاح « موشى انها طلقات حقيقية - ارقد فوراً على الارض » وحتى يضمن اننى سأفعل جذبنى بشده وهو يمسك بكتفى ف اتجاه الارضية . لا اعلم ما اذا كنت قد رقدت بنفسى ام من قوة الدفعة التى دفعنى بها ميم .

خلال ثانية كنت ارقد تحت اقدام مقعدى . استطاع ميم ان يصل الى صفى وبدأ يزحف فى اتجاهى ويصعد فوقى وبحرص ولكن بسرعة مذهلة . اراد ان يحمينى بجسده. وقتها فقط عرفت ما الذى رأته عيوننا بينما انا راقد وميم فوقى، واصلنا النظر الى ما يحدث . سمعنا انفجارين مدويين وارتفع دخان ابيض كثيف من نقطة معينة على الطريق القريب جداً من مركز المنصة واستمرت الطلقات الاولى التى اعتقدت انها العاب نارية، انطلقت من الناقلة نفسها : وقف عليها جندى من طاقم الافراد واطلق دفعة نيران الواحدة تلو الاخرى.

والان اصبحوا اربعة، لدى كل واحد منهم سلاح اتوماتيكى يبصق نيراناً . واحد منهم اقترب من طرف المنصة من جهة اليسار واطلق النار بلا توقف فى اتجاه الصف الاول والثانى وقف عند الطرف اليمينى من المنصة الرئيسية واطلق النار هو الاخر. الاثنان

الاخران ظلا يركضان ويطلقان النار وصل واحد منهما الى منتصف المنصة رفع سلاحه واطلقه فوق المكان الذى جلس فيه السادات الذى لم يعد ظاهراً على مقعده الذى كان فيه منذ ثوان. بعد حوالى ٣٠ ـ ٤٠ ثانية انتهى ركض الاربعة قال لى ميم انهم لا يقصدوننا ومرت ثوان اخر قال ميم شيئاً ما فى جهازه اللاسلكى نظرت بسرعة الى المنصة ـ لم يكن احد فى مكانه .

المقاعدة مقلوبة ، اناس راقدة على الارضية . والاخرون يجرون من نافذه كابينة التليفزيون الموجودة بين منصة الرئيس وبين الطريق وقف مصورون يصورون ما يحدث السفير السويدى الذى رقد وانتظر مثلى سألنى عما يدور بدأ ميم يزحف فى الاتجاه العكسى حتى ينزل من فوقى . رأيت « ق » وترددت على مسامعى كلمات ميم « الموضوع انتهى » كيف انتهى ؟ كيف انتهى ؟!

قال لى ميم « علينا ان نخرج من هنا بأسرع ما يمكن » واشار الى الركن الايسر الاعلى لمنصه العرض ، الى المكان الاعلى الذى وصلنا اليه عندما وصلنا عبر الدرج المؤدى الى الطريق الرئيسى وبيننا وبين هذه النقطة يرقد عدد من الافراد بينهم جرحى ينزفون دماً قال ميم «هيا نتقدم الى الامام ونشق طريقنا بينهم بحذر شديد وبأسرع ما يمكن» واندفعنا الى داخل خليط البشر والدماء والاجساد . والى اليوم لا اعرف كيف فعلنا هذا ولكن بعد ثوان معدودة كنا فى اعلى . هناك وقف ق وقال « هذا جيد ، هيا الى الامام » لاحظت انه فى خلف المنصة يوجد درج يتيح الهبوط الى الجانب الخلفى، لاحظت هليكوبتر طوارئ تقف وبجوارها شخص يرقد على الارض بلا حراك ـ يبدو انه جريح او قتيل ـ بجوارى وقفوا ق وميم ومحمود وعبد اللطيف لم يأت . اشار ميم الى الطرف الايمن للساحة، البعيد عنا وقال لى انه يجب ان تصل سياراتنا من هناك فى اى لحظة « ستكون انوار السيارات مضاءة حتى نستطيع تمييزها فوراً. علينا الوصول اليها ولكن يجب ان نسير هنا ببطء » امام هذا الهرج ، كان الوضع هنا اخطر من الجانب الذى خلصنا انفسنا منه. الآن بدأنا نسير ببطء

مررنا وسط جنود مدججين ببنادق لتأمين المنطقة المحيطة ، لم يمنعونا من مواصلة السير والمرور امام هليكوبتر الرئيس التى كانت خالية وفجأة ، كالعصا السحرية ظهرتا سياراتانا الواحدة تلو الاخر ى، وهما تضيئان انوارهما رونى يقود سيارتى وج السيارة الاخرى وراءه فى طريقنا الى السيارة اخبرنى ميم بانه من المحتمل ان يكون ق قد اصيب كان هناك نزيف من الاصبع ومن الجبهه ايضاً لم يكن نزيفاً وانما مجرد خدش بسيط اقترحت ان نتوقف قبل دخول السيارات لنفحص انفسنا ربما اصيب احد منا بدون ان يشعر بعد ان تأكدنا ان كل شئ على ما يرام دخلنا الى السيارات ، جلس محمود فى المقعد الامامى بجوار ميم ورونى.

ولحق « ق » بسيارة السائق الثانى قبل دخولنا الى السيارة نزع ميم العلم وطلب منى ان ارقد على المقعد الخلفى .

قبل ان نتحرك من اماكننا لاحظنا ان طائرة الانقاذ قد اقلعت وصلنا الى احد المخارج كان مغلقاً ولم يسمح لنا قائده بالمرور . استدار رونى حسب توجيهات محمود اتجه الى المخرج الجنوبى اخذ محمود مسدسه من حزامه واوشك على الخروج من السيارة نصحه ميم بالا يظهر سلاحه وطلب منه الاقتراب من الحراسة بجوار الحاجز وان يشرح لهم بلطف ان هذا سفير اسرائيل تردد محمود وظل ميم يقنعه : ان الرقم الدبلوماسى للسيارة يكفى لاثبات وجود السفير بها . خرج محمود وبعد ثوان قليلة عاد وتم رفع الحاجز وعبرنا .

قلت لسائقى « كل احترامى لك يارونى » لأنه كان مخلصاً ، بارد الاعصاب وهادئاً، امسك عجلة القيادة بثقة وسار وسط الجمهور الواقع فى حالة من الهرج وبين البنادق المشهرة شكراً ياميم ليس لك مثيل « قلتها لمرافقى الذى تصرف بحكمة والذى استطاع ان يفرق بسرعة بين الرصاص الحقيقى وبين الالعاب النارية مما انقذنا وقلت لمحمود وانا اتحول من وضع الراقد الى وضع الجلوس .. « شكراً يا محمود ـ احسنت » .

سألت محمود مرافقى من الامن المصرى « هل تعرف طبيباً او عيادة قريبة ؟ » اننى

قلق على حالة ق والامر الملح الآن هو العثور على طبيب هنا فى مدينة نصر . وفوجئت بمحمود يقول ، قريب من هنا ، على بعد خمس دقائق ، حيث ان عمه طبيب قلت له اذن لنذهب الى هناك فوراً ، وطلبت منه توجيه رونى .

فى تلك الثوانى اراد ميم الاتصال بالسفارة. كلنا نعلم اننا على مسافة بعيدة جداً من السفارة ومن دائرة الالتقاءمع هذا قرر ميم ان يحاول وكم كانت الدهشة : لقد فوجئنا جميعاً بانه نداءه قد اجيب « وقد اتضح فيما بعد ان موظف السفارة الذى كان يجلس فى مكتبه ويشاهد العرض العسكرى بدأ يقلق عندما انقطع فجأة الارسال الحى من العرض وبدلاً من ذلك بدأوا يذيعون الاغنيات العادية ولما خاف من حدوث شئ فى العرض اخذ جهاز اتصاله وصعد الى سطح مبنى السفارة الذى يبلغ ١٨ طابقاً وفتح الجهاز . فى تلك الثوانى بالذات التقط نداء ميم » كان البلاغ قصيراً وموجزاً و موضوعياً : اطلقت رصاصات على الرئيس السفير على ما يرام تماماً لقد خلصنا انفسنا بسرعة يمكن ان تبلغ الوطن ان السفير قد رحل بسلام واننا فى طريقنا وسوف نتصل . وحسب طلبى امتنع ميم عن ذكر جرح ق لا يجب خلق مخاوف فى الوطن كما ان الجرح كما يبدو سطحياً جداً . بعد احدى عشرة دقيقة من انقضاض المتآمرين على الرئيس ، كانت مكاتب مدير عام ورئيس القسم بوزارة الخارجية بالقدس على علم بخروجنا بسلام .

واصل محمود توجيه رونى الى منزل عمه ، وانا ، لاول مرة منذ اصوات الانفجار والرصاص امام المنصة نظرت الى نفسى داخلياً : من الغريب اننى لم اشعر لثانية واحدة بمشاعر خوف او ضعف لم يرد ببالى لحظة انه من المحتمل الا نخرج من هناك سالمين. كانت كل افكارى تتركز على تفسير هذا الحدث ماذا حدث للرئيس ؟ هل خرج سالماً، وماذا احدث لنائبه حسنى مبارك وبقية الذين يتولون السلطة فى مصر ، اليسوا جميعاً كانوا يجلسون على يمين ويسار الرئيس فى الصف الاول ؟ وماذا سيحدث للسلام مع مصر، واين هم رجال سفارتى ، واسرهم ، واولادهم ؟ اليس لدينا فى القاهرة اكثر من ثلاثين طفلاً

يدرسون فى المدارس ؟ مذا يحدث الآن لزوجتى طوقا وابنتى اورنا وحفيدى الصغير طال؟ ماذا كان هدف المتآمرين؟ هل القضاء على الرئيس ؟ تحريك ثوره ضد النظام كله ؟ ما هى هويتهم وما هى اهدافهم ؟ كان على ان اعمل بسرعة حتى احمى اولاً كل افراد موظفى السفارة وعائلاتهم ، وعلى ان اتصل فوراً بطوقا . هل اذعنت لى طوقا وابنتى اورنا التى استضفناها مع اول حفيد لنا طال ، ولم يخرجوا فى ذلك الصباح الى شوارع القاهرة؟

توقف رونى امام منزل لطيف من طابقين نزل محمود وميم من السيارة دخل محمود الى المنزل وظل ميم متأهباً بجوار باب السيارة ونفس الشئ فعله ق حيث توقفت سيارته بالقرب منا عاد محمود ودعانا للدخول .

وطلب من رونى ومن سائق السيارة الاخرى ادخال السيارتين الى الفناء الداخلى. خلف المبنى ليس مطلوباً ان يلحظ احد وجودنا عن طريق السيارات التى تحمل ارقاماً دبلوماسية.

انفتحت ابواب المنزل عن آخرها وقوبلنا بحرارة اعرب الطبيب عن دهشته لأن الاذاعة توقفت عن اذاعة العرض وانتقلت الى اذاعة موسيقى . قال « هذا يعنى ان شيئاً ما قد حدث. ربما شئ فى الارسال او ربما شئ آخر » باختصار حكى محمود لعمه بأنها على ما يبدو محاولة لاغتيال الرئيس ونظر الى قائلاً « نورت البيت يا سيادة السفير»، فاجبته: «منور باصحابه» وطلبت من الطبيب ان يفحص ق قال الطبيب انه حقاً ليس طبيباً متخصصاً ولكن يمكن الاعتماد عليه فى تقديم الاسعافات الاولية وانه سيفحص « ق » فوراً، ولكن قبل ذلك يريد ان يسأل : « هل لسعادة السفير مطلب ايا كان ؟ » قلت بنوع من الدعابة المصطنعة حتى احافظ على الجو المخفف « ليس واحداً بل ثلاثة » فقال « امرك يا سيدى » قلت ثلاثة طلبات صغيرة يا سعادة الدكتور تليفون حتى اتصل بالسفارة وبمنزلى. وجهاز راديو ترانزستور حتى اتابع واعرف ما يدور حولنا وكوب من القهوة حتى اتيح لك القيام بواجب الضيافة...» .

اخذ الطبيب « ق » وبعد دقائق معدودة جاءت زوجة الطبيب وقالت « التليفون هنا وهنا

الراديو ولكن القهوة كيف يحبها السيد السفير ، هل مضبوطة ام بدون سكر ؟ وكان محمود يجيئنى بين الحين والحين وقد اتصل بقيادته كى يبلغه بخروجنا بسلام ومن القيادة صدرت تعليمات تطلب من السفير الا يغادر مكان وجوده حتى تأتى القوة المدرعة التى ستؤمن وصوله الى منزله « انه طلب قاطع سيدى السفير » قالها لى محمود بادب مصرى الذى لا يسمح له بان يقول كلمة تعليمات حتى ولو فى هذه الظروف .

فى البداية تحدثت مع طوقا ومع اورنا : كانت لحظة تفجرت فيها السعادة الممزوجة بنوع من التوتر لماذا لم احضر فوراً وما الذى يعطلنى وهل اقول الحقيقة عندما قلت لهما اننى خرجت بسلام وما مكان المدرعة هذه ، وما معنى اننى فى مكان بعيد عن منصة العرض واننى سأحضر بعد قليل ؟ ليس لدى شك فى انهما تشكان فى اننى قد اصبت واننى اخدعهما قمت بتهدئتهما بقدر الامكان وطلبت انهاء المحادثة حتى استطيع الاتصال بالسفارة، طلبت منهما عدم مغادرة المنزل .

اتصلت بالسفارة التى ردت فوراً « وكانت اجهزة الاتصال تعمل فى هذا اليوم بصورة مذهلة» حديث قصير مع موظف السفارة وبعض الرموز التى تشمل توجيهات بالنسبة لتأمين رجالنا بعد ان سألت عن نوبتجى السفارة ، وطلبت تحويلة الىّ بعد ان ينتهى ميم من حديثه معه. كان على الخط المستشار لشئون الصحافة ايلى لنيادو حاول ايلى ان يقنعنى بانه يجب ان اتصل فوراً بالبلاد ، خاصة الى الاذاعة الى الشبكة ب او اذاعة الجيش . ارادوا ان يسمعوا صوتى لأن الشبكة الثانية بالتليفزيون الفرنسى اذاعت منذ دقائق ان الرئيس السادات وانا مصابان اوضحت لايلى اننى لا استطيع الاتصال بالبلاد من التليفون الذى اتحدث منه لأنه غير متصل بالسنترال الدولى وسألته : « ما هى المعلومات التى لديك اننى منصت الى الراديو وحقيقة انه حتى هذه اللحظة لم نسمع صوت الرئيس تقلقنى » رد ايلى نعم هذه الموسيقات من الاذاعة مثيرة للاعصاب» فقلت له « لا يا ايلى، انها لا تثير اعصابى انها تثير القلق».

وقلت له « كنت اريد الحضور الى السفارة الا ان رجال الامن المصريين مصرون على ان التعليمات التى لديهم هى ان اذهب الى المنزل ، ربما انه « تحديد اقامة » ـ ما رأيك يا ايلى» كان سؤالى يحمل نوعاً من الدعابة والجدية « اتصل من فضلك بالزملاء ووزعوا العمل بينكم ، ولا تتحرك من السفارة ، واى معلومات تبدو لك انها هامة اتصل بى هنا ».

طال الوقت استمرت اذاعتا القاهرة وصوت العرب فى اذاعة الموسيقات العسكرية. واذاعة اسرائيل لم تأت بجديد، ونفس الشئ بالنسبة لاذاعة لندن ولم انجح فى التقاط مونت كارلو لم اتذكر تردد اذاعة ليبيا واذاعة دمشق كانت تذيع موسيقات عسكرية فى القاهرة اغنيات عادية فقط ولكن ليس صوت الرئيس ماذا حدث لنائب الرئيس ـ لماذا لم يتكلم؟ الم نره وهو يخرج من منطقة العرض ومر من امامنا بسرعة عندما عبرنا الحاجز .

عاد رب المنزل و« ق » الى الحجرة قال الطبيب «اطمئن سيدى السفير، مجرد خدشين صغيرين ـ ان هذا الشاب محفوظ ».

تكلم ايلى. تقرير عن الوضع فى المدينة كل شئ هادئ وعادى حركة ونشاط متزايد لرجال الجيش والامن المركزى لا اخبار فعلية. راديو مونت كارلو اذاع الان فقط نبأ قصيراً باسم السفير الامريكى اثرتون الذى قال ان الرئيس السادات سليم اتصلت باثرتون واندهش للنبأ الذى نسب اليه فى مونت كارلو واضاف انه تحدث فعلاً منذ قليل مع ابو غزالة، وقال ان الرئيس بخير، سألته ـ لماذا اذن لا يتحدث الرئيس فى الاذاعة لو كان بخير؟

اصبحت الساعة بعد الثانية والنصف عاد ايلى لنيادو واتصل بى قائلاً « يجب ان تجد طريقة حتى يسمع صوتك فى اذاعتنا .

لم يعد احد يصدقنى. هل من الممكن ان يتصلوا بك فى المكان الذى تتواجد به ؟ «قلت، لا بأى حال من الاحوال . واستوعب ايلى على الفور الدوافع التى تقف وراء هذا الرد واقتنع كان عليه ان يمتص كل الاسئلة وان يرد باقناع باننا بخير .

خلال ذلك كانت ربة المنزل تهبط الينا بين الحين والحين من الطابق الثانى اعدت شيئاً خفيفاً للطعام وطلبت منا الجلوس الى مائدة الطعام بالطابق الثانى . وقد اعتذرت فى شكل رقيق جداً بعد عشر دقائق كررت نفس الطلب . وخشيت ان اضايق هذه السيدة المهذبة والشجاعة، حيث خاطرت هى وزوجها باستقبال سفير اسرائيل بدون ان يعرفا ما هو مصير النظام الحاكم الان فى الدولة. رفضت مرة اخرى دعوة الطعام مع تفسير متداخل وطويل لم يكن مفهوماً لانسان ليس فى مقدوره ان يشعر بترتيب افضلياتى بدلاً من هذا تعجلت محمود وقلت له انى افكر فى الخروج من هنا خلال ربع الساعة . اذا لم تصل المدرعة مع قوة التأمين ارتجف محمود عند سماعه كلامى ، وانزوى فى الركن حيث استخدم جهاز اتصاله وجاءت ربة المنزل مرة اخرى وقالت اذا لم نأكل اى شئ معها ومع زوجها، فلن يأكلا هما ايضاً. فى ذلك الوقت ظهر من الطابق الاعلى شخص لم اكن قد رأيته وقدم نفسه انه ستكلم الانجليزية بلهجه امريكية طليقة. وهو مثل صاحب المنزل، طبيب متخصص فى علاج الادمان.. انه يهودى امريكى كان فى مؤتمر طبى فى اسرائيل وفى طريق عودته الى بلاده. الولايات المتحدة ـ نزل ضيفاً على صديقة وزميلة ـ عم محمود ـ مرافق الامن المصرى.. قلت فى نفسى كم غريباً هذا العالم والعلاج الطبى الذى حصل عليه مساعدى من طبيب علاج الادمان نزل فى نظرى الى اسفل الدرج ، وعاد القلق من جديد على « ق » .

صعدنا الى اعلى حيث كانت المائدة ممتدة وعليها اشهى الطعام فى تلك اللحظة بالضبط سمعنا اصوات سيارات من الخارج وقدم لى محمود قائد قوة التأمين برتبة عقيد قال لى بعد المصافحة « لدى تعليمات بأن اذهب بسيارته الى المنزل » .

فاجبته اننى اقدر جداً لو فعلنا ذلك فوراً ولكن اخبرنى من فضلك كيف حال الرئيس؟

قال « الحمد لله اطمئن سيدى السفير، لقد تلقينا انباء بأن كل شئ على ما يرام».

قلت له «إننى قلق لاننا لم نسمع صوته فى الراديو هل تسمح من فضلك ان تتصل بقيادتك مرة اخرى وتخبرهم بأن السفير الاسرائيلى يريد ان يستفسر عن حالة الرئيس؟»

ادار العقيد الجهاز الذى بيده ، وجاء الصوت من الناحية الاخرى « اطمئنوا ـ طمئن سيادة السفير » .

ودعنا صاحب المنزل وزوجته والضيف الامريكى وخرجنا الى الممر المؤدى الى الشارع بجوار الرصيف وقفتا سيارتان مدرعتان كبيرتان تابعتان للامن المركزى وبدون كلام توجهت الى سيارتى حيث كان رونى يجلس على عجلة القيادة . ودخل سائق سيارتنا الثانية الى سيارته قال العقيد « سيدى مدعوللدخول الى المدرعة الثانية . تلك هى التعليمات التى لدى » كان ميم يقف الى جوارى وتساءلت « هل ذلك فى صالحنا ام غير ذلك ؟» واقترحت نركب جميعاً ما عدا السائقين ، ودخلنا باسلحتنا الى المدرعة وهز ميم رأسه هو ومحمود وق وانا دخلنا الواحد تلو الاخر الى المصفحة الثانية كان بها عدد من رجال الامن المركزى المسلحون جميعاً باسلحة اتوماتيكية . وتحركت المصفحة الاولى وهى تفسح الطريق ونحن خلفها كنا انا وميم وق ننظر الى رجال الامن المركزى حولنا، نظرت الى محمود، وكان يبدو هادئاً ومستريحاً قلت لقائد القوة « لى طلب » ـ قال « اؤمر يا سيدى » ـ « سنذهب اولا الى المستشفى العسكرى بالمعادى » وظهرت الدهشة على وجه الضابط ي كنت اريد ان يقوم طبيب آخر بفحص احد رجالى الذى اصيب فى العرض » فقال « على الرحب والسعة ولكن يجب الحصول على موافقة القيادة » مرة اخرى قام العقيد باستخدام جهاز الاتصال الخاص بالمصفحة وجاء الصوت اللاسلكى من الجانب الاخر واضحاً جداً ولكن مهذب ـ الرفض التام» لم اكن اعرف بالطبع انه فى ذلك القوت مسجى جثمان الرئيس ، وفى حجرات اخرى يبذل الاطباء جهوداً الانقاذ ثلاثة من المعتدين كانو قد اصيبوا اثناء انسحابهم وتم القبض عليهم وارسالهم الى المستشفى » ولكن بالنسبة لى كان يهمنى ان اواصل، عن طريق العقيد الحوار مع القيادة كان على ان اتأكد من اننى بين الايدى الصحيحة. ان تلميح او طريقة حديث العقيد او من يتحدث اليه على الجانب الاخر قد يوضحان نحن بين ايدى من. بعد مداولة قصيرة اقترحت القيادة « حلا وسطا » : فى البداية

يذهبون الى منزلى وبعد ذلك تأخذ المصفحة طريقها الى المستشفى حاملة «ق» هناك سيكون فى انتظاره طبيب سيعالجه فوراً. قلت « ارغب بشده فى ان يصاحبه احد افرادى الى المستشفى وان تعيده هذه المصفحة الى منزلى بعد العلاج » بعد حديث قصير بين العقيد والقيادة، رد على : امرك يا سيدى، كله جاهز » .

نظرت عبر نافذه المصفحة كنا فى شارع صلاح سالم ، وهو الشارع الرئيسى المؤدى الى المطار لم يكن هناك شئ خاص اتجهنا يساراً الى المعادى ، حيث نقيم مرت عشرون دقيقة ثم اصبحنا امام باب منزلنا البوابتان المصنوعتان من الحديد والمؤديتان الى حديقة المنزل مغلقتان كالعادة وصدر صوت مكبر الصوت الذى بالمصفحة الاولى يقول «افتحوا الباب» ولكن الابواب لم تفتح ان مساعدينى الموجودين فى ساحة المنزل وقد ازداد عددهم بوجود المحامى يوسى براك من تل ابيب ، لم يسارعوا بفتح الابواب فهم لا يعرفون هوية المصفحتين فى الوضع الحالى ، ولا احد يعلم ماذا حدث على منصة العرض ، فان ظهور مصفحتين امام باب منزلنا - منزل سفير اسرائيل - يمكن ان يبشر بما هو غير متوقع ، شئ لا يبشر بالخير ، وتكرر الصوت الجهورى عبر مكبر الصوت الذى يطالب بفتح الابواب، وصوت مصفحة يزمجر عند الباب بدأ احد رجال السفارة يفتح ببطء احد جانبى البوابة وينظر الى الخارج ومن داخل المصفحة لاحظت طوقا واورنا التى تحتضن طال بين ذراعيها وهى شبة متجمدتين فى الشرفه وبعد ذلك بفترة قالت لى طوقا انهما كانتا على اقتناع بأن «الثوريين» يقتحمون منزلنا، واضافت اورنا انها كانت تنوى ان تهرب بطال الى الشارع والبحث عن مكان للاختباء فيه ولكن فى هذه الثانية بالذات رأتنى انزل من المصفحة واصيح فيهم « كل شئ على مايرام ... اننا هنا » لأول مرة منذ هذا الصباح اشعر بالتوتر. حدثت هذه الثوانى التى مرت علىّ قبل النزول من المصفحة بعدما رأيت الخوف وهو يمسك بوجهي طوقا واورنا ، الوحيد الذى كان هادئاً بيننا هو طال الصغير .

طلبت من احد الافراد الذين كانوا فى المنزل مصاحبة « ق » الى مستشفى المعادى

واخذت المصفحاتان طريقهما ثم عادتا بعد فترة قصيرة ومعهما « ق » كل شئ كان على ما يرام . خدوش بسيطة لطلقة مرقت بالقرب من جبهته كانت يد « ق » ايضاً على جبهته مما خدش احد اصابعه.

قالت لى اورنا « انهم لا يكفون عن الاتصال من اسرائيل يا ابى. وهذه قائمة باسماء من اتصلوا » سألتها « بماذا اجبت عليهم ؟» قالت : « قلت انك بخير وفى الطريق الى المنزل ولكن البعض لم يصدقنى » - زكى الخادم الاول كان ينتظرنى مع فنجان من القهوه التركى. قال لى : (حمد لله على السلامة يا سيادة السفير) .

اول شئ اتصلت بموظف السفارة . قال لى بعد ان تبادلنا بعض الكلمات الرمزية « الجميع بخير جميع موظفى السفارة وعائلاتهم » بعد ذلك اتصلت فوراً بامى فى اسرائيل قلت فى نفسى ان التليفونات تعمل بما فى ذلك الخط الى اسرائيل ثم بعد ذلك اتصلت بوزارة الخارجية فى القدس. وسعد دافيد كمحى عند سماعه لصوتى وقال « كنا قلقين عليك» والاتصال التالى كان مع اذاعة اسرائيل واذاعة الجيش ويطلبون ان يسمعوا منى ما رأيته فى المنصة وحكيت لهم باختصار عن اربعة معتدين كانوا فى سيارة لورى تجر مدفعاً. صحيفة معاريف التى صدرت غداة يوم الاغتيال قالت ان سفير اسرائيل ذهب بعد الاغتيال لتناول وجبه الغداء عند بعض المعارف .... كان ايلى لنيادو المجتهد على الخط « كل شئ على ما يرام فى السفارة لا تفاصيل جديدة كلها شائعات لا نستخلص منها اى شئ بعض الاذاعات تقول ان الرئيس السادات قد نجا باعجوبة واصيب اصابات طفيفة » .

تحدثت فى التليفون لبعض الزملاء السفراء وبين مكالمة واخرى، مكالمات من اسرائيل: ابناء الاسرة والاصدقاء والزملاء الذين سمعوا صوتى فى الراديو حيث سارعوا لتهنئتى . كانت اذنى على السماعة واخرى تستمع الى الاذاعة المصرية .

فى الخامسة الا الربع اتصل ايلى لنيادوا من السفارة « وصلت برقية من رئيس الوزراء مناحم بيجن حيث طلب منا ان ننقلها على وجه السرعة الى الرئيس السادات. وقد

نقلتها فوراً بالتليفون الى الرئاسة »

سألت ايلى » كم استغرق رئيس الوزراء فى كتابة البرقية ومتى ابلغتها الى الرئاسة؟»
لقد صيغت البرقية فى الخامسة واربعين دقيقة اى منذ خمس دقائق »

وحسب طلبى تلى علىّ ايلى لنيادو معنى البرقية التى بعثها رئيس الوزراء الى الرئيس السادات« صديقى العزيز....علمت بصدمة عميقة بمحاولة اجرامية لاغتيالك ان اخباراً وصلتنا انك قد اصبت اصابات طفيفة وسرعان ما ستشفى ان صلاتنا العميقة تدعو الى ان نستطيع مواصلة عملية السلام وابلغ تعزيتى لاسرة سكرتيرك واتمنى سرعة الشفاء لنائب الرئيس ووزير الدفاع وكل من اصيبوا . زوجتى تشاركنى مشاعر التضامن مع السيدة جيهان السادات والانباء فى هذه الفترة العصبية التى تمر بكم سنكون فى غاية الامتنان لو استطعنا ان نعرف، من حين لاخر تقدم الشفاء والصحة... المخلص مناحم بيجن » .

وواصل ايلى حديثه : « بعد ان امليت على العميد الجندى نص البرقية قال لى ان سكرتير الرئيس حى ولم يحدث شئ لنائب الرئيس او لوزير الدفاع وقلت للجندى من جانبى اننى اريد ان اضم تمنيات الشفاء السريع للرئيس باسمك وباسم جميع العاملين بالسفارة الاسرائيلية بالقاهرة »

كان غريباً ان ضابط الرئاسة لم يقل كلمة عن الرئيس السادات مع هذا تلقى برقية رئيس الوزراء يبدو ان التعليمات التى لديه فى هذا الوقت الا يتطرق ابداً لموضوع الرئيس الراديو مفتوح والقاهرة لا تزال تذيع الاغنيات كان مهماً ان اعرف حالة وزير الدفاع ابو غزالة الذى يسيطر على القوات المسلحة كان كلام العميد عنه وعن نائب الرئيس، حسنى مبارك باعثاً على الهدوء ، ولكن علىّ ان اتأكد من هذا اتصلت بمكتب وزير الدفاع لم يكن بالمكتب، الا ان سكرتيره الذى اعرفه جيداً ، قال لى انه رغم الجرح البسيط جداً فى يده إلا ان الوزير يعمل كالمعتاد ويسيطر تماماً على القوات المسلحة .

فى الساعة السابعة وخمسين دقيقة اى بعد سبع ساعات وعشر دقائق من الاحداث

الدرامية فى المنصة ظهر نائب الرئيس حسنى مبارك من خلال رسالة بالاذاعة والتليفزيون ليعلن وفاة الرئيس السادات لم يكن مبارك فى حالة طيبة مازال واقعاً تحت وطأه الصدمة والاحداث كان صوته هادئاً ومع هذا كان ملحوظاً فيه الالم العميق والحزن، كان من الواضح ان الحمل الذى القى عليه فجأه قد فعل ما بدا له وحقيقة انه وجد الكلمة من مبنى الاذاعة والتليفزيون ربما تدل على ان وسائل السلطة فى يديه .

واصبحت امامى ليلة طويلة وتم عقد اجتماع لكبار موظفى السفارة عندى فى المنزل قمنا بتوزيع العمل يجب اجراء اتصالات تليفونية مع زملاء واصدقاء مصريين ومسئولين كلما امكن العثور عليهم ان نضع رقابة على الترتيبات الامنية. الاستماع الى كافة المحطات والاذاعات فى العالم العربى من اجل معرفة ردود الفعل الاولية متى ستتم جنازة الرئيس ؟ ما هو الوضع القانونى الآن ؟ صوفى ابو طالب، رئيس مجلس الامة، القائم باعمال الرئيس، هو صديق ومؤيد كبير للسلام. نائب الرئيس اخذ كل صلاحيات السيطرة على القوات المسلحة . انه يستكمل الطريق حيث انه من اول بيان له جاء بكلمات تهدئة ووعد بشأن استكمال المسيره .

فى اليوم التالى، عشية عيد الغفران قبل الصلاة قال احد زملاء العمل : لو عدت بتفكيرك ، الم يكن من الافضل عدم حضور العرض يا موشى ، مثلما نصحك المعارضون فى اسرائيل» قلت له بالعبرية « اعوذ بالله .. وماذا كانوا سيقولون عن اسرائيل لولا وجودى هناك؟! اجاب « صحيح ، ولكن المخاطرة التى دخلتها كانت كبيرة جداً »

فى الساعة التاسعة ليلاً ، بعد ساعة وعشر دقائق من كلمة مبارك فى اجهزة الاعلام حيث اعلن وفاة السادات، قام رئيس الوزراء مناحم بيجن بصياغة برقيته الثانية لمصر. وقد عنونها باسم السيدة جيهان السادات ـ جاء فيها :

(بشديد الأسى، علينا ان نسلم بان الآمال التى تمنيناها على مر الايام . لم تتحقق فالرئيس زوجك العظيم قد فقد حياته بيد الاغتيال الغادر. لقد فقدت اليوم شريكاً فى عملية

السلام النبيلة وصديقاً شخصياً اننى انحنى امام احزانك يا سيدتى، الذى لا يستطيع الانسان ان يعبر عنه بالكلمات تشاركنى عاليزا فى عميق عزائنا لك وللابناء ولكل افراد الاسرة الحزينة . اعانك الله فى شدتك ... مناحم بيجن) .

وهذا هو حصاد الدم :

خمسة قتلى من بينهم الاسقف صموئيل ، رئيس اللجنة القبطية والسكرتير الاول والفريق حسن علام والمهندس سمير حلمى المثمن واجنبيان .

وثلاثة وثمانون جريحاً من بينهم : سفير بلجيكا الذى اصيب اصابات شديدة وسفير كوبا ، والسكرتير الاول بسفارة استراليا وشخص اخر من اصل صينى، ورئيس الاركان المصرى « اصابات خفيفة » والفريق عبد المنعم واصل واللواء نزيه محمد على من الحرس الجمهورى اما القتله الاربعة فهم :

قائد العملية الملازم اول خالد الاسلامبولى ضابط بالجيش المصرى، والذى شارك لثالث مرة فى استعراض السادس من اكتوبر .

القناص حسين عباس ، الذى كان بطل الرماية فى مصرفى عام ١٩٧٥ هو الذى وجه سلاحه من فوق اللورى ، فاصاب الرئيس وقتله بأول طلقاته .

عطا طايل الذى القى بالقنبلة الاولى التى انفجرت بعيداً عن المنصة وخالد عبد الحميد الذى افرغ خزانة مدفعه مثل بقية زملائه الى الاتجاه الذى كان فيه الرئيس راقدا على الارض غارقاً فى دمائه .

كلهم اعضاء خلية سرية اسلامية متطرفة غير ممثلة فى البرلمان .

لقد اغتيل الرئيس السادات بايدى مجموعة متآمرين مصريين مسلمين من السنة المتعصبين لانه رفض ان تكون الشريعة هى اساس القانون فى الدولة رغم ان زعماء الجهاد قد رفضوا اتفاقية السلام مع اسرائيل وسوف يلغونها لو وصلوا الى الحكم ذات يوم، الا

ان توقيع السلام لم يكن مرتبطاً ارتباطاً عضوياً بقرار قتله، صحيح انه خلال التحقيق معهم اضاف المتآمرون خلال اقوالهم كلاماً ضد اليهود واسرائيل وكلاماً عن انضمام السادات لليهود والامريكيين والوعود التى تتعارض مع الدين والتى تستوجب محاربتهم ولكنهم فعلوا ذلك بعد وقوع الحدث وبدون ارتباط بالخطوة التى اقدموا عليها . اما تلميحات بعض المصريين واقوال اخرين « مثل نائب رئيس الولايات المتحدة السابق » مؤخراً بان السادات قتل لانه وقع على اتفاقية سلام مع اسرائيل ليس فقط لا اساس له من الصحة، بل انهم يشوهون الحقيقة ويضربون رغبة الزعماء العرب والمسلمين والمسيحيين الذين يتطلعون ويفكرون فى امكانية انهاء النزاع العربى الاسرائيلى بطرق سلمية .

هذا ما جاء فى ميثاق الجهاد حسبما صاغه زعيمهم :

« بدأ الجهاء كنضال عسكرى ضد الحاكم المتسلط بحيث يكون الهدف الاول هو مواجهة العدو الداخلى بينما سيأتى الدور على الاعداء الخارجين بعد ذلك » .

« على ضوء هذا اقول : ان ميدان معركة الجهاد هو حقاً تحرير القدس لانها ارض مقدسة والحقيقة هى ان تحرير الارض المقدسة هو امر الهى ملزم لكل مسلم ولكن :

اولاً : تسبق الحرب ضد العدو القريب عن العدو البعيد.

ثانياً : متى سالت دماء المسلمين وتم الانتصار على العدو الخارجى ، فان السؤال هنا هو هل هذا النصر لصالح الدولة الاسلامية ام سيكون لصالح الحاكم الكافر الموجود ؟ « من الاشياء المشهورة نذكر رفض الاسلاميين المتطرفين ، فى عهد عبد الناصر ، المشاركة فى حروبه ضد اسرائيل حتى مقابل الافراج عنهم من سجونهم ».

ثالثاً : ان السبب الاساسى لوجود الاستعمار فى الدولة الاسلامية هو وجود هؤلاء الحكام الكفرة والبدء « عملياً » فى ازاحة الاستعمار « كأفضلية اولى » يعتبر عملاً غير مفيد وليس به الا مضيعة للوقت ، ولهذا علينا ان نركز جهودنا على مشكلتنا الاسلامية التى هى

ان نطبق اولا وقبل اى شئ حكم الله فى بلادنا وان تعلو كلمة الله فوق الجميع » .

اثناء المحاكمة التى اجريت للقتله ولرجال الجهاد، طرحت المحكمة سؤالاً حول الموقف الذى ستتخذه « الجماعة » فى حالة قيام القوات اليهودية « بغزو مصر اجاب شكرى مصطفى من زعماء المتآمرين على هذا السؤال كالاتى : « اذا جاء يهود او اجانب اخرون فان الحركة لن تنضم آنذاك الى صفوف الجيش المصرى لمحاربتهم سيتعين على الحركة الانسحاب الى مكان آمن ان القيام بأى عمل ، باستثناء قتل الحاكم الطاغية «الكافر» يعتبر تهريجاً فى افضل الحالات وفى اسوأ الحالات يكون تغيير نظام الحكم وليس الا... ان اقامة الدولة الاسلامية هى تحقيق لامر الله ونحن غير مطالبين بأن نتعامل مع النتائج مع سقوط الحكم الكافر سيصبح كل شئ فى ايدى المسلمين بما فى ذلك الخروج الى الجهاد ضد اليهود او الاجانب الاخرين».

للأسف الشديد فان القتل كأسلوب لتحقيق اهداف دينية سياسية وغيرها امر مقبول فى العالم العربى والاسلامى وهو ليس ظاهرة جديدة . من الامور الشهيرة ان اللفظ الاجنبى نفسه « اساسين » الذى يعنى القتل نجد ان مصدره الكلمة العربية « حشاشين» التى ترجع الى الاسلام فى العصور الوسطى ، وبالنسبة لعهدنا وجيلنا نجد ان جميع عمليات الاغتيال التى تمت فى الدول العربية لم تتم بأى صلة لمواقف هؤلاء الزعماء تجاه الاسرائيليين. هناك محاولة الاغتيال الفاشلة التى قام بها الاخوان المسلمون ضد الرئيس جمال عبد الناصر «فى ٢٦ / ١٠ / ١٩٥٤» ، واغتيال النقراشى باشا رئيس وزراء مصر فى عام ١٩٤٨ أيضاً على ايدى مسلمين متطرفين، واغتيال حكام سوريا حسنى الزعيم ١٩٤٩واديب الشيشكلى «بعد نفيه» والمحاولة الفاشلة لاغتيال الرئيس السورى الاسد «٢٦/٨/١٩٨٠» ، واغتيال الاسرة الملكية فى العراق « ١٩٥٨ » بما فى ذلك رئيس الوزراء نورى السعيد، ووصول الحاكم العراقى صدام حسين الى الحكم بعد مسلسل من الاغتيالات، وكافة أنواع الاغتيالات التى مارسها حاكم ليبيا القذافى، وقتل الملك عبد الله، جد الملك حسين ملك

الاردن على ايدى رجال مفتى القدس الحاج امين الحسينى، خصمه السياسى القديم، حدث ايضاً بدون اى ارتباط لحقيقة ان الملك عبد الله كان يجرى فى ذلك الوقت مفاوضات سياسية مع اسرائيل .

اشاد ابراهيم شكرى زعيم المعارضة فى مجلس الشعب بالسادات ونعت قاتليه بانهم «عملاء مأجورون وخونة » وقال : « لم تكن بيننا خلافات حول الاهداف التى رسمها السادات ربما حدثت خلافات على اساليب التوصل اليها .

اما خالد محى الدين، من قدامى الضباط الاحرار، الذى بدأ طريقه مع جمال عبد الناصر والسادات بثورة الضباط ١٩٥٢ واصبح احد زعماء المعارضة فقد ادان هو ايضاً وباشمئزاز ذلك الصنف ضد السادات .

وكتب مصطفى امين من كبار المفكرين المصريين : « لقد اختلفت مع السادات عشرات المرات وكان ذلك من خلال حبى له ولبلادى. غضب منى وغضبت منه كان شديداً فى غضبه سمحاً فى تصالحه ، كان طيب القلب ولهذا صوبوا الرصاص على هذا القلب »

وكتب رئيس تحرير اخبار اليوم ابراهيم سعده غداة الاغتيال : « انهم ليسوا منا ونحن لسنا منهم، مصريتهم ليست مصريتنا وجنسيتهم ليست جنسيتنا »

مؤخراً جداً زعم بعض المصريين ، من بالتلميح ومن صراحة وبما فى ذلك طبعاً القتلة والمتآمرون فى محاكمتهم بأن الرئيس السادات قد اغتيل لانه وقع على اتفاقية سلام مع اسرائيل وهذا الكلام ليس له محل فى الواقع السياسى المصرى هذا الزعم غير الحقيقى صدر ـ بعد الاغتيال ـ خاصة فى ثلاثة اماكن غير مصر : بعض الدول العربية وعلى رأسها ليبيا والولايات المتحدة واسرائيل .

عيد الغفران فى القاهرة :

سبعة اعياد للغفران قضيتهم فى القاهرة الاولى فى الثامن من اكتوبر ١٩٨١ وكان فى ظروف خاصة جداً ـ وهو الذى املى المكان والاسلوب اللذين تحولا بعد ذلك الى تقليد طوال فترة خدمتى الطويلة فى مصر وكعادتى كنت انوى الصلاة مع ابناء الطائفة اليهودية الصغيرة فى القاهرة فى المعبد الكبير الذى تم ترميمه ، « شعرى شماميم » بشارع عدلى بوسط القاهرة قبلها قمت انا وزوجتى طوقا باستئجار غرفة فى فندق قريب من المعبد، على بعد كيلو مترين تقريباً قبل يومين من العيد، فى السادس من اكتوبر اغتيل الرئيس انور السادات غداة الاغتيال صباح الاربعاء قبل ساعات معدودة من موعد الصلاة تلقيت رسالة عاجلة من المسئول المصرى عن امن السفارات الاجنبية بالقاهرة. قيل لى انه من حقى ان اتعرف كما اريد ، ولكن لاسباب امنية فانهم يوصون بعدم المبيت فى فندق واضافوا اذا فعلت ذلك فانهم سيحترمون رغبتى بالطبع الا انه فى هذه الحالة يجب عليهم ان يضعوا على الاقل كتيبتين لحمايتى الشخصية سواء داخل الفندق نفسه او خارجه وكذلك وقت ذهابى من الفندق الى المعبد والعودة او ان اتنازل عن الصلاة . واضافوا مؤكدين ـ ان القرار فى النهاية يعود الىّ وانهم سيحترمونه ، مع هذا سيكونون فى غاية الامتنان، لو وضعت توصيتهم فى الحسبان .وطلبوا ان انقل هذه التوصية لكافة اعضاء طاقم السفارة الذين يفكرون فى المبيت فى الفنادق المحيطة بمعبد « شعرى شماميم »

فى تلك الفترة كان عضو الكنيست يهودا بن مائير يعمل نائباً لوزير الخارجية انه عضو فى البرلمان ورجل لطيف . كان فى نظرى ، رجل محل ثقة واطلاع فى مثل هذه الموضوعات وشخصية قريبة من واضعى سياستنا الخارجية ولديه القدرة عل حسن تقدير اهمية اشتراك سفير اسرائيل فى الصلاة مع ابناء الطائفة المحلية اتصلت به تليفونياً واوضحت له بالرمز ، الذى استوعبه فوراً الموقف قلت له : « بما ان الامر يتعلق بحياه البشر فاننى اطلب من الحاخام الاكبر ان يسمح لنا بان ننتقل الى المعبد بسياراتنا » وفهم يهودا

مغزى طلبى ولكنه اندهش. اوضحت، بدون ان اخوض فى التفاصيل، اننى اريد رداً خلال ساعة كنت اعلم اننى اطلب المستحيل لانه ليس من السهل العثور على مكان الحاخام العثور على مكان الحاخام الاكبر عشية عيد الغفران والاكثر صعوبة الحصول على فتوى واذن كهذا خلال ساعة ولكننى اردت ان ادمج امن رجال السفارة بواجبنا الاخلاقى والرسمى بان نحتفل بالعيد مع البقية الباقية من ابناء الطائفة اليهودية بمصر.

ما ان وضعت سماعة التليفون حتى ادركت اننى لن اتلقى اى اجابة واستدعيت على الفور مستشارى المخلصين تسيفى مزال الذى عمل لفترة سفيراً لاسرائيل فى رومانيا وتسيفى جباى وعمل لفترة مديراً لقسم مصر بوزارة الخارجية كنت اعلم انه على بعد حوالى ٢٠٠ ـ ٣٠٠ متر من منزلى فى حى المعادى مازال قائماً معبد جميل كان يخدم فى حينه ابناء الطائفة اليهودية الذين كانو يعيشون منذ عهد قديم فى هذه المنطقة الراقية كانت ابواب هذا المعبد مغلقة منذ خمسة وعشرين عاماً منذ ذلك الحين لم يفتح الا مرة واحدة : عندما قام المستشار تسيفى مزال باجراء الختان لابنه يوسى كذلك علمت ان منير يوسف سلامة وزوجته بيكى يقيمان فى فناء المعبد وقد اخذا على عاتقهما رسالة وهى المحافظة على المعبد ونظافته وكان « ميتر جوزيف » فى شبابه من كبار المحامين فى مصر وبعد ان طعن فى السن واصبح على المعاش كانت امنيته ان يقوم بصيانة المعبد المغلق وانتظار اليوم الذى يعود فيه ويفتح ابوابه امام المصلين.. كان المحامى العجوز فى الثانية والثمانين عندما ذهب اليه تسيفى مزال وتسيفى جباى وطلبا منه باسمى ان كان من الممكن ان يفتح لنا المعبد كى نصلى فيه صلاة « النذور » وصلاة الغفران. وعندما عادا اخبرانى بانه سعيد وانغمس المسئول الادارى عن السفارة آنذاك افرايم مازور وكل مساعديه فى الاعداد للصلاة قبل ساعات معدودة من حلولها . ابلغت كافة اعضاء السفارة الذين يقيمون فى غالبيته فى حى المعادى بمكان صلاتنا وطلبت من احد الزملاء الاتصال باليهود العاملين بالسفارة الامريكية او ضمن الوفد الامريكى الخاص بالتعاون الدولى والذين يقيمون فى المعادى انه

فى مقدورهم مشاركتنا الصلاة . وما ان سمع ضابط الامن لدينا بهذا القرار وابلغه للمسئول المصرى عن شئون امن السفارات الاجنبية فى القاهرة حتى تنهد فى ارتياح... وقررت ان اقوم بنفسى بقيادة مراسم الصلاة وخاصة تلاوة بعض الآيات التى حفظتها فى صباى من جدى، الدكتور دافيد ساسون الذين اعتاد على تأدية الصلاة فى معبد صغير خاص باليهود السوريين فى منطقة محنية يهودا .

لبست ملابس بيضاء ، وقامت زوجتى طوفا بارشاد نساء السفارة الى طرق وتقاليد الملابس. ومع ابنتنا اورنا والحفيد طال ذهبنا الى المعبد كان ممتلئاً ومضيئاً ونظيفاً وكأن الايام الخوالى قد عادت اليه عند المدخل وقف المحامى يوسف سلامة العجوز وزوجته بيكى. كان وجهها بشوشاً وفى مكتبة المعبد ، كانت الكتب الدينية وادوات الصالة من القرن التاسع عشر ومن العشرينات، عند المدخل معلقة بعض الصور التى ترجع الى الايام الرائعة التى شهدها هذا المعبد... دخلنا وفتحنا الهيكل ووجدنا تسعة كتب رائعة الجمال ، نظيفة ومحفوظة امام عيوننا وقد وضعت ليوسف سلامة الذى كان يجد صعوبة فى السير مقعداً بجوار الهيكل واخرجنا كتب التوراة .. وبدأنا مراسم الصلاة فى اليوم التالى، اثناء «صلاة الختام» كانت هناك مفاجأة اعدها لنا العجوز يوسف سلامة : بينما هو جالس بجوار الهيكل المفتوح اخرج فجأه بوقاً وراح ينفخ فيه مرتلاً لبعض الصلوات .

اسرعت من المعبد الى السفارة حيث كان علىّ ان اتحدث الى رئيس الوزراء الذى سيحضر فى اليوم التالى للقاهرة يوم الجمعة فى الساعة الواحدة بعد الظهر مع ثلاثة وزراء من اجل الاشتراك فى جنازة الرئيس السادات . كان علىّ ان اقوم بالتنسيق مع رئيس الوزراء ومع رئاسة الجمهورية المصرية حول تفاصيل كثيرة وقد اخطرنا انا وطوفا فى السيارة التى انطلقت بنا الى السفارة .

بعد ذلك بيومين ـ صباح يوم الاحد ـ دخل فجأه الى حجرتى تسيفى جباى فقد وصله الآن خبر بأن المحامى يوسف سلامة مريض للغاية وحسب طلبى ذهب جباى مع طبيب الى

حيث يقيم يوسف فى فناء المعبد بعد ساعتين اتصل بى جباى واخبرنى بوفاة يوسف وان الجنازة بعد ساعتين اجلت جميع اعمالى انطلقت الى المعبد. استقبلتنى زوجته بيكى بالدموع والقبلات والاحضان . قالت « لقد انتظر حتى يحظى مرة اخرى برؤية عودة المعبد الى سابق عهده وهذا الفضل عائد اليك يا سيدى السفير انه يرقد الآن مستريحاً فى سلام وسكينه ليطيل الله عمرك ويباركك على هذا العمل الجليل الذى فعلته معه قبل ان يلبى نداء ربه وبكت وقبلتنى واخذت تبكى وتقبلنى .

نظرت حولى فوجدت اثنين من رجال الدفن المسلمين ورجلاً واحداً من الطائفة اليهودية. واحصيت عدد الرجال معنا : اضافة الى رجال الحرس وموظفى السفارة الذين حضروا معى، كانوا اكثر من عشرة بما يسمح باقامة الصلاة ادينا صلاه الدفن لم يسمح لى رجال الحراسة المصريون بأن اسير خلفه الا بعضة خطوات فقط وسار خلفه رجال السفارة الذين حضروا معى منذ الثامن من اكتوبر ١٩٨١ وطوال فترة خدمتى فى القاهرة ـ كان معبد المعادى يفتح فى الاعياد . وكان السفير ومعه احد اعضاء السفارة يتولون اجراء طقوس الصلوات فى الاعياد .

لقد تحول معبد المعادى الذى كان يخدم فى حينه ابناء الطائفة اليهودية فى هذا الحى، والتى لن يتبقى منها احد باستثناء السيدة بيكى، تحول منذ ذلك الحين الى معبد الطائفة الاسرائيلية بالقاهرة .

الفندق، الاتوبيس، النادى :

اعرب الرئيس محمد انور السادات فى وصيته عن امنيته : ان يدفن فى ميت ابو الكوم، القرية التى ولد بها والتى كان يجب الذهاب اليها من حين لاخر للاستجمام وبعد التوقيع على اتفاقية السلام وانسحاب اسرائيل الى خط العريش ـ رأس محمد فى سيناء كان الرئيس السادات يهوى الذهاب من حين لاخر ايضاً الى « وادى الراحة » للراحة والعزلة وهو «وادى الراحة» الذى يقع بجوار دير سانت كاترين اسفل جبل موسى ـ جبل سيناء

وبموجب احدى التخمينات اختمرت ايضاً عند السادات فكرة : ان يبنى الي جوار الكنيسة اليونانية الارثوذكسية مسجد اسلامى ومعبد يهودى - رمزاً للمحبة والتيخى بين الديانات السامية الثلاثة هذا ما كشفته لى متأخراً جداً حرمه جيهان كان الرئيس السادات يردد من حين لاخر على مسامعها امنية جديدة : فى ان يجد راحته الاخيرة بالقرب من ذلك الموقع فى قلب سيناء فى وادى الراحة .

على ما يبدو ان هذا الموضوع ، موضوع وفاته التى تقترب ومكان دفنه قد شغل كثيراً الرئيس السادات فى السنوات الاخيرة من عمره وعلى ما يبدو انه اكثر من الحديث عن ذلك مع بعض المقربين اليه . فى احدى المحادثات الخاصة جداً معى الح لى عن ذلك بقوله انه «شعر ان موعد لقائه مع ربه يقترب. وكانت حرمه جيهان قد اعتادت التعليق على ذلك فى البداية بكلمات دعابة وذلك للتخلص من هذا الموقف المحرج وتغيير موضوع الحديث ولكن عندما كان الرئيس يعود ويطرح امنيته بأن يدفن فى وادى الراحة كانت السيدة جيهان تجد مبررات عديدة لتثنية عن هذا التفكير « المكان بعيدا جداً عن القاهرة وانت لن تحب ان تمنعنى انا واولادك واحفادك وكذلك عامة الشعب الذين يحبونك من الذهاب الى قبرك من حين لاخر.

حى نهاية الامر ، وعندما تمكن القتلة من اغتيال الرئيس السادات فى السادس من اكتوبر ١٩٨١ لم يدفن السادات فى قريته ميت ابو الكوم ولا فى وادى الراحة. وكانت حرمه السيدة جيهان السادات هى التى حددت بشكل قاطع على مسامع الرئيس المنتظر محمد حسنى مبارك مكان دفنه : بجوار الجندى المجهول فى مدينة نصر، امام المنصة التى وقف عليها عندما اغتيل .

فى صباح اليوم الثانى « لحادث المنصة » وبينما الصمت والصدمة تخيمان على العاصمة المصرية اذاعت حكومة اسرائيل بياناً خاصاً جداً كذلك ابلغنى رئيس الوزراء مناحم بيجن، بأنه يعتزم الاشتراك فى الجنازة ، وان يسير بنفسه خلف نعشه واضاف قائلاً

« انه لم يوقع فقط معى على اتفاقية السلام بل كان ايضاً صديقاً شخصياً وسوف اسير خلف نعشه الى مثواه الاخير » .

رغم انه هذا كان حديثاً تليفونياً دولياً فقد لمست نبرات الحزن فى صوت بيجن سأصل بالطبع يوم الجمعة فى اليوم التالى مباشرة لصوم يوم الغفران ، حاول يا موشى من فضلك ان يكون المكان الذى سأقيم به قريباً بقدر المستطاع من مكان خروج الجنازه .

بعد فترة اتصل بى البروفيسور جوتسمان ، الطبيب الشخصى لبيجن واوضح لى ان هذا حديث خاص دون علم رئيس الوزراء« قال البروفيسور جوتسمان ان السيد بيجن يعانى آلاماً شديدة فى ركبتيه والسير على القدم سيؤله كثيراً ولذلك فانه حيوى جداً ان يكون الفندق الذى سيقيم فيه بيجن على مسافة بضعة امتار فقط من مكان الجنازة عليك ان تعرف ان منع الآلام وصحة رئيس الوزراء مسئوليتك .

حدثت هاتان المكالمتان التليفونيتان بين القدس والقاهرة ، فى ساعات معدودة بعد أن ارتدى كل ابناء اسرائيل فى انحاء العالم الملابس البيضاء وبدأوا يستعدون للتوجه الى المعابد لصلاة ليلة يوم الغفران ، فى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر تمكنت من اجراء مكالمة تليفونية مع د. بطرس غالى اخبرنى وزير الدولة للشئون الخارجية بطرس غالى ان جنازة الرئيس الراحل ستتم يوم السبت العاشره من اكتوبر قبل الظهر . واخبرنى ايضاً انه قد قرر تمكين وفود رفيعة المستوى من الخارج من الاشتراك فى الجنازة وقرأت على مسامع د. غالى نص بيان الحداد لحكومة اسرائيل وقلت له اننى اريد ان ابلغه رسمياً بقرار السيد بيجن بالاشتراك شخصياً فى الجنازة والسير خلف جثمان السيد الرئيس وقلت ايضاً للدكتور غالى انه نظراً لان الجنازة ستقام يوم السبت فاننا سنكون شاكرين للغاية لو ان مكان اقامة السيد بيجن الممنوع من السفر يوم السبت يكون قريباً بقدر الامكان من مكان مراسم العزاء، وقلت له ايضاً بشكل شخصى ان السيد بيجن يعانى من آلام شديدة فى ركبتيه، ابدى الدكتور غالى رضاءه الكامل لسماع قرار السيد بيجن وطلب منى الاتصال

بالفريق الخاص الذى اقيم فى وزارة الخارجية المصرية والذى يقوم بكل الترتيبات المتعلقة بالوفود الاجنبية التى ستصل الى القاهرة ، بعد هذه المكالمة مباشرة اتصل المفوض افرايم دوفك بوزارة الخارجية المصرية وبعد حديث طويل مع مدير وزارة الخارجية اتضح ان اقرب فندق لمكان اقامة مراسم الجنازة هو فندق « سونستا هيات » الموجود فى مدينة نصر المسافة من السفارة الى هذا الفندق تستغرق حوالى ٤٥ دقيقة وكان لزاماً علىّ ان اعمل بسرعة والحصول على معلومة دقيقة عن طول الطريق من ذلك الفندق وحتى مكان اقامة مراسم الجنازة واستدعيت مرة اخرى الى مكتبى صديقى وذراعى الايمن فى السفارة المفوض افرايم دوفك : « نخرج فوراً الى المكان وتقوم بقياس المسافة بواسطة جهاز قياس الكيلو مترات الموجد فى سيارتك وتحضر فوراً الى المعبد » خلال دقائق معدودة انطلقت سيارة افرايم فى شوارع القاهرة المزدحمة يقودها سائقة المخلص شريف الذى قطع المسافة فى ذلك اليوم بسرعة مذهلة.

من السفارة الموجودة فى الجيزة الى المنزل الذى يقع فى المعادى ومن هنا الى المعبد المجاور لمنزلنا سوياً مع زوجتى طوقا، ابنتنا اورنا وحفيدنا الاول طال سرنا فى هذا الطريق الى المقعد تحت حراسة صارمة لم أشهد مثلها من قبل . لقد فرض على الحى كله شبه حصار مجموعات ومجموعات من رجال الشرطة وافراد الجيش بعضهم يرتدون الزى وبعضهم يرتدون الملابس المدنية، اصطفوا معاً وسرنا نحن فى مجموعة صغيرة مع مجموعة الحرس الخاصة بى كان معظمنا يرتدى الملابس البيضاء ، ارتدى الرجال الطواقى وبعضنا حمل تحت ابطه الطليس « وشاح يرتديه اليهود فى الصلاة ، عباءه » عند دخولى المعبد لمحت فى الحال افرايم همس فى اذنى قائلاً المسافة كلها خمسة كيلو مترات ومائتى متر فى الاتجاهين...وفى الحال تذكرت البروفيسور جوتسمان وركبة رئيس الوزراء وقلت لافرايم كلمة واحدة : شكراً، وقلت لنفسى انه فى هذا الوقت لا يمكن القيام باكثر مما قمنا به.

فى اليوم التالى وبعد انتهاء الصلاة وجدت نفسى انطلق بسيارتى مباشرة من المعبد

الى مكتبى فى السفارة وحسب ساعتى فإنه حتى الساعة السادسة صباحاً لحظة هبوط وحدة الانقاذ المرافقة لرئيس الوزراء فى مطار القاهرة الدولى تبقى فقط حوالى ١٢ ساعة. وحتى هبوط رئيس الوزراء نفسه تبقى لى حوالى ١٩ ساعة عند وصولى الى مكتبى كان رئيس الوزراء السيد بيجن اول المتحدثين تليفونياً وطلب منى سماع رأيى، هل يحضر بمفرده لحضور الجنازة ام ان من الافضل ان يرافقه بعض الوزراء واوصيت ان يحضر معه وزير الخارجية اسحاق شامير ، ووزير الدفاع اريك شارون وكذلك د. يوسف بورج الذى ترأس طاقم المفاوضات حول الحكم الذاتى . واجاب رئيس الوزراء قائلاً « ساضطر فى هذه الحالة الى القيام فوراً باستفتاء تليفونى بين كل اعضاء الحكومة للحصول على موافقتهم على سفر الوزراء الثلاثة معى، وسأل عن الفندق الذى سيقيم فيه ، وقلت هل ان المصرين يخصصون له فندقاً فخماً ولكن الموقع لا يروق لى لانه بعيد لحد ما . وقلت له لا تقلق لاننى اهتم بهذا الموضوع وسوف اتصل به خلال الساعات القليلة القادمة. لم يهدأ رئيس الوزراء واراد ان يعرف المسافة بالضبط وما ان سمع بأن عليه ان يسير حوالى اثنين كيلو متر ونصف فى كل اتجاه ، سألنى بصوت هادئ جداً سؤالاً لم يمكننى من معرفة رأيه النهائى : هل تستطيع تأجير اتوبيس مكيف الهواء ، يا موشيه ؟ وبالطبع قلت له نعم ولكننى سألت ما علاقة الاتوبيس المكيف الهواء بيوم السبت ؟ وقال لى رئيس الوزراء موضحاً: سنخرج من الفندق قبل بدء الجنازة بساعتين نسير بجوار الاتوبيس كل عشر دقائق يتوقف الاتوبيس ونصعد اليه للراحة كلما احتجنا ذلك وقلت له لا تهتم بالتفاصيل سيدى رئيس الوزراء- سنقوم بترتيب كل شئ .

نظرت الى ساعتى ، وكانت الساعة حوالى الثامنة مساءً. عشر ساعات قبل هبوط الطائرة التى ستقل وحدة الانقاذ والسيارة المدرعة التى سيستخدمها هنا رئيس الوزراء، وسبع عشرة ساعة قبل هبوط طائرة رئيس الوزراء نفسه والوفد المرافق له الذى سيضم ثلاثة وزراء كباراً وكذلك عزرائيل نافون الياور العسكرى لرئيس الوزراء، ورجل الاتصال

الخاص به اورى فورت وديف كمحى مدير وزارة الخارجية واللواء ابرشا تامير مساعد وزير الدفاع اردت الاتصال تليفونياً بالدكتور اسامة الباز رئيس مكتب القائم بأعمال الرئيس قال لى د. اسامة الباز « اذا كان السيد بيجن يعانى من آلام فى ركبته فاننى اقترح بانه فور وصوله الى المطار بعد ظهر غد يقوم بزيارة عزاء للسيدة جيهان السادات وكذلك السيد مبارك وان يستريح فى الفندق لحين انتهاء السبت وفى المساء يقوم بالتوجه الى قبر الرئيس الراحل ويضع اكليلاً من الزهور » قلت له « اننى لا احبذ نقل هذه التوصية الى رئيس الوزراء « ومن الافضل البحث عن اى مكان آخر لاقامة رئيس الوزراء يكون قريباً جداً من مكان اقامة مراسم الجنازة . لماذا ؟ تساءل اسامة الباز « اليس بهذه الصورة يقوم رئيس الوزراء بواجبه ويستطيع تحمل الضغط الجسمانى » هذا الاقتراح يعنى انكم لا تريدون حضور السيد بيجن للجنازة وقلت بصوت حاد ورسمى جداً : ام انكم لا ترغبون انه يسير فى الجنازة كسائر رؤساء الحكومات والرؤساء الذين سيحضرون وتأخر صوت اسامة الباز بضع ثوانى قبل ان يرد وعندما رد قال ان اشتراك السيد بيجن فى الجنازة هو تكريم لمصر، وقال انه يرجو الا افسر اقتراحه بصورة غير سليمة وقلت له « لا اتخيل ان حكومة جمهورية مصر العربية ومكتب القائم باعمال الرئيس غير قادر على تحديد مكان اقامة متواضع ولكن لائق ولو منزل خاص بالقرب من مكان مراسم الجنازة وطلبت ان يخبرونا بأسرع ما يمكن بتفاصيل الترتيبات التى سيقومون بها لاننى اعتزم الاتصال برئيس حكومتى خلال نصف ساعة واننى لا انوى ابلاغه بالفكرة غير المناسبة للدكتور اسامة خلال هذه المكالمة ان اطرح فكرة الاتوبيس التى طرحها السيد بيجن بعد ذلك بعشر دقائق كان على الخط كمال حسن على نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية المصرى آنذاك الذى كان معروفاً وعن حق بأنه احد الاصدقاء المخلصين واحد مهندسى اتفاقية السلام معنا سمع من اسامة الباز اننى اشك فى رغبتهم فى تمكين رئيس حكومتى من الاشتراك فى الجنازة وهو يفهم بالتأكيد رفضى ابلاغ السيد بيجن بالاقتراح الغريب جداً الذى اقترحه د. الباز اشتراك مناحم بيجن شخصياً فى الجنازة هو ايضاً تكريم لمصر وايضاً للرئيس الراحل

ويعتبر ايضاً رمزاً حيوياً لاستمرار السلام وقد قال كمال حسن على هذه الكلمات بالاصاله عن نفسه وطلبى متى نقلها الى السيد بيجن وبالاصاله عن السيد مبارك الذى تحدث معه شخصياً وفضلاً عن ذلك فقد اراد ازالة اى قلق من قلبى انهى كمال حسن على كلامه قائلاً «سيتم العثور على مكان مريح ولائق برئيس الوزراء» وشكرت كمال حسن على وقلت له انه عندما تصدر منه هذه الكلمات فاننى مطمئن تماماً . وقد ابديت ملاحظة بانه مهما كانت الترتيبات، فانه من المهم جداً انه يزور رئيس الوزراء فور وصوله للقاهرة السيدة جيهان السادات وكذلك السيد مبارك من المهم ايضاً ان يستمع السيد بيجن فور وصوله لوقف مبارك بشأن التزامه تجاه السلام . وبالنسبة للموضوع الفنى اضفت، بأننى سأحتاج الى سبعة اماكن اقامة. مكان لرئيس الوزراء وثلاثة اماكن للوزراء الثلاثة وثلاثة اماكن آخرين مكان ليحيئل كديشاى ومكان للطبيب الشخصى للسيد بيجن والثالث لى، وقال كمال حسن على سأهتم ايضاً بك وسوف اتصل بك بعد قليل وارجو ان تنقل الى السيد بيجن مضمون هذا الحديث .

مرة اخرى اتصل رئيس الوزراء صدقت الحكومة على سفر الوزراء الثلاثة مع رئيس الوزراء وسألته اذا كان يرغب فى القيام بزيارة عزاء للسيدة جيهان وكذلك للسيد مبارك موضحاً اهمية قيامه بزيارة مبارك وفى هذه النقطة سألت بحذر وبلطف ما اذا كان سيرتاح فى فندقه يوم السبت ويكتفى بوضع اكليل من الزهور فى مراسم عسكرية كاملة على قبر السادات عند انتهاء يوم السبت وشعرت انه انفعال شديد سيطر فجأة على رئيس الوزراء بعد سماعه لى « يجب ان تعرف يا موشيه انهم اذا كانوا يقترحون مثل هذا الاقتراح فان هذا يعنى انهم لا يرغبون فى حضورى الى القاهرة فى ذلك الوقت وقال رئيس الوزراء عليك ان ترفض مثل هذه الاخطار واضاف قائلاً سأحضر الى القاهرة للسير وراء النعش لقد وقع معى على اتفاقية السلام وهو صديق شخصى . موته خسارة كبيرة، خسارة كبيرة لمصر، خسارة كبيرة لاسرائيل، وخسارة شخصية كبيرة لى » وابلغته الآن بكلمات كمال حسن على

بالنيابة عن محمد حسنى مبارك .

كانت الساعة فى ذلك الوقت ١٢ الا ثلثاً قبل منتصف الليل انه : باقى ست ساعات وعشرون دقيقة على وصول جماعة الانقاذ لرئيس الوزراء. اتصل د. اسامة الباز مرة اخرى بى وتحدث وقال انهم بحثوا ووجدوا « نادياً رياضياً » بالقرب من مكان مراسم الجنازة هذا النادى سيكون فى خدمة السيد بيجن وطلب ان اخبر رئيس الوزراء فى الحال بذلك وان اضيف بأن حكومة مصر تقدر للغاية قرار السيد بيجن بالاشتراك فى الجنازة رغم اضطراره للسير على اقدامه بسبب يوم السبت واضاف د. اسامة الباز قائلاً انه عند وصوله الى القاهرة ظهر يوم الجمعة سيتم استقباله بواسطة نائب الرئيس الراحل حسنى مبارك وكذلك بواسطة ارملة الرئيس الراحل السيدة جيهان السادات .

بعد مرور دقيقتين او ثلاث كان كمال حسن على على الخط ثانية . وتحدث بشكل رقيق ودى للغاية : « لقد عثروا على نادى رياضى موجود على مسافة ٢٠٠ ـ ٣٠٠ متر من مكان خروج الجنازة . فى المكان ثلاث غرف وقاعة كبيرة كلها فى منزل منعزل النادى لا يتم استخدامه منذ بضع سنوات ولكنهم سيقومون بتنظيفه واصلاحه سيكون مريحاً جداً ولائقاً جداً والاهم ملائماً جداً لضمان سلامة رئيس الوزراء « توجد مياه ساخنة وفى الطابق الثانى تستطيع انت ويحيئيل كديشاى وايضاً الطبيب الشخصى لرئيس الوزراء الاقامة وسوف اهتم ايضاً بناء على طلبك بتركيب خط تليفونى مباشر للقدس ليكون تحت تصرف رئيس الوزراء خلال فترة اقامته فى القاهرة واضاف كمال حسن على بأنه سيكون بنفسه فى المطار لاستقبال الوفد وكذلك السفير عصمت رضا الذى عين كمرافق شخصى لرئيس الوزراء» اذن سنلتقى غداً فى الساعة الواحدة بعد الظهر فى مطار القاهرة الدولى قال لى السيد بيجن عندما سمع تفاصيل حديثى مع كمال حسن على واضاف رئيس الوزراء متسائلاً هل توجد مياه ساخنة فى تلك النادى الرياضى ؟ وبالنسبة للغرف سنوزعها بالصورة التالية: غرفة لى والثانية لاكبر المجموعة سناً « دكتور بورج » والثالثة لاصغر اثنين

فى المجموعة شامير واريك شارون » ومن الافضل ان تحرص على وجود ثلاثة اسرّة اخرى توضع فى اى مكان فى النادى ـ سرير ليحئيل والثانى للبروفيسور جوتسمان والثالث لك. ستضطرون انتم الثلاثة الى البقاء بالقرب منى .

وضعت سماعة التليفون كانت الساعة تقترب من منتصف الليل وطلبت من المفوض افرايم دوفك ان يكون فى المطار الساعة السادسة صباحاً لاستقبال وحدة الانقاذ التى سيصل عددها الى حوالى خمسين فرداً وطلبت منه ايضاً التحرك مع القادمين مباشرة من المطار الى النادى الرياضى للتأكد بان كل الترتيبات قد تمت على ما يرام .

يوم الجمعة التاسع من اكتوبر كانت الساعة الثامنة صباحاً خمس ساعات على هبوط طائرة رئيس الوزراء كنت متواجداً بجوار البوابة الخارجية للنادى الرياضى كانت البوابة الحديدية مغلقة بينما اصطف فى الخارج عشرات من افراد « جماعة الانقاذ » الاسرائيليين التى وصلت الى القاهرة كما هو متفق عليه فى الساعة السادسة صباحاً برأس الجماعة العميد افرايم فورن السكرتير العسكرى لرئيس الوزراء المفوض افرايم دوفك تحدث مع «بواب» بوابة » النادى الذى يقف فى حالة ذهول على الجانب الداخلى للبوابة لم يكن عند البواب اية فكرة عن الدور العظيم الذى سيقوم به ناديه فى ذلك اليوم وعندما ابلغو البواب بان السفير قد وصل اسرع بفتح البوابة والسماح له بزيارة النادى : سرنا فى طريق ملئ بالتراب والمياه يؤدى الى باب الدخول الرئيسى للنادى . شاهدنا قاعة فسيحة مليئة بالتراب والعفار لم تمسها يد بشر منذ حوالى خمس سنوات . ارائك ومقاعد قديمة ومحطمة مليئة بالاتربة ومغطاه بخيوط العنكبوت وفوق كل هذا رائحة عفنه فظيعة دليل على ان المكان لم يتم تهويته منذ سنوات فى نهاية القاعة ثلاث غرف فى الغرفة الرئيسية غرفة مدير النادى مائدة كتابة ثقيلة وقديمة مليئة باوراق صفراء اللون وعلى المائدة طفاية سجائر مليئة باعقاب السجائر وتليفون، عدة دواليب حديدية مليئة بدوسيهات صفراء والغرفتان الاخرتان ممتلئتان بدواليب حديد يغطيها الصدأ . عدنا الى حجرة المدير وسألت البواب الذى ازداد اضطراباً

وهو يرى هذا الغزو الاسرائيلى الغريب ، هل التليفون يعمل وبدأت ترتسم على وجهه علامات الندم الواضحة لانه تفضل ووافق على ادخالنا الى قدس الاقداس الذى يقوم بحراسته «لا اعرف» اجاب وهو فى حالة ارتباك وخلال ثوانى معدودة سيطر علىّ تفكير غريب عندما تخيلت ان هذا التليفون المهجور يستطيع ان تدب فيه الحياه من جديد . للتأكد من ذلك امسكت السماعة » وكم كانت دهشتى : ليس فقط انه يوجد رنين يدل على ان الخط السليم على ان الرنين واضح قررت بشكل قاطع بأنه لابد وان نقوم بمعجزة من نوع المعجزات التى كانت من نصيب نبى اسرائيل فى مصر ـ فكرت وانا اتصل بمنزل صديقى نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية كمال حسن على « الم اعدك بأن كل شئ سيكون على ما يرام » قال لى كمال حسن على « ولكنك لم تنفذ وعدك لى مازلت قلقاً دون داع... للعلم المياه الساخنه موجودة فى الحمامات الموجودة فى فناء النادى لابد وان يصل اليكم فى هذه اللحظات رجل جيش . من فضلك ، طلب من البواب ان يبحث عنه وان يحضره للاتصال بى تليفونياً » بالضبط فى نفس اللحظة ـ معجزة اخرى ـ دخل الى الحجرة ضابط سلاح البحرية المصرى يرتدى ملابس ناصعة لسلاح البحرية بعكس القذارة المحيطة بنا .

يحمل رتبة ادميرال وتناول سماعة التليفون ومن اسلوب كلامه ظهر انه يبدى احتراماً كبيراً جداً للجنرال كمال حسن على بعد حديث موضوعى قصير اعاد السماعه لى وقال كمال حسن على: « طاقم كبير سيصل الى المكان وسوف ينظفه بشكل لن تصدقه. جميع الاثاث سيتم استبداله ، رجال وزارة المواصلات سيحضرون لتركيب خط تليفون دولى مباشر لاسرائيل وسيقومون بجميع الترتيبات الامنية الاخرى المطلوبة المهم ان تكف عن القلق .

وقد طرأت فكره عبقرية فى عقل ايلى لنيادوا المستشار الصحفى الممتاز والمخلص لى لقد اقترح علىّ الادميرال ان ينتقل من فندق سونستا القريب كل الاثاث المطلوب لهذا النادى الذى سيصبح مقرا اقامة رئيس وزراء اسرائيل .

عندما وصلت الى « النادى » مع رئيس الوزراء والوزراء الثلاثة ، قبل حلول السبت

بربع الساعة شاهدت احدى عجائب الدنيا : البوابة الحديدية تبرق ، ازيلت الاعشاب من الطرقات التى كانت نظيفة ومنظمة ، القاعة الكبيرة تشبه القاعة الرئيسية فى فندق سونستا ذات الخمسة نجوم ..... الكل لامع، نظيف ويبرق . سجاجيد فاخرة صور حائط بل ستائر وجهاز تليفزيون فى غرفة رئيس الوزراء الجميلة .

وقبل ان يدخل الى حجرته توقف رئيس الوزراء بجوار مائده فى ركن فى القاعة الكبيرة، كانت عليها تليفونان : « موشيه ، من فضلك اريد الاتصال بالسيدة بيجن ؟ اريد التحدث معها ومع الاحفاد واريد ان تتحدث انت ايضاً معهم « ودون ان ينتظر استمر قائلاً : صحافتنا فى الدولة متوحشة جداً . نشرت صحف الصباح اليوم خبراً بارزاً جاء فيه انه من المنتظر ان اتعرض لمحاولة اغتيال هنا . وقد ازعج ذلك احفادى للغاية ، الذين ضغطوا على وهم يتوسلون الا اسافر. ولذلك من المهم ان اتحدث معهم فوراً من هنا ومن المهم ايضاً ان تقوم انت كذلك بتهدئتهم . كلمات مهدئة من سفير اسرائيل فى القاهرة ستقلل لحد ما من قلقهم. تناولت التليفون المباشر بالسنترال الدولى فى الدولة وتحدث رئيس الوزراء مع زوجته عليزا ومع احفاده ايضاً وبعد ذلك تحدثت معهم فى تلك اللحظات شعرت بمدى انسانية السيد بيجن . ومدى انعدام مشاعر بعض الصحفيين عندنا فى الدولة.

عندما دخل رئيس الوزراء الى حجرتة عدت الى مائدة التليفونات وامسكت التليفون المحلى حاولت الاتصال بزوجتى طوفا، ولكن التليفون المحلى بالذات لم يعمل كان صامتاً تماماً. لذلك امسكت التليفون الدول وكان على الخط عاملة السنترال الدولى فى الدولة وقد ذهلت من طلبى الغريب بأن تقوم بتوصيلى بمنزلى فى القاهرة عندما تحدثت مع طوفا قاطعتنى قائلة : ماذا حدث ؟ لماذا تتحدث معى من الدولة ؟

عندما وضعت سماعة التليفون اقترب منى الدكتور يوسف بورج واراد ان يعرف هل لدينا هنا خمر للتقديس لان ليلة السبت اليوم وشعرت بالخطأ وقلت لاننى سأحاول الحصول فوراً على خمر تقديس . التوجه من النادى الذى تواجدنا فيه الى منزلى فى المعادى والعودة

تستغرق اكثر من ساعة ويوم السبت على وشك القدوم واستدعيت افرايم مزور ضابط الادارة عندنا وطلبت منه الذهاب فوراً الى المطار هناك تقف طائرة رئيس الوزراء كنت آمل ان يكون فى تلك الطائرة الاسرائيلية خمر للتقديس، بعد حوالى نصف ساعة عاد افرايم الى النادى ومعه عدة زجاجات من الخمر المطلوب .

وعند منتصف الليل صعدت انا وبحيئيل كديشاى والبروفيسور جوتسمان الى الطابق الثانى فى الفندق هناك وعدوا بوضع ثلاثة اسرة من اجلنا . القاعة الكبيرة فى الطابق الثانى كانت قذرة مثلما كانت القاعة الكبيرة الموجودة فى الطابق الاول قذرة فى الصباح... نفس اعقاب السجائر الموجودة منذ خمس سنوات نفس الغبار ونفس خيوط العنكبوت.... وفى نهاية القاعة كانت هناك منصة كان يستخدمها رواد النادى وعلى المنصة ثلاثة اسرة بيضاء ونظيفة بجوار النوافذ المفتوحة والتى لا يوجد بها زجاج. وكان البعوض « الناموس » يطير هناك بشراهه خاصة . دخل البروفيسور جوتسمان الى سريره وغطى نفسه بملاءة حتى رأسه، يجيئيل المحصن على ما يبدو من البعوض المصرى رقد على سريره بملابسه الداخلية فقط وراح فى نوم عميق... وتمشيت طوال هذه الليلة على تلك المنصة قائلاً لنفسى ربما بالغت فى الاهتمام بالامور التافهه لانه فى نهاية الامر كان كل شئ على ما يرام .

اثناء سير الجنازة سار رئيس الوزراء كغلام صغير كان علينا ان نبذل مجهوداً حتى لا نتخلف خلفه. لم تكن هناك اية اشارة للآلام الموجودة فى ركبته ، ولكن كان يبدو ان هناك الماً آخر اشد ، ضايقه جداً الم اختفاء زعيم عظيم وصديق شخصى الم اختفاء الانسان الذى غير معه مجرى التاريخ فى منطقتنا .

تراجع اريك :

كان شهرا مارس وابريل ١٩٨٢ شهرى نشاط ديبلوماسى جبار جداً بين اسرائيل ومصر .موعد الانسحاب النهائى من سيناء يقترب وامور كثيرة تحتاج لمناقشة واتفاق شغلت زعماء الدولتين ومساعديهم . وهذا فضلاً عن المشاكل الداخلية التى كان ينبغى على الزعماء التعامل معها وحلها .

طائرة المديرين الخاصة سلكت طريقها من مطار الماظة العسكرى بجوار القاهرة الى مطار بن جوريون . لقد قطعت المسافة فى رحلة مباشرة عبر سيناء فى ٣٥ دقيقة .. كان فى الطائرة كمال حسن على ، نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية ووزير الدولة لشئون الخارجية بطرس غالى، وانا كنا فى طريقنا الى عقد لقاءات مع رئيس الوزراء مناحم بيجن وصاحب الوفد المصرى ايضاً السكرتير الشخصى والمخلص لكمال حسن على وذلك لتسجيل كل كلمة تصدر من المفاوضين .

من مطار بن جوريون ذهبنا مباشرة الى مكتب رئيس الوزراء فى القدس وبعد ان هجم علينا المصورون ومندوبو اجهزة الاعلام الذين دخلوا الى الحجرة باعداد كبيرة بدأت المناقشة التى استمرت ساعتين، بعدها مأدبة غداء فى فندق هيلتون ، راحة قصيرة للضيوف ومواصلة المناقشات فى منزل رئيس الوزراء كان الضيوف المصريون ثلاثة وانضم بالطبع الى وفدهم السفير المصرى فى اسرائيل سعد مرتضى . المضيفون وعلى رأسهم رئيس الوزراء ووزير الخارجية شامير ووزير الدفاع اريك شارون كانوا عشرات : سكريترين ومستشارين ، وسكرتيرين خصوصيين ومساعدين ومساعديهم .

كان الجدل ساخناً ظهر شعور حقيقى بالوصول الى طريق مسدود وجلس رئيس الوزراء على حافة الاريكة الموجودة فى غرفة الضيوف الفسيحة .. والباقى بعضهم جلس على المقاعد القليلة الموجودة فى الغرفة والغالبية وقفوا .

كمال حسن على ، اريك شارون وانا كنا بين هؤلاء الذين لم يجدوا اهمية للاشتراك فى

تلك اللحظات « فى السباق لاحتلال المقاعد » كان مصيرنا ان نظل واقفين لم يشعر اى موظف من الموظفين الاسرائيليين بأنه من الواجب تقديم مقعده لضيفنا الكبير كان رئيس الوزراء هادئاً واضح الفكر والتعبير يركز على الاساس حاول بطرس غالى طرح حلول لفظية من خلال تفادى الجوهر انه مثقف ساحر الذى يجد اهتماماً ولذة فى الجدل. تحدث كمال حسن على برقة من خلال جهد واضح لايجاد حل للمشكلة الصعبة محل الخلاف وبدأ الضوء يختفى فى الحجرة فقد وصلنا الى المساء. وكان علينا ان ننهى المحادثات بسرعة وان نعود فى نفس المساء الى القاهرة ولكن كيف نفعل ذلك بينما نحن مازلنا عند نفس النقطة التى بدأت عندها المناقشات فى الصباح ... بدأ عالم الوقت يورقنا جميعاً . كانت المشكلة الاساسية هى طلب رئيس الوزراء مناحم بيجن الجاد بان نحصل قبل الانسحاب على خطاب تعهد من الرئيس المصرى محمد حسنى مبارك ، يؤكد فيه الرئيس المصرى مجدداً التزام مصر بسلسلة كاملة من الامور: التزام باتفاقية كامب ديفيد ، ومنع عمليات تخريب من الحدود المصرية الجديدة التى ستكون مجاورة جداً لمستوطناتنا وغيرها من الامور. صحيح ان الرئيس المصرى كرر على مسامعنا تلك التعهدادت اكثر من مرة ولكن رئيس الوزراء طلب بحزم الحصول على هذه التعهدات كتابة وقد فهمت انا الذى كنت اسير بين الطرفين جيداً الدوافع المقنعة والهامة جداً لرئيس الوزراء ، ولكننى شعرت ايضاً وعرفت جيداً الجو الذى يعمل فيه الرئيس المصرى فى بلده. لم يكن لدى شك بأن مبارك غير متحفظ من التعهدات. ضائقته نبعت من الصورة اكثر من المضمون بالنسبة للجانب الاسرائيلى، عرفت ان الصراع كان اساساً مع اريك شارون « من الاختلافات الكثيرة والكبيرة بين اريك شارون وبين موشيه ديان طيب الذكر ذلك انه ديان كان يناضل من اجل رأيه مع رؤساء الوزارة مع اشكول مع جولدا مع بيجن ولكن عندما كان رئيس الوزراء يتخذ قراراً كان موشيه ديان يتقبل ذلك فوراً وان كان بدون حماس .

فى مقابل ذلك لم ير اريك ابداً ان قرار رئيس الوزراء نهائى وفى بعض الاحيان كان

يتجادل معه حتى بعد قراره ولكن فى نهاية الامر كان ايضاً يتقبل الحكم بأمل انه مع مرور الوقت يتمكن من تغييره .

لذلك اقتربت من رئيس الوزراء وانحنيت الى جواره فى الطرف الايمن من الاريكة التى جلس عليها وهمست فى اذنه قائلاً اننى ارى وحسب تقديرى ، ليس للرئيس مبارك اية صعوبة بشأن مضمون التعهدات المطلوبة منه لانها مدرجة فى الاتفاقيات الموجودة معنا . وقلت لرئيس الوزراء ان الصعوبة تنبع من موضوع هيبة واعتقد انه من الممكن التغلب على هذه الصعوبة عن طريق ذلك بان يرسل رئيس الوزراء خطاباً الى الرئيس المصرى يسرد فيه بالتفصيل باسلوبه كل مايريده وقلت انه ليس لدى شك بأن الرئيس مبارك سيرد عليه على رئيس الوزراء برسالة مكتوبة وموقعة يؤكد فيها موافقته على كل الضمانات وحرك رئيس الوزراء رأسه نحوى وقال : فكره ممتازة . حاول عرض هذا الموضوع على الجنرال كمال حسن على قبل ان اعرضه .

حقيقة ان كمال حسن على ، واريك شارون وانا « واسرائيليين كثيرين » لم يكونوا ضمن هؤلاء الذين عثروا على مقعد للجلوس عليه مكنتنى من الاقتراب من كمال حسن على وان اختلى به جانباً واتبادل معه بعض الكلمات دون ان يشعر اى شخص بذلك عرضت عليه الاقتراح على انه فكرة شخصية من جانبى فكر كمال حسن على للحظة وهز رأسه وقال كلمتين : حاول عرض ذلك على رئيس الوزراء .

واصلت التحرك فى الحجرة محاولاً شق طريقى. ورويداً رويداً وبرفق عدت الى طرف الاريكة التى يجلس رئيس الوزراء على جانبها الايمن وانحنيت مرة اخرى بجوار رئيس الوزراء وهمست قائلاً « كمال حسن على موافق ».

وسألنى رئيس الوزراء اذا كنت متاكداً وعندما اجبته بنعم ،التفت نحوى ورفع يديه وكأنه يطلب من الجمهور الكبير ـ حوالى عشرين او ثلاثين اسرائيلياً ـ الكف عن الحديث وخيم هدوء تام على الحجرة.

« سفيرنا الممتاز فى مصر طرح على مسامعى اقتراحاً لائقاً ومعقولاً وانا اقبله : قال رئيس الوزراء وسرد الاقتراح » هذا اقتراح عظيم جداً الذى يحافظ على كرامة صديقى الرئيس المصرى وكرامة الشعب المصرى المجاور ويحافظ ايضاً على كرامة شعب اسرائيل ما رأيك يا صديقى الجنرال على ؟

كمال - الذى اعرف كل خط من خطوط وجهه نظر بعينه الزرقاء والقى نظرة خاطفة نحو بطرس غالى « الذى تخلى هذه المرة عن حزنه - واستغرق لحظة فى التفكير .« اننى ابارك هذا الاقتراح سيدى رئيس الوزراء... ويشرفنى ان احمل خطابك الى رئيسى.. وحسب تقديرى انه سيوافق على ذلك ؟! قال كمال حسن على باختصار، وحينئذ نظر الىّ كمال حسن على بنظره تعبر عن قدر من التقدير والكثيرمن المودة والصداقة وفجأه رفع اريك شارون الذى وقف امام رئيس الوزراء بجوار كمال حسن على، وخلال انفعال يدل على تحفظ من اقتراح رئيس الوزراء قرر القيام بعملية تطويق : « لا افهم ولا اعرف من الذى يمثله موشيه هل هو سفير اسرائيل فى مصر ام سفير مصر فى اسرائيل.. قال اريك وهو يفضل مهاجمتى فى حضور كل هذه الشخصيات الكبيرة ، وعلى مسا[illegible] ضيوفنا الكبار الاجانب وامام زملائى الاسرائيليين بدلاً من ان يتجادل مباشرة مع رئيس الوزراء لان الاقتراح نفسه اصبح من لحظة ترديده بواسطة رئيس الوزراء بمثابة موقف رئيس وزراء اسرائيل.

فى العالم السليم قلت لنفسى مسموح بالتأكيد لوزير الدفاع ما هو مسموح لاى وزير آخر فى الحكومة ان يطلب راحة قصيرة من اجل اجراء مشاورات داخلية ولكن الاختلاف مع رئيس الوزراء والمساس بسفير اسرائيل الذى يمثل سيادة بلده فان هذا عمل شاذ يفتقر كثيراً الى الادب .

وكان لزاماً على ان اقرر هل وكيف ارد لان ابداء عدم الثقة فىّ من جانب وزير الدفاع علانية وامام وزراء اجانب كبار توجد لى معهم علاقات عمل يومية وهو بمثابة مساس ليس

فقط بالانسان بل اساساً بمكانته فى الدولة التى يعمل بها لدفع المصلحة القومية.. ومع هذا قررت التصرف كما اعتدت سيطرت على نفسى وساد الصمت الحجرة... وقررت التزام الصمت والقيام بعملية تطويق تجاه اريك لأن رئيس الوزراء ولست انا كان لابد وان يرد على اريك وها هو السيد بيجن بهدوء وبرقة ولكن بحزم يقول باختصار : موشيه هو سفيرنا المخلص وانا اقبل نصيحته يا اريك ... اننى مقتنع بأن تلك طريقة محترمة تحافظ على كرامة صديقى الرئيس المصرى وعلى كرامتنا وعلى المصلحة المشتركة للدولتين » وبعد ذلك، قام رئيس الوزراء فى الحال بتعيين طاقم فنى ليعد له مسودة خطابه للرئيس مبارك وتحركت ببطء بعيداً الى نهاية الحجرة حيث وقف هناك عوديد السكرتير المخلص لوزير الدفاع اخذته جانباً وقلت هل اننى اريد ان اقول له شيئاً ما شخصياً بشرط ان يعدنى بالحفاظ على هذه الكلمات سراً ولا يخبر اريك بها حتى ارحل مع الوفد المصرى فى طريقنا للقاهرة ..ودون ان انتظر اجابته كشفت هل انه عندما نخرج من هذه الحجرة وقبل ان ندخل سياراتنا فى طريقنا الى المطار انوى تسليم وزير الخارجية خطاب استقالة من منصبى كسفير لاسرائيل فى القاهرة . وقلت له « ان السفير الذى لا يثق فيه وزير الدفاع لا يستطيع القيام بعمله فى تلك الايام الصعبة التى نواجهها - ايام اخلاء ياميت وباقى سيناء ». وابتعدت ببطء عن عوديد وفى لحظات تغير الجو فى الحجرة فجأه جلس كمال حسن على للخطاب الى جوار رئيس الوزراء طاقم صياغة صغير قام فى ركن آخر من الحجرة لصياغة الخطاب وكان الباقون فى حالة معنوية مرتفعة .

وفجأه سمعت صرخة هائلة صرخة بالانجليزية ، قال اريك ايها الرفاق ورفع يديه لقد سمعت الآن ان موشيه ينوى الاستقاله بناء على الكلمات التى سمعها والتفت نحوى اريك قائلاً : هل حقاً ليس لديك روح دعابة يا موشيه؟ الم تفهم اننى امزح معك ؟ اننى مستعد لان اطلب منك الصفح علانية....بعد حوالى ساعة كنا نجلس فى طائرة المديرين فى طريق عودتنا الى القاهرة حيث كان كمال حسن على فى مقعده امام بطرس غالى لاحظت تبادل

الكلمات بين كمال وبطرس غالى وبعد ذلك ضحك الاثنان من اعماقهما .

قال لى كمال حسن على موشيه تلك هى المرة الاولى فى حياتى العسكرية والمدنية التى اشهد فيها انسحاب « تراجع » تام وعلانية من جانب الجنرال اريك قل لى يا موشيه ماذا كانت رتبتك ايام حرب ١٩٤٨ ؟

« جندى مؤقت » اجبت واضفت فى الحال : لا يا كمال لم يكن هذا انسحاباً للجنرال شارون كانت هذه محاولة للقيام بعملية تطويق للسياسى شارون محاولة لم تنجح مسموح ايضاً لجنرال على المعاش بأن يحاول ... وخاصة طالما انه ليس المقصود بحرب بل بمعركة السلام.

احاسيس :

تقول العقيد « احتياط » شلوميت كرمى التى ترأست مركز حصر الجنود المفقودين: كان ذلك فى بداية عام ١٩٨٥ . خلال اسابيع كثيرة حاولنا اقناع سلطات الجيش المصرى تمكيننا من زيارة المقابر العسكرية المصرية فى القاهرة لمعرفة حقيقةالمعلومات التى نمت الى علمنا والتى تفيد بأنه يوجد فى هذه المقابر قبر جندى اسرائيلى . وبعد اهتمام متواصل ومضنن وصل فى النهاية التصديق المصرى فى صيف ١٩٨٥ . وسافرنا الى القاهرة ولتأكيد الاهمية التى نوليها لهذا الموضوع سافر معنا الى القاهرة العميد دوف سيئون رئيس وحدة الاتصال الاسرائيلى مع الجيش المصرى كان ذلك يوم صيفياً قاهرياً حاراً، وصلت درجة الحرارة فيه الى اكثر من اربعين درجة . وما ان وصلنا مع افراد الاتصال فى الجيش المصرى، الى المقابر العسكرية فى العباسية ، طلبنا التحدث مع الحارس المصرى كان الرجل يرتدى جلابية مصرية بيضاء واجاب على اسئلتنا بشكل منظم ومرتب وكأنه يحفظ الاجابة : فى هذه المقابر العسكرية مدفون « عندنا » ثلاثة اجانب فقد والباقى مصريون، الاول صينى والثانى مغربى والثالث تونسى . لا يوجد اى اسرائيلى ولتأكيد كلامه صمم على ان نذهب معه لنشاهد على الاقل قبر الصينى . وتقول شلوميت : قررت انه ليس هناك ما يدعونى لزيارة قبر الصينى لذلك انسحبت بهدوء من الجماعة وبدأت

اتجول بمفردى بين المقابر المصرية اننى لا اقرأ العربية ولكننى لاحظت فى الحال انه على كل الشواده توجد كتابه مشابهه كما هو متبع فى المقابر العسكرية وكنت متأكده من صدق المعلومات الموجودة لدينا ولذلك بحثت عن شاهد «اللوحة التى توضع على القبر»ذى طريق كتابة مختلفة اذا شاهدت اى شئ شاذ سوف استعين بنسيم ليفى مترجمنا الممتاز الذى حضر معنا وذهب مع المجموعة لزيارة قبر الصينى. حواس قالت لى انه من الافضل ان ابحث فى القبور الموجودة بجوار سور المقابر لأنه من الطبيعى انهم لن يدفنوا جندياً اسرائيلياً بين مقابر المنظمة للجنود المصريين .

بدأت الشمس تغرب وكانت الحرارة شديدة ومؤلمة . كنت امرأه اسرائيلية وحيدة التى تتجول بين شواهد القبور وقف رجال بجوار بعضهم وقرأوا أيات من القرأن وفى لحظة ساورتنى مخاوف ما اذا كان هذا تصرفاً سليماً من جانبى ان اسير بمفردى بين افراد عائلات الجنود الذين سقطوا فى الحرب ضدنا ولكننى تشجعت وواصلت السير نحو السور

وحقاً فى طرف المقابر بجوار السور، لاحظت شاهداً مهملاً طريقة الكتابة عليه مختلفة بصورة بارزة عن سائر الشواهد .

ناديت نسيم الذى وصل مع احد المرافقين لنا من رجال الاتصال المصريين اشرت الى الشاهد وطلبت من نسيم ان يقرأ لى ما هو مكتوب عليه وشحب وجه نسيم فجأه: شلوميت هذا هو القبر الذى نبحث عنه « ابقى هنا يا نسيم ، قلت له وجريت باقصى سرعة الى خارج المقابر لاستدعاء العميد سيئون الذى انتظرنا هناك مع المرافقين المصريين وعندما عدنا سألنا نسيم ما هو المكتوب على شاهد القبر واجاب قائلاً مكتوب هنا «مقبرة شهداء عدو»

ونظراً لعدم وجود رجل الحاخامية العسكرى ضمن وفدنا، فان التعليمات التى كانت لدينا لم تمكننا من ان نطلب فتح المقبرة لم تكن على ان الشاهد نفسه ايه اشارة يمكن بواسطتها معرفة هوية الجندى المدفون بها شرحنا وضعنا هذا لرجال الاتصال والمصريين

وطلبنا السماح لنا بتصوير هذه المقبرة . وبعد مناقشات طويلة فقط استجاب المصريون ووافقوا على طلبنا قمنا بتصوير المقبرة وعدنا الى اسرائيل استعدادنا للسفر مرة اخرى الى المقابر العسكرية فى العباسية استغرق وقتاً طويلاً لحد ما . وعندما عدنا الى هناك فى شهر فبراير ١٩٨٦ كنا نحمل تصديقاً من رؤسائنا لفتح المقبرة ولكن دون الاهتمام بأى رفات، اذا تم العثور عليها كان الشاهد العمودى للمقبرة الذى كانت مكتوبة عليه كلمات «مقبرة شهداء العدو » منصوباً على لوح كبير من الحجر الذى يغلق حجرتين تحت الارض تؤدى اليهما سلالم يمكن الوصول الى الحجرتين بعد ابعاد حجارة تغطى السلالم تم رفع اللوح الحجرى وكذلك الاحجار التى تغطى السلالم .تقول شلوميت ان دانى باهط رجل الاثار الذى كان نائباً لى هبط على السلالم الى داخل المقبرة ودخل حجرة الدفن وعثر على جثة ولكن بناء على التعليمات لم يرفع طبقة التراب الكثيفة التى غطت الجثة .

وكتب اسمه باصبعه الى طبقة التراب فوق الجيش وصعد عائداً ومعه زرارا بلاستيك وجدهما بجوار الجثة وتم اغلاق المقبرة وبعد فترة طويلة وعندما قدم لى سراً ما عثر عليه قال لدانى انه بموجب هذه الازرار عثرنا على جثة جندى كان قد سقط فى ايام حرب الاستنزاف. لم يظهر جسمه فى القوائم الموجودة معنا والتى تشمل فقط المفقودين من ايام حرب يوم الغفران عدنا الى الفندق وقمنا باستدعاء كبير حاخامات جيش الدفاع الاسرئيلى اللواء جاد نافون . وما ان وصل الحاخام الى القاهرة واحضر معه بناء على طلبنا وسائل اضاءة نزل بنفسه الى المقبرة وجد فوق رقبة الجثة قرصاً صغيراً وفى رهبة وحب قمنا بتنظيف ذلك القرص المعدنى . كان مكتوباً على القرص اسم ورقم الجندى الاسرائيلى يعقوب روينا الذى تم اختطافه بواسطة المصريين فى كمين نصبوه لدورية اسرائيلية على شاطئ القناة اثناء حرب الاستنزاف فى عام ١٩٦٨ ومنذ ذلك الوقت اعتبر مفقوداً .

هذا الاكتشاف اصاب كل الحاضرين بالذهول رجال الاتصال الاسرائيلى والمصريين على حد سواء هذا الذهول دفع رؤساء وحدة الاتصال المصرية لأن تعرض علينا نقل الجثة

الى اسرائيل فى نفس الليله فى نفس الطائرة التى كان وفدنا سيعود عليها الى اسرائيل اتصل بى رجل الاتصال المصرى وبسفارة اسرائيل وسأل اذا كان من الممكن الانتظار فى السفارة لحين حضوره مع رجل اتصال اسرائيلى . وتم تسليم جثمان الجندى يعقوب روينا طيب الذكر الى اسرائيل خلال ذلك اللقاء الذى تم معى فى مكتبى فى السفارة ، حيث طلبت عن طريق المندوب المصرى القيام بترتيبات مناسبة لكى يتم سفر الجثمان الى اسرائيل فى نفس الليلة.

تم اعادة يعقوب روينا ابن كيبوتس ايلون فى الجليل ليدفن فى اسرائيل بعد ١٨ سنه كان خلالها مفقوداً ذهبت شلوميت لرامى ودانى باهط الى الكيبوتس للاشتراك فى جنازة جثمان الابن الذى تم استعاده كل ابناء الكيبوتس اولاد وكبار ونساء ورجال وقفوا بجوار المقبرة وبكوا « وكأنه استشهد امس » قالت شلوميت على مسامع دانى واضافت قائلة لو ان المصريين حضروا هذا الموقف الحزين والمؤثر ربما شعروا ببعض ما يشعر به الآن افراد عائلة يعقوب وابناء الكيبوتس وربما شعروا مثلى بمغزى احضار مفقود لمقبرة إسرائيلية، حتى ولو بعد ١٨ سنه من يدرى ربما كانوا سيتفهمون جيداً الجهود التى لا تتوقف التى تقوم بها فى البحث عن المفقودين حتى يتم اعادة آخر مفقود الى الدولة .

فى هذا الموضوع « لا يصبح الموضوع قديماً » وممنوع اليأس : نحن الاسرائيليون حساسون جداً لمصير جنودنا الذين سقطوا فى الاسر فى ايدى العدو وكذلك المفقودون الذين قتلوا او لم يتم حتى الآن احضارهم لدفنهم فى اسرائيل فى بداية ١٩٨٢ بعد ان توليت مهام منصبى فى القاهرة بفترة قصيرة قمنا بالاعلان بأن اى مصرى سيؤدى الى الكشف عن جثمان اى شخص من المفقودين سيحصل على جائزة قدرها عشرة آلاف دولار.

وحقاً ففى ابريل ١٩٨٢ تلقينا معلومات بواسطة الاتصال العسكرى المصرى عن مكان مقبرة طيار فانتوم الذى تم اسقاط طائرته فوق محافظة المنصورة . وتم العثور على جثمان الطيار يونتان اوفير وقمنا بتسليم الجائزة وتم احضار يونتان لدفنه فى اسرائيل كتب لى

كبير حاخامات جيش الدفاع الاسرائيلي اللواء جاد نافون الذى حضر الى القاهرة لاستلام الجثة بعد عودته الى اسرائيل على كتاب تناخ ارسله لى اقدم لك كتاب التوراه هذا دليل على الشكر والاعتزار لمعاونتك المخلصة والمتفانية لعمل الخير من اجل هؤلاء الجنود المقدسين الذين سقطوا فى الدفاع عن وطننا الغالى وتقبل اطيب امنياتى وتحياتى »

بعد اعادة اوفير طيب الذكر لدفنه فى اسرائيل تبقى على ارض مصر ١٩ جندياً مفقودين من ايام حرب يوم الغفران : خمسة طيارين اثنان من افراد الكوماندو البحرى و١٢ من افراد الدبابات حاولت طوال فترة خدمتى فى القاهرة مع افراد الاتصال العسكرى الاسرائيلى ومع افراد وحدة حصر المفقودين ، ايجاد طريق لاقناع السلطات المصرية للمساهمة فى عملية البحث وقد طرح هذا الموضوع من حين لاخر مرات ومرات فى احاديثى مع رؤساء السلطة المصرية المدنية والعسكرية على حد سواء فى احدى جلسات اللجنة العسكرية المصرية الاسرائيلية المشتركة تحدثت كثيراً عن هذا الموضوع من خلال جهد للتأثير عليهم. واثناء حديثى قمت بعملية تمييز بين المغزى الدينى الذى يوجهنا بواجب ما نؤمن به لاحضار المفقودين لدفنهم فى اسرائيل وبين الواجب الاخلاقى الانسانى ، لاعادة العظام كما تعلمنا من العمل الاخير الذى قام به موسى على ارض مصر قبل خروجه من هناك مع ابناء شعبه عندما اخذ معه عظام يوسف واحضرها لدفنها فى اسرائيل واختتمت كلامى امام رجال الاتصال المصرى فى تلك الجلسة بأن امليت « برقية شخصية خاصة شفاهية طلبت من رئيس وحدة الاتصال المصرية تسليمها شخصياً الى المارشال ابو غزالة وزير الدفاع المصرى تتضمن طلباً مهذباً ولكن حازم بانهاء هذا الموضوع وفضلاً عن ذلك فاننى خصصت جزءاً ملحوظاً من حديثى مع رئيس الاركان المصرى آنذاك الجنزال ابو شناف خلال توديعى له عشية انتهاء خدمتى فى القاهرة لموضوع حصر المفقودين فى بداية عملى فى القاهرة التقيت اثناء احدى زياراتى لاسرائيل بامرأة عجيبة لم التق بمثلها حتى اليوم: السيدة باتى كهان عضوه كيبوتس دجنياه أ التى تقترب فى تلك الايام من الثمانين

من عمرها . هذه المرأه ابنها عران كهان ملاح الطائرة الفانتوم التى تم اسقاطها فوق محافظة المنصوره والتى تم العثور على جثة طيارها يونتان اوفير طيب الذكر واعيدت الى اسرائيل بذلت ومازالت تبذل حتى اليوم ليل نهار مجهوداً لاقناع السلطات المصرية بالسماح لنا لمواصلة البحث عن جثة ابنها الملاح عران وعن جثث باقى المفقودين لم تترك السيدة كهان احداً الا ولجأت اليه ولم تكف عن ذلك حتى اليوم لقد كتبت آنذاك الى الرئيس السادات والى حرمه جيهان وعادت وكتبت الى الرئيس مبارك عندما تولى مقاليد السلطة، ولجأت شخصياً ايضاً الى حرمه السيدة سوزان مبارك ـ طلب من ام الى ام ـ لقد كتبت الى رؤساء الولايات المتحدة الامريكية والى الرئيس ميتران والى رؤساء المنظمات اليهودية فى الولايات المتحدة الامريكية وبالطبع الى رؤساء اركان جيش الدفاع الاسرائيلى والى رؤساء الاتصال العسكرى الاسرائيليين والمصريين قبيل نهاية عام ١٩٨١ ، وعندما قامت السلطات المصرية بلفته خاصة ، قبل موعد اعادة سيناء ، وسمحوا لاسر المفقودين للحضور الى مصر وزيارة المواقع التى سقط فها ابناؤهم حضرت باتى كهان ايضاً معهم الى القاهرة بقيت باتى التى لم تتمكن آنذاك لاسباب صحية من السفر الى محافظة المنصورة التى سقطت فيها طائرة ابنها عران فى القاهرة ولكنها صممت على ان يسمحوا لها بأن تضع اكليلين من الزهور على مقابر الجندى المجهول وعلى قبر الرئيس الراحل السادات لباتى كهان التى كنت على علاقة شخصية مستمرة معها سواء لتشجيعها وسواء لتقوية صبرها حساسية خاصة للزهور انها تحب الزهور للغايةاذات مرة حكى يحيئل كديشاى لباتى كهان ان حكيم صينى فقد كل ثروته وتبقى معه مليمان اشترت خبزاً بالمليم الاول وبالثانى وردة ذات يوم ارسلت لى باتى الى القاهرة مجموعة من الصور الرائعة لزهور الدولة وقد اخذت هذه الصور ووضعت كل صورة فى برواز وعلقتها على حائط خاص فى مدخل مكتبى فى سفارتنا فى القاهرة اردت ان تُذكِر هذه الصور بشكل دائم سلك السفارة بالواجب الملقى على عاتقنا بالعمل باستمرار من اجل العثور على المفقودين طلبت من باتى السماح بأن اكتب اهداء خاصاً باسمها فوق هذه الصور رفضت باتى بشدة ووافقت فقط بعد ان اقترحت عليها بأن اضيف الى جوار

اسمها تلك الكلمات « ام المفقودين » علقت الصور على الحائط واضفت العنوان نظرت الى الحائط وقلت لاعضاء سلك السفارة بانه لا يوجد اجمل من تلك الصور نقدمها للمفقودين لان الجنود انفسهم زهور. زهور الدولة.

على الرغم من العمل الضخم والدائم الذى قمنا به للبحث عن المفقودين فقد كان من الواضح انه معدل الاستجابة المصرية لطلباتنا المتكررة فى هذا الموضوع لم يتفق والاهمية التى نوليها للموضوع لان المقصود بتسعة عشر مفقوداً فقط مقابل المئات الكثيرة التى تم العثور عليهم واعيدوا الى الدولة منذ الموافقة على هذا الموضوع الذى توصل اليه اللواء اهارون ياريف والجنرال عبد الغنى الجمسى فى لقاءاتهم عند الكيلو ١٠١ بعد حرب يوم الغفران.

كما انه بالنسبة لمعظم التسعة عشر، فهم آخر المفقودين لدينا « طرف خيط » ومعلومة التى قد تقودنا الى المكان الذى دفنوا فيه ومن الضرورى ان نحاول القيام بعملية خاصة مشتركة ومركزه وذلك من خلال محاولة لانهاء هذا الموضوع التراجيدى والانسانى والقيام عن طريق ذلك بآخر عمل خيرى تجاه ابناء الاسر الثكالى المفقودين وكذلك لكى نزيل من جدول الاعمال فترة حساسة ومزعجة جداً فى هيكل العلاقات بين اسرائيل ومصر .

وحتى اليوم لا افهم اسباب بطء الاستجابة لطلباتنا المتكررة فى هذا الشأن هل المقصود بعدم وجود حساسية مصرية لموضوع انسانى من الدرجة الاولى حساسيتنا نحوه كبيرة للغاية ما هو حجم الرغبة الطيبة التى كان المصريون سيجدونها عندنا لو قاموا بهذه المهمة الانسانية ؟ يبدو لى ان المصريين لا يعملون فى هذا الموضوع بشكل يتفق وتوقعاتنا وفى بعض الاحيان وخاصة على ضوء الملاحظات التى كان يرددها المصريون على مسامعنا من حين لاخر، كان يبدو لى انهم لا يدركون المغزى العميق الذى نوليه لهذا العمل الانسانى للكشف عن جثث ابناء مدفونين فى مكان غير معروف ، بعيداً عن عائلاتهم التى نجد ان كل امنيتها هى دفن ابنائهم فى مقبرة يستطيعون الذهاب اليها، هذا الموضوع الهام جداً

موضوع انعدام اهتمام مصرى مناسب باحاسيسنا وفى بعض الاحيان - المتباعدة جداً - انعدام احساسنا بمشاعرهم، شغلنى واقلقنى جداً فى فترة خدمتى فى القاهرة لقد تجلى هذا الموضوع فى مجالات عديدة وادى الى شعور بعدم الارتياح لدى الطرفين . اننى اتذكر جيداً تلك الليلة الفظيعة لحادث القتل فى رأس بورقة والذى جعلنى ابذل مجهوداً كبيراً استغرق ساعات لكى احث السلطات المصرية على السماح باخلاء ونقل المصابين فوراً الذين كانوا يعانون من اصاباتهم على شاطئ سيناءعلى مسافة ستين او ثمانين كيلو متراً من ايلات لم يجرؤ اى اقند محلى على تحمل المسئولية والسماح بنقل المصابين فوراً الى الدولة لم يكن هذا من صلاحيته قال محافظ شمال سيناء. التدخل الشخصى فقط للمارشال ابو غزالة وزير الدفاع الذى كنت على اتصال تليفونى به طوال تلك الليلة المرعبة هو الذى ادى الى نقل المصابين ابو غزالة نفسه وجه على مسامعى انتقادات عنيفة بكلمات لاذعة جداً لذلك المحافظ « اذا كان يعتقد ان ذلك ليس من صلاحيته » قال لى ابو غزالة - كان عليه، على ذلك المحافظ، ان يتصل فوراً برؤسائه ويطلب الحصول على تصديق منهم بدلاً من اضاعة وقت ثمين واتذكر ايضاً جزئيات هذه القضية المؤلمة عندما ظهر بعكس طلبى الصريح بعدم اخفاء حقيقة مقتل اولاد ونساء ورجل واحد عن الجمهور المصرى، فى صباح اليوم التالى فى الصحافة المصرية خبر عن ذلك ان « سائحين » قتلوا فى حادث وبعد ان حولت المعارضة المصرية القاتل سليمان خاطر « لبطل قومى » اصدرت الحكومة تعليمات الى محررى الجرائد بكتابة الحقيقة كلها وكتب هؤلاء واعترفوا بجرم اخفاء الحقيقة عن القراء اتذكر ايضاً جيداً طلبى المتكرر من وزير الخارجية المصرى عصمت عبد المجيد لانهاء ذيول هذه القضية المأساوية بسرعة واصدار قرار فورى بدفع تعويضات لاسر القتلى لانهاء هذه القضية البائسة فوراً وانزالها من جدول اعمال هيكل العلاقات بين مصر واسرائيل القرار المصرى بشأن حجم التعويضات التى ستدفع الى اسر القتلى والتى كانت مرضيه لاسر القتلى ولنا ايضاً لم يتخذ الا بعد ثلاث سنوات ونصف جرح مفتوح فى هيكل العلاقات بيننا وبين مصر والذى تسبب - وعن حق - فى مرارة شديدة فى اسرائيل سواء على المستوى العام

او المستوى الرسمى جرح غائر لا لزوم له علي الاطلاق فى موضوع كان من الضرورى انهاؤه بسرعة.

فى مثل هذه الاوقات التى نشاهد فيها مظاهر تدل على انعدام الاحساس المصرى باحاسيسنا وفى حالات نادرة جداً لمظاهر انعدام احساسنا بمشاعر المصريين ، يتواجد السفير الاسرائيلى فى القاهرة وسط هذه الاحداث ويحاول جاهداً ابعاد حالات سوء التفاهم التى تضر وتعكر فرحة السلام وتترك السفير حائراً فى تفسير مثل هذه الظواهر التى ليس لها مكان بين الشعوب التى قررت ان تعيش فى حسن جوار وسلام هل هذه ظاهرة تنتمى «الى امراض الصبا» للسلام ؟ ام انه ربما بعد اكثر من عشر سنوات سلام مازلنا لا نعرف المصريين بدرجة كافية ، تماماً مثلما هم بعداء جداً ، عن معرفة جيرانهم الاسرائيليين؟

لو... :

فبراير ١٩٧١ القى انور السادات خطاباً فى مجلس الشعب خطاباً سياسياً هاماً للغاية استمعت اليه ثم استمعت لتسجيل الخطاب فى منزلى فى القدس فى تلك الفترة كنت اشغل منصب نائب مدير عام وزارة الخارجية لشئون الشرق الاوسط ، وكان انطباعى هو اننا على مشارف بداية تحول فى سياسة الرئيس المصرى اجرينا مناقشة فى وزارة الخارجية برئاسة وزير الخارجية ابا ايبان ومدير عام الوزارة جدعون روفائيل وتحدثت عن انطباعى عن الخطاب الهام والفريد للرئيس المصرى واختتمت كلامى قائلاً بان انطباعى هو ان الرئيس المصرى مستعد للتوقيع على اتفاقية سلام على اساس اعادة السيادة المصرية على سيناء كلها وتأثر ابا ايبان للغاية ، وقرر طرح الموضوع خلال حديث مع رئيس الوزراء السيدة جولدا مائير بعد ذلك بفترة قصيرة احضر لنا الدكتور جوناردیارنج اجابات انور السادات على مجموعة اسئلة عرضها عليه وكانت بين الاجابات اجابة مضمونها حول استعداد مصر للتوقيع على اتفاقية سلام مع اسرائيل اقتراح مصرى للبدء فى خطوات انتقالية بواسطة نقل سبعمائة شرطى مصرى الى الضفة الشرقية للقناه قوبل بالرفض من

جانب وزير الدفاع موشى ديان ورئيس الوزراء السيدة جولدا مائير بعد ذلك بايام قليلة كنت فى شقة شقيقتى الجراه وظهر فجأه موشى ديان صديق زوج شقيقتى رافى ليفى. لقد جاء من جلسة فى مطبخ جولدا التى تسكن امام شقيقتى وصعد لتناول قدح من القهوه رويت له عن انطباعى عن خطاب السادات وقلت : اذا اعدنا للسادات السيادة على كل سيناء فقد يوقع معنا على ميثاق سلام ورد ديان قائلاً « حتى فى القبر لن اعيد له كل سيناء »وسألته لماذا » وشرح ديان الاهمية الاستراتيجية لسيناء.

وابديت ملاحظة بأن السبب الذى بسببه يريد هو - ديان - الانتصار في الحرب « استمرار الاحتفاظ بسيناء » سيكون هو نفس السبب الذى سيجعل مصر تشن حرباً ضدنا ورفض ديان هذا القول. شرب القهوه وعاد الى مطبخ جولدا .

سنوات ، سنوات كثيرة بعد ذلك وانا سفير فى مصر. كنت ضيفاً فى منزل كمال حسن على، الذى اضطر الى الاستقالة من منصب رئيس الوزراء بسبب حالته الصحية غير المستقرة وفكرت : ما اعجب نظم العالم : اتفاقية السلام التى رافقها من بدايتها هى التى قادته بمرور الوقت الى رئاسة حكومة مصر . واصاباته فى الحرب معنا هى التى اجبرته الآن فى فترة السلام لترك منصبه كان يرتدى بدلته الرمادية وحذاء منزلياً مغطى بالفرو وكنت ارتدى بدله بيضاء ، وجلسنا وتحدثنا كصديقين حقيقيين يتبادلان ذكريات ويحاولان بنظرتهما معرفة ما ستحمله مصر المستقبل .

وقد حضر اصدقاء اقرباء لكمال حسن على وانصرفوا . لقد حضروا لتشجيعه وتمنوا له الصحة وطول العمر . ودخل شخصان رفيعا المستوى، جنرالان على المعاش حاربا معه فى حرب يوم الغفران : وقدمنى كمال حسن على لهما وقدما نفسيهما لى. الذكريات التى طرحاها الآن كانت من نوع آخر عن الحرب وعن الاصابة عن عبور القناة فى السادس من اكتوبر وعن المفاوضات عند الكيلو ١٠١ مثل هذه الاحاديث فى فترة السلام، طبيعية جداً فى مصر حتى بحضور واشتراك الاسرائيليين. اى طرف لا يشعر بحساسية بل العكس

يوجد فضول متبادل لمعرفة ما فكر فيه الطرف الثانى في لحظة معينة فى اعقاب اجراء معين.

ذكرت خطاب السادات فى فبراير ١٩٧١ وخطاب السادات الى يارنج وسألت المضيف وضيفيه الكبيرين « سؤالاً نظرياً » لو كانت اسرائيل قد استجابت فى عالم ١٩٧١ لكل توقعات انور السادات فى تلك الايام هل تعتقدون ان الرئيس السادات كان مستعداً آنذاك «اى حوالى عامين قبل حرب يوم الغفران » للتوصل الى اتفاقية سلام مع اسرائيل على اساس انسحاب كامل من كل سيناء ؟ اجاب احد الجنرالات الثلاثة على المعاش دون تردد قائلاً : ليس لدى ادنى شك فى ان السادات كان مستعداً آنذاك لعملية السلام وكان سيوقع آنذاك على اتفاقية سلام مع اسرائيل بشرط ان يستعيد السيادة الكاملة على كل سيناء السيادة الكاملة حتى آخر مليمتر .

واختلف معه الجنرالان الاخران : « بدون عملية العبور - هذا ما يطلقه المصريون بالعربية على عبور القناه فى يوم الغفران - لم يكن السادات يستطيع - حتى لو اراد ذلك - القيام بمسيرته التاريخية .

كان من الضرورى التخلص من شبح الهزيمة فى حرب الايام السته، وقد كان هذا ممكناً فقط بواسطة قتال مباغت يساعد على عبور القناة واحتلال بضعة كيلو مترات فى عمق سيناء فى الشرق وهم يرون ان حرب التحرير كانت حتمية . حرب وانتصار جزئى فورى كبداية تغير المعطيات الاستراتيجية فى المنطقة، وتوفر نقطة بداية جديدة مختلفة للمفاوضات خرجت من ذلك الحديث غارقاً فى خواطر وافكار. فالمسافة من منزل كمال حسن على حتى منزلى تستغرق بالسيارة حوالى نصف الساعة . وضعت فى سيارتى مصباح قراءة ودائماً كان فى السيارة بلوك كتابة وتناولت ورقة وحاولت تسجيل الخطوط العريضة لخواطرى : رأيان متناقضان تماماً حول موضوع مصيرى الحرب والسلام. الاراء موزعة بصوره غير متساوية أثنان مقابل واحد. ولكن ليس هناك مغزى لذلك وذلك لانه ليس

المقصود بعينه تمثل مجموعة من الاراء الشئ الهام هو حقيقة ان الاجابة ليست موحدة فى مصر - واصلت التفكير - كما هو الحال فى كل الدول العربية فى الشرق الاوسط :كل شئ يتم بواسطة الرئيس . كل القرارات الهامة بما فى ذلك قرارات عن الحرب او السلام - هى قرارات شخص واحد : « الزعيم » وكثيراً ما يحدث ان الرئيس لا يكشف ما بداخل قلبه لاى شخص كان « تقدير موقف » لا يمكن ان يجيب على السؤال ما الذى يدور داخل عقل الزعيم وبالذات فى حالة الحرب ليس لاسرائيل مصاعب خاصة لانها من الناحية العسكرية مستعدة دائماً لاسوأ الحالات . ولكن ماذا بشأن احتمالات السلام ؟ لا يوجد هنا شخص يستطيع ان يعرف النيات الحقيقية لاى زعيم عربى وعلى ذلك فان السؤال الرئيسى هو كيف نضمن بأن فرص السلام لن تهدد ؟ حتى اللحظة الاخيرة ارتاب رئيس اركان جيش الدفاع الاسرائيلى الاسبق الفريق « احتياط » مردخاى جورفى نوايا الرئيس السادات عندما اعلن عن استعداده للحضور الى القدس .

بعد ذلك الحديث الذى دار فى منزل كمال حسن على وبالذات لان ثلاثة جنرالات مهمين جداً اختلفوا معاً فى ارائهم بشأن احتمالات السلام فى فبراير ١٩٧١ وجدت نفسى اتوصل الى استنتاج واحد : حتى وان كان تقديرنا القومى هو انه لا يوجد احتمال حقيقى للتوصل الى سلام ، وبالذات بسبب ريبتنا المحقة فى حد ذاتها فانه لزاماً علينا دائماً : ان نحاول. لانه ما الذى سنخسره اذا اتضح من البدية انه لا يوجد احتمال حقيقى للسلام، وفشلت جهودنا . نستطيع حينذاك ، على الاقل ان ننظر فى اعين اولادنا واحفادنا وان نقول لهم بضمير صاف اننا من جانبنا بذلنا كل ما نستطيع . ويا حبذا لو اثمرت جهودنا .

الفصل السابع

سلام وتنمية زراعية

وزير الزراعة اريك شارون :

فيما بعد وجدت رمزية كبيرة فى حقيقة لقاء العمل الاول لى مع الرئيس السادات كان بالذات حول موضوع الزراعة .

قبل تقديم اوراق اعتمادى الى الرئيس المصرى صباح الحادى والعشرين من مايو ١٩٨١ بيوم واحد وصل الى القاهرة وزير الزراعة الاسرائيلى آنذاك اريك شارون وتم ترتيب لقاء له مع الرئيس فور انتهاء مراسم تقديم اوراق اعتمادى . تقرر ايضاً ان اشترك انا وكذلك مساعدى الرئيس والوزير فى لقاء الرئيس مع اريك شارون بعد ان قدمت اوراق اعتمادى ، دعانى الرئيس كما هو متبع لاول محادثات تعارف هذه المحادثات استغرقت وقتاً اطول من المعتاد ، وظهر جلياً ان الرئيس كان يرغب فى استمرار هذه المحادثات ودخل رئيس المراسم مرتين الى الحجرة واشار الى الرئيس بان الوزير شارون ينتظر فى الخارج وامر الرئيس رئيس المراسم ان يطلب من الوزير الاسرائيلى التحلى بالصبر والانتظار لحين انتهاء المحادثات معى. فى هذه المحادثات الشخصية الاولى تحدثنا ايضاً عن المبادرة التاريخية للرئيس السادات ، عندما اتخذ خطوة حاسمة للحضور الى القدس فى هذا الجزء من المحادثات ابدى الرئيس السادات ملاحظة امامى « يجب ان تعرف سيدى السفير (كان يخاطبنى قائلاً سيدى السفير فقط فى اول لقائين بيننا وبعد ذلك كان ينادينى باسمى بينما حرصت حتى اليوم الاخير له على مخاطبته بلقبه الرسمى) يجب ان تعرف قال الرئيس السادات انه فقط مع ثلاثة زعماء فى اسرائيل استطيع القيام بمبادرتى والحضور الى اسرائيل :مع بن جوريون ، ومع العجوزة اى جولدا مائير ومع مناحم بيجن وذلك لاننى لا اعمل الا مع زعماء اقوياء بسبب قدرتهم على اتخاذ القرار ومصداقيتهم على تنفيذ قراراتهم. واضاف الرئيس « صحيح ان ذلك ليس سهلاً على الاطلاق التفاوض والتوصل الى نتيجه مع مناحم بيجن ولكن رأيى هو اذا توصلت الى اتفاق معه سينفذه بالكامل » وقد كرر الرئيس السادات هذه الجملة بعد حوالى نصف الساعة وكررها ايضاً بعد ذلك على

مسامع الوزير اريك شارون. بعد انتهاء محادثاتى مع الرئيس خرجت من قصر عابدين الى الفناء الرئيسى هناك وقفت مرة اخرى امام الموسيقى العسكرية التى عزفت النشيد الوطنى الاسرائيلى والنشيد الوطنى المصرى الجديد « بلادى - بلادى » وتطلعت بطرف عينى الى الطابق الاول للقصر ولمحت الرئيس السادات واريك شارون اللذين اوقفا محادثاتهما فى تلك اللحظة لكى يشاهدا من النافذة المراسم التى تجرى فى الفناء تكريماً لى والاستماع معاً الى السلام الوطنى لاسرائيل ومصر، وبعد ذلك بفترة طويلة قال لى اريك شارون ان تلك اللحظات كانت من اللحظات المؤثرة جداً فى حياته وحقاً فقد ادركت بمرور الايام اكثر من مرة انه بسبب هذه الفرقة الموسيقية العسكرية المصرية التى عزفت نشيد « هاتكفاه » احتفظ الوزير شارون فى قلبه بنقطة دافئة جداً لمصر وللرئيس السادات ولهؤلاء الجنود المصريين المجهولين اعضاء الفرقة الموسيقية العسكرية المصرية.

بعكس قواعد المراسم التى تفرض اعادتى بسيارة الرئاسة الى منزلى او الى السفارة تم الاتفاق مع المصريين بانه فور انتهائى من استعراض حرس الشرف المصرى واودع قائدة تقلنى سيارة الرئاسة الى خارج سور القصر ومن هناك اعود الى القصر من بوابة دخول خلفية بجوار تلك البوابة انتظرنى رئيس المواسم المصرى الذى اسرع معى للذهاب للانضمام الى محادثات وزير الزراعة الاسرائيلى مع الرئيس المصرى. عند دخولى الغرفة استقبلنى الرئيس وكذلك اريك شارون متمنين لى النجاح فى عملى فى القاهرة واضاف الرئيس قائلاً انه مسرور جداً لان اول مجال سأهتم به « بعد ان اصبحت سفيراً معتمداً هو موضوع فعال موضوع الزراعة الذى يهتم به جداً وتحدث اريك شارون بعد الرئيس ولكنه اخطأ وتجاوز القاعدة باننا لا نمتدح الانسان فى وجوده وذهب بعيداً فى مدحى امام الرئيس» ورد الرئيس قائلاً حقاً لقد اجريت محادثات طيبة جداً وموضوعية للغاية مع السفير باستثناء الرئيس اريك شارون حضر هذا اللقاء ايضاً نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية كمال حسن على ، وزير الزراعة المصرى آنذاك الدكتور محمود داود ووزير الاعلام المصرى

والمسئول عن شئون الرئاسة منصور حسن وكذلك البروفيسور بوهرليس المسئول عن التعاون الزراعى مع مصر فى وزارة الزراعة الاسرائيلية وكذلك السيد ايلى لنيادو الذى شغل اليوم منصب رئيس مدينة هرتزليا وكان آنذاك الذراع الايمن المقرب لوزير الزراعة الاسرائيلى.

امر الرئيس السادات احد السكرتارية بأن يحضر له خريطة مصر وعاد السكرتير بعد دقائق قليلة ومعه خريطة من النوع الذى يقدم للسائحين حجمها حوالى متر×متر ونظر السادات الى اعين السكرتير المسكين وصاح فيه : هل هذه هى مصر فى نظرك ؟ متر×متر؟ لقد طلبت خريطة مصر. خريطة كبيرة ... وخرج السكرتير من الحجرة مهرولاً ولم تمض لحظات كبيرة وفتح باب الحجرة التى نجلس فيها على مصراعيه ودخل اربعة من السكرتارية يحملون خريطة لمصر ضخمة الحجم على ما يبدو انهم نزعوها من مفترق احدى حوائط القصر. وقال الرئيس بارتياح الى السكرتير المسكين الذى كان مشغولاً فى ذلك الوقت مع زملائه الثلاثة الاخرين يحمل الخريطة التى وضعت فى وسط الحجرة «حقاً هذه هى مصر» نهض الرئيس السادات من مكانه وقمنا نحن خلفه. اقترب من الخريطة وجلس امامها على السجادة بطريقة خاصة واشار بيديه نحونا فى الحال جلس الى يمينه على السجادة بطريقة خاصة ايضاً اريك شارون ، وجلست انا وكمال حسن على ووزير الزراعة المصرى داود بطريقة شرقية على يسار الرئيس . وخلفنا جثموا على ركبتهم البروفيسور بوهرليز، منصور حسن وايلى لنيادو اراد الرئيس ان يعرض على اريك « الوادى الجديد » الموجود فى صعيد مصر على مسافة من حدود السودان بالقرب من الصحراء الغربية الجنوبية وقال الرئيس مؤكداً « هذا هو المستقبل الزراعى لمصر » « اود ان يطير الوزير شارون الى هناك فى الحال ويشاهد المكان بنفسه : لدينا هناك ارض طيبة ، لدينا مزارعون مصريون ممتازون نستطيع احضارهم الى هناك ولدينا اليوم ايضاً شارون ولذلك يجب البدء فى العمل فوراً بشكل كامل وبسرعة.

وضعت طائرة نائب الرئيس آنذاك حسنى مبارك تحت تصرف وزير الزراعة

الاسرائيلى والوفد المرافق له من احب الاشياء لاريك شارون ، وفى كل منصب تولاه ، هو دراسة المنطقة جيداً ، واذا كان فى الامكان القيام بذلك فمن الافضل القيام بذلك عن طريق الجو اقترح الرئيس السادات بأن يبدأ اريك نشاطه الزراعى فى مصر بالقيام بالتحليق فوق « الوادى الجديد » اتفق بشكل رائع مع طريقة عمل اريك شارون ولكن فى هذه المرة بعكس نشاطاته العديدة فى الماضى طار اريك شارون فى سماء مصر بصحبة طيارى سلاح الطيران المصرى ، الذين كانوا من قبل على الجانب الثانى من الحدود كان هدف هذه الجولة الجوية هو التعرف وجمع بيانات ليست لاغراض الحروب والمعارك بل بغرض التنمية الزراعية، لاغراض « الامن الغذائى » على حد وصف الرئيس السادات بل واقام وزارة خاصة تحمل هذا الاسم.

« هذه الجولة منحتنى مفهوماً دقيقاً عن حجم افكار التنمية الكبير للسادات وعن شكل المنطقة لاشك ان المقصود هنا بمشاريع هائلة » قال اريك شارون بعد هذه الجولة الخاصة لم يتخيل من قام بتعيين اريك شارون وزيراً للزراعة فى اسرائيل انه قد يدفع بمنصبة هذا التقاون فى مجال التنمية الزراعية بيننا وبين جارتنا ، التى وفق زعيما الدولتين فى اخراجها من دائرة الحروب . الترهل والدمار .

اخوه فلاحون :

عند التوقيع على اتفاقية السلام مع اسرائيل فى عام ١٩٧٩ كانت الزراعة فى مصر الفرع الرئيسى فى الاقتصاد المصرى: سواء من ناحية الناتج القومى « ٣٠٪ » وسواء من ناحية العمالة (٤٧٪) وسواء كمصدر رئيسى لعائدات العملة الصعبة (٧٠٪) بما فى ذلك الغزل والنسيج بالمقارنة بالزراعة فى اسرائيل كانت الزراعة المصرية ضعيفة اساساً : على الرغم من ان المناطق الزراعية فى مصر كانت خمسين ضعف المناطق الزراعية فى اسرائيل وكذلك على الرغم من ان كمية المياه التى كانت مستخدمة للزراعة فى مصر خمسة واربعين ضعف الكمية المستخدمة فى اسرائيل فان الناتج الزراعى فى اسرائيل كان اكبر ثلاثة

اضعاف ونصف للفرد وكذلك عشرة اضعاف لمن يعمل بالزراعة واحد عشر ضعفاً للمتر المكعب من المياه بالمقارنة بمصر ورغم انهما متجاورتان فقد كان الفارق فى الزراعة بارزاً تماماً: فى اسرائيل كانت الزراعة متقدمة جداً ، غنية بالمعرفة والتكنولوجيا بينما كانت الزراعة فى مصر غنية بعوامل انتاج طبيعية وتقليدية وقد اتضح لى بعد ذلك ، دون ادنى شك انه حقاً كان اساس التحول السياسى التاريخى للرئيس السادات هو التطلع الشديد لاستعادة سيناء ولكن اتضح لى ايضاً بنفس الدرجة ان التطلع الثانى للسادات كان التخلص من ضائقة واهوال الحروب وذلك لوضع عملية تنمية الدولة بما فى ذلك الزراعة على رأس جدول الاولويات وبمعدل سريع ، فى عصر السلام والاستقرار الداخلى . وحقاً فقد طرح الرئيس السادات خلال احد لقاءاته مع رئيس الوزراء مناحم بيجن فكرة التعاون بين مصر واسرائيل فى مجال الزراعة وقد رحب رئيس وزراء اسرائيل بالفكرة وبذلك اعطى الاشارة للخبراء من الجانبين للبدء فى الاتصالات فى هذا الموضوع .

« العقل الرئيسى » الاسرائيلى - الذى يترأس نشاطنا الزراعى فى مصر هو البروفيسور شموئيل فوهريلز الذى كان يرأس آنذاك هيئة التخطيط الزراعى فى وزارة الزراعة فى اسرائيل البروفيسور فوهريلز انسان لطيف للغاية ، عظيم المعرفة ذو خبرة كبيرة ونظراته الثاقبة تجاه من يتحدث معه عميقة جداً وتضفى مصداقية وصلاحية - اصبح محبوباً جداً وبسرعة عند المصريين ، رغم انه كان بمثابة اجنبى ولم يعرف اية كلمة عربية كان على البروفيسور فوهريلزان يدرس الوضع وان يعرض على الوزيرين وزير الزراعة الاسرائيلى ووزير الزراعة المصرى الغابات وبعد التصديق عليها يبدأ فى التنفيذ . وكان دورى مزدوجاً - الاولى تجاه المصريين ، اى فى حالة ظهور مصاعب او تعقيدات جادة فى تنفيذ الانشطة ، اذهب الى وزير الزراعة لتجنيده شخصياً لدفع المشروع والثانى تجاه البروفيسور فوهريلز : اولا ان اؤكد امامه باستمرار بأنه محظور عليه ان يفشل لاننا اذا فشلنا فإنه فى هذه الحالة ليس فقط ستصبح صورتنا سيئة ونلحق ضرراً بهيكل علاقاتنا مع مصر، بل اننا قد نلحق بفشلنا ضربة قاصمة باحد الآمال الهامة جداً للفلاح المصرى:

اردنا التخلص من الضائقة المادية الصعبة التى كان يعانى منها هو واسرته الفقيرة. وكان دورى الاخر تجاه البروفيسور فوهريلز هو تلقينه كيف يعرض ملاحظاته وكلامه امام زملائه المصريين الذين كانوا - مثل سائر المصريين - حساسين للغاية اذا نظرت الى الوراء الى ذلك التعاون الرائع الذى تطور بمرور الاعوام بين البروفيسور فوهريلز وبينى لا اندهش ابداً : لقد اعتبرنا عملنا هذا « عملاً طبيعياً » وعملاً مقدساً تماماً بموجب وجهه نظر البروفيسور فوهريلز لا يعتبر النقص فى الغذاء فى الدول النامية كارثة طبيعية. وفضلاً عن ذلك فان فوهريلز لا يعتبر نقصاً من هذا القبيل بمثابة مشكلة قدرة زراعية كان ذلك فى نظره، على المدى القصير بمثابة مشكلة للسياسيين وواضعى السياسة، وعلى المدى البعيد كان ذلك يمثل فى نظره مشكلة استيعاب تكنولوجيا وتقدماً زراعياً بيولوجياً وتحسينات وراثية وكذلك مشكلة تخطيط سليم وتنظيم فعال وفوق كل هذا - مشكلة انسانية من الدرجة الاولى « المقصود باستخدام العلم كعامل اساسى ورئيسى فى الانتاج الزراعى كان البروفيسور فوهريلز المحبوب يقول لى دائماً من حين لاخر. « ومشكلتنا هنا - كنت اقول بعده - هل فى مقدورنا، ليس تنمية مصر لأن المصريين فقط هم القادرون على القيام بذلك، بل - فى مقدورنا المساهمة بخبرتنا من حالات فشلنا ومن نجاحاتنا بأى مساهمة تؤدى الى حدوث تحول فى المفهوم وفى العمل الزراعى التقليدى فى الزراعة ذات السبعة آلاف سنه».

فى شهر ابريل ١٩٨١ قبل وصولى الى القاهرة بشهر وبعد مرور سنه على عمليات جس النبض والاتصالات الاولى بين الخبراء الاسرائيليين والمصريين قام الرئيس السادات بدعوة البروفيسور فوهريلز الى منزله الريفى فى ميت ابو الكوم الذى حضر الى هذا القاء مع البروفيسور افرايم دوفك، الذى كان آنذاك مسئولاً مؤقتاً عن سفارة اسرائيل فى القاهرة [والذى اصبح بعد مرور تسع سنوات السفير الرابع لاسرائيل فى مصر] ومع اسحاق اورون المفوض المستشار فى السفارة لشئون الزراعة والثقافة وحضر هذا اللقاء الريفى من الجانب المصرى نائب الرئيس السادات، حسنى مبارك ووزير الزراعة المصرى

الدكتور محمود داود طلب السادات ان يعرف شخصياً انطباعات الاسرائيليين عن المحاولات الاولية وعمليات جس النبض الاولى هنا وهناك وبعد ذلك تحديد اهداف محدودة جداً للتعاون الزراعى بين الدولتين، فى ذلك اللقاء حدد الرئيس السادات قائلاً : لا تذهبوا الى الدلتا، اذهبوا الى المناطق الجديدة « مشروع استصلاح ارض بكر صحراوية باساليب رى حديثة » لديكم ايها الاسرائيليون كل شئ : لديكم المعرفة التكنولوجية وانتم غير محافظين. العكس انتم مفتوحون لتغيرات وتحولات. فى هذه النقطة ابدى البروفيسور فوهريلز ملاحظة بان مصر لديها مياه بكمية تزيد خمسة واربعين ضعفاً عن الكمية المتاحة لاسرائيل وابدى اسحاق اورون حاد النظر الذى تمكن من خلق اتصالات اولية مع المزارعين المصريين من جانبه ملاحظة « بأن مصر تمتلك ليس فقط مياهاً بوفرة بل ايضاً مزارعين ممتازين وقاطع الرئيس السادات اورون قائلاً : « حقاً الاشخاص ممتازون لا شك فى ذلك ولكنهم محافظون جداً. من الصعب عليهم قبول اى شئ جديد او قبول تطويرات وهذه هى مشكلتى معهم »

فى تلك الايام كنا نقوم بنشاط زراعى ليس فى الاراضى الجديدة بل بالذات فى وسط الدلتا: فى مزرعة الرئيس نفسه فى قريته ميت ابو الكوم وفى مزرعة جميزه الموجودة على مسافة غير بعيدة من المكان الذى قال انه كانت به مدن بيتوم ورعمسيس ايام الفراعنة. ذهبنا للعمل فى هذين المكانين بناء على توصية وقرار وزير الزراعة المصرى آنذاك الدكتور محمود داود مع دخول اريك شارون الى النشاط الزراعى فى مصر بعد مرور شهر من اللقاء الذى تم فى ميت ابو الكوم حصل المشروعان جميزه ومزرعة الرئيس على دفعة قوية للامام من خلال تشاور مع وزير الزراعة المصرى وبناء على طلبه وقراره الصريح الذى تعارض ما امنية الرئيس استجبنا للوزير المصرى وفضلنا الاستمرار فى المرحلة الاولى فى هذين المشروعين لعدة اسباب : اولاً . كان علينا ان نحترم قرار المسئول المباشر عن الزراعة فى مصر « وزير الزراعة » صحيح ان الوزير داود اراد ان ننتقل الى الاراضى الجديدة بدلاً من اهدار جهدنا وخبرتنا فى مزرعة تقع فى وسط الدلتا . ولكن المشكلة هى ان الاراضى

الجديدة لم تكن ضمن مجال صلاحية وزير الزراعة كما ان الرئيس لم يجد امكانية من خلال اعتبارات خاصة به لدمج ثلاث وزارات مختلفة ومستقلة وزارة الزراعة، وزارة الاراضى الجديدة ووزارة المياه، ثانياً كان من المهم لنا فى مرحلة البداية ان نعرف عن كثب ليس فقط الزراعة المصرية بل المزارع المصرى اساساً. ثالثاً نظراً لان اساس الزراعة المصرية التقليدية كانت فى الدلتا ، اردنا ان نعرف هل من الممكن من الناحية التنظيمية والمالية - دفع هذه الزراعة التقليدية ذات السبعة آلاف سنه وجعلها تقترب من الزراعة العصرية وكذلك ما هى الجدوى الاقتصادية لمثل هذا الجهد المالى والبشرى اذا نفذ بابعاد رسمية كبيرة وفى النهاية اردنا ان نثبت لافراد الدلتا المصرية المزدحمة بالسكان ان ادخال تكنولوجيا جديدة يمكن ان يؤدى الى الحصول على محاصيل جيدة جداً وان يحسن بصورة كبيرة مستوى معيشتهم. حتى ذلك الوقت عرفنا ان النظرة فقط تستطيع ان تقنع مزارعين اصحاب تقاليد اصيلة وقديمة بالموافقة على استيعاب الاساليب الجديدة والتطويرات . وفضلاً عن ذلك فان الاهتمام بمزرعة الرئيس التى بدأنا بها بموجب توجيهات وزير الزراعة المصرى الدكتور محمود داود يمكن ان يكون نموذجاً للمزارعين المصريين فهذا الاهتمام بهذه المزرعة كان يهدف الى ان نبرز امام الفلاح المصرى البسيط الاهمية الكبيرة التى يعطيها الرئيس لعملية ادخال اساليب رى جديدة واذا كان هذا خيراً للرئيس ، فمن المؤكد انه خير لهم جميعاً.

« مزرعة جميزه » التى امتدت على مساحة مائتى دونم فقط والتى اصبحت بعد ذلك مزرعة نموذجية للقرى المحيطة تم اختيارها بمحض الصدفة : خلال احدى الزيارات الاساسية التى قام بها اسحاق اورون لمزرعة الرئيس السادات اتضح له انه ينبغى له ان يبيت فى المكان وذلك لمواصلة العمل فى المزرعة في اليوم التالى اقترح غنام المسئول عن المزارع الحكومية فى وزارة الزراعة المصرية ان يبيت فى بيت ضيافة صغير يقع على مسافة غير بعيدة من مزرعة الرئيس فى المكان الذى يسمى جميزة وما ان وصلوا الى المكان سمع اسحاق ضوضاء ضربات مضخة تعمل بالبخار اخذ غنام وهو يرى ماكينة ضخمة

الحجم «هذه المضخة بدأت العمل هنا فى القرن السابق» قال غنام وهو يضع يده فى حنان على هذه الخردة - « ومنذ ذلك الوقت لم تتوقف عن العمل يوماً واحداً » كان اسحاق رجل كيبوتس فى بداية طريقه وكانت احدى هواياته هى الاهتمام بكل انواع الاجهزة المعدنية وقد شعر بحب خاص نحو معدات من هذا القبيل وواصل غنام كلامه قائلاً : الارض هنا جيدة للغاية » عندنا هنا مياه بوفرة وماكينة ضخ نفخر بها وسأل اسحاق قائلاً : هل نقيم هنا مزرعة التجارب المشتركة لنا ؟ ولم تمض ايام كثيرة حى صدق وزير الزراعة المصرى على توصية غنام ووصل الى هناك مزارع من الدولة دانى - بر - ادون الذى بدأ المشروع وبعد ذلك واصل العمل فى جميزة ، عوفديا كيدر الذى حل مكان دانى، والذى سنتحدث عنه بعد ذلك بالتفصيل وتقرر ان يزرعوا فى هذه المزرعة الصغيرة الخضراوات وكذلك اقامة صوبة للخضراوات وتم ادخال اسلوب الرى بالتقطير لاول مرة فى مصر . ثم احضار مستلزمات انتاج وتقاوى ممتازة من اسرائيل وبدأت عملية ارشاد المزارعين بواسطة جميع المستويات المعنية بالامر جزء من العاملين سافر الى اسرائيل وحصل على دورات خاصة تلائم متطلبات المزرعة التجريبية . بعد بضع سنوات من العمل المنهجى بلغت كمية المحاصيل بنوعية وبكمية تماثل النوعية والكمية التى نحصل عليها فى اسرائيل الشمام - شمام «مكديمون» الاسرائيلى الذى تم زراعته فى مزرعة جميزة بيع فى الاسواق طعمه الحلو ونوعيته الممتازة وسعره المنخفض نسبياً بالمقارنة بسعر شمام المنطقة وكان فى متناول الجميع .

تقبل المزارعون التغيرات بطيب خاطر بعد ان جنوا ثمار عملهم . كان الانفاق المالى الاول فى جميزة كله من جانب وزارة الزراعة المصرية وما ان شاهدت المعارضة الصاخبة المصرية نشاطاً زراعياً اسرائيلياً مصرياً بدأت عمليات التشويه والهجوم عليه فى الصحافة: «جاءوا ليعلمونا كيف نزرع الخيار والفجل » زراعات لا تتفق وكبرياء ابن المدينة » اعادوا سيناء الينا ولكنهم يغزون مصر من الباب الخلفى وبدأوا يقيمون بداخلنا مستوطنات ».

فى بعض الايام عندما تعرضت مصر لهجمة شرسة من الفئران التى بدأت تلتهم

اجزاء كبيرة من الزراعة خرجت صحف المعارضة بتشهير بأن « الجنرال شارون هو الذى احضر معه هذه الفئران الى مصر » ... وما الى ذلك من القصص الخيالية السيئة. ولكن فى هذه المرة عرف رجال الجميزة والمناطق المحيطة بها فى الدلتا الحقيقة ولكن سكان القاهرة استمروا يرددون ادعاءات المعارضة ، بل كان هناك من تقبلوا هذه الافتراءات على انها حقيقة مسلم بها . التدخل الشخصى فقط والعلنى من جانب الرئيس حسنى مبارك الذى امتدح فى احدى المناسبات « اساليب الرى الحديثة وخاصة اسلوب التقطير » غير الى حد ما من حدة الهجوم اللفظى للمعارضة القاهرية ، وان كان الرئيس قد امتنع عن ذكر اسرائيل بخصوص نجاح اسلوب الرى بالتقطير . ومع هذا فقد شهدنا فى تلك الايام ايضاً ظاهرة ان بعض افراد المعارضة الذين يعملون بالزراعة قد حضروا الى مزرعة الجميزة لشراء تقاوى الشمام بل كان هناك من طلبوا منالسفارة ان يستوردوا من اسرائيل اجهزة رى بالتقطير من انتاجها.

تجربة المزرعة النموذجية فى « جميزة » التى كللت بنجاح فريد دفعتنا الى الوصول الى استنتاجين هامين للغاية : الاول انه من الممكن تحقيق تحسن ملحوظ وكبير فى المحاصيل الزراعية فى الدلتا، ولكن الاستثمارات المالية التنظيمية المطلوبة لتحقيق هذا التحسن بابعاد رسمية بطول وعرض الدلتا المصرية الكبيرة كلها ، تجعل هذا الجهد عديم الجدوى وربما ايضاً مستحيلاً من ناحية الجهد التنظيمى للجهاز الحكومى الموجود اليوم فى مصر فى مقابل هذا اتضح دون ادنى شك ان المزارع المصرى مستعد لاستيعاب الاساليب الحديثة، بشرط ان يرى بنفسه النتائج .

ما ان توصلنا الى تلك الاستنتاجات كان من الضرورى اتخاذ قرار مبدئى هام للغاية كان لابد من الحصول على اجابة للسؤال « وماذا بعد ذلك » بخصوص نشاطنا الزراعى فى مصر. هذا القرار كان ولابد ان يتخذه الدكتور يوسف والى ، نائب رئيس الوزراء ووزير الزراعة.

كان الدكتور يوسف والى ومازال يعتبر فى نظرى حتى هذا اليوم شخصية عظيمة الاهمية .انسان فى افضل ايامه، فى الخمسينات من عمره . انسان مؤمن ويتصرف كمتصوف يذكرك فى بعض تصرفاته بالمسلمين الصوفيين . اعزب يقيم فى شقة متواضعة مكونه من ثلاث غرف مليئة باصص « احواض نباتات » يعتنى بها بنفسه . قليل من الاكل عبرقى وخبير مشهور دولى فى الزراعة . رجل غامض لا يضئ ضوءاً فى حجرة عمله الفسيحة فى وزارة الزراعة، ويفضل مصباحى مائدة صغيرين . فى كل لقاءاتى الكثيرة معه فى مكتبه الفسيح لم يستقبلنى ابداً بجوار المكتب فى مكان ما فى احد اركان الحجرة توجد مائدة صغيرة عليها تليفون متعدد الخطوط ومصباح مائدة صغير . هناك وعلى هذه المائدة يجلس وهناك يستقبل ضيوفه ، موظفيه وكل من يحضر لرؤيته . حول هذه المائدة توجد بعض المقاعد كل من يذهب اليه حتى قبل موعد المقابلة مع الوزير يتم ادخاله فوراً ويشغل احد المقاعد وينتظر حتى يحين دوره . وفى تلك الاثناء ، يستمع الى المناقشات التى يجريها الوزير مع الضيوف الذين سبقوه فى بعض الاحيان يتدخل الضيف ويبدى اى ملاحظة فى الحديث الدائر بين الوزير وبين ضيفه . ليس لدى الدكتور يوسف والى ساعة لا فى يده ولا فى حجرته « ماذا يحتاج الانسان لساعة ؟ اذا كان الحديث يهمنى لا اهمية للوقت . واذا كان الحدث لا يهمنى احاول انهاءه دون احراج للضيف لم ار ابداً ورقة على مكتبه «يدخل الموظفون اليه يحملون مذكره ويتحدثون باختصار عن محتويات ما هو مكتوب فى الورقة ويأخذ المذكرة ويكتب بخط يده قراره » سألته لماذا لا تضئ النور فى الحجرة ؟ وقال «خوفاً على الطاقة مصباح صغير يكفينى » ذات يوم اتصل بى تليفونياً كان الوقت ظهراً فى حجرته بجوار مكتبه مائدة طويلة حولها يجرى مناقشات مع الطاقم الكبير لوزارته فى ذلك اليوم كان على المائدة الطويلة سته اصابع موز « هذه اصناف عديدة من الموز الذى نزرعه هنا . اريد ان نتذوق معاً هذا الموز ونقرر اى الانواع نزرعها لتصديرها الى انجلترا . ابديت ملاحظة انه ربما كان المذاق الانجليزى يختلف عن مذاقه وعن مذاقى » واقترحت ان يرسل هذا الموز الى لندن « لتنوقه » ووافق ولكنه اضاف قائلاً : « ومع هذا هيا نتنوق هذا الموز »

انه يتحرك بسيارة فيات صغيرة وقديمة وغير مستعد لتغييرها . وقد رفض بكل شده محاولات اجهزة الامن المصرية بتخصيص حارس شخصى له . انه يتحدث بسرعة يبتلع الكلمات لدرجة وجود صعوبة حقيقية فى متابعة حديثه . يبدو ان معدل تفكيره يفوق عدة مرت معدل كلامه . انه ثاقب النظر له ذاكرة مدهشة وحارس رائعة فى التمييز بين الاساس والتافة حجم ثقافته مذهل تخليل الزيتون واعداد المربى وقراءة الكتب هى هواياته منزله هو منزل ومنتدى للمثقفين من جميع الانواع والطبقات . لقد اخذ من كلية الزراعة فى الجامعة وكان المساعد الرئيسى لوزير الزراعة الدكتور محمود داود . خلال اقل من عامين اصبح وزيراً للزراعة وخلال خدمتى فى القاهرة اصبح نائباً لرئيس الوزراء واميناً عاماً للحزب الحاكم . وعندما قررت اعطاء اولوية للتعاون الزراعى مع اسرائيل اهتم شخصياً بهذا الموضوع واختار لرئاسة مكتبه شاباً صغيراً حاصلاً على شهادة جامعية فى اللغة العبرية لقد طلب من السفارة ان ترتب له الاطلاع على الجرائد اليومية الاسرائيلية وكلف سكرتيره بابلاغة يومياً عما يجرى فى اسرائيل .

فى بداية عام ١٩٨٦ عندما كانت المزرعة فى جميزة فى قمة الازدهار والنجاح دعوت الدكتور يوسف والى الى مأدبة عشاء فى منزلى وكذلك البروفيسور شموئيل فوهريلز ، الذى حضر بناء على طلبى خصيصاً من الدوله للاشتراك فى هذه المأدبه وكان بجوارى فى تلك المأدبة ايضاً ايفى سيتون المستشار فى سفارتنا والذى كانت احدى مهامه هى الاهتمام ودفع التعاون الزراعى قبل حضور الوزير المصرى اجرينا ايفى وانا تشاوراً تمهيدياً مع فوهريلز الذى بارك تماماً المشروع الذى عرضته عليه .

بعد مأدبة العشاء فى منزلى انتقلنا الى احدى غرف الضيافة نوافذها تطل على الحديقة . كان الضوء فى تلك الحجرة خافتاً بعض الشئ سألت الدكتور والى عن خططه بشأن مزرعة جميزة وسأل الوزير هل حدث شئ» لا ... لا العكس لقد زرت المزرعة ووجدتها فى قمة الازدهار « حقاً » قال الوزير ، هذه المزرعة هى مزرعة نموذجية انجازات طيبة، كما

هو عندكم فى اسرائيل اوضحت للوزير اننى اشعر ان دورنا فى جميزة قد انتهى « لاننا لن نبقى هناك الى الابد امامنا ثلاث امكانيات : الاولى الخروج بالتدريج والعودة الى اسرائيل بعد ان نتأكد من تسليم المهمة لايد مخلصة وامينة الامكانية الثانية هى اختيار عشر قطع من الارض فى عشر قرى حول جميزة وان نحاول تشجيع اصحاب هذه القطع بأن يحذو حذو جميزة اى محاولة الخروج خارج اسوار جميزة الى داخل القرى المحيطة وذلك بشروط تمويل عادية التى يحصل عليها المزارع فى مصر من بنك الزراعة الامكانية الثالثة - اضفت - هى ان نخرج من جميزة ولكن نذهب الى الاراضى الجديدة . ونبدأ هناك مشروعاً جديداً لان المستقبل الزراعى لمصر هو فى الاراضى الصحراوية الجديدة . ورد الوزير فى الحال : نستمر فى جميزة أو نبدأ فى جميزة ب وسألته ماذا تعنى ؟ واجاب الوزير : تظل جميزة قاعة كما هى حالياً بوجود عوفديا ، وتتم هناك تحت اشراف عوفديا تجربة القطع العشر ما تسميه انت الخروج الى خارج السور ولكن فى نفس الوقت تبدأون مشروعاً جديداً : فى الصحراء على الطريق الصحراوى من القاهرة الى الاسكندرية تلك هى الاراضى الجديدة وهى تقع فى اطار صلاحيتى اريد ان يقام المشروع على الطريق نفسه على مسافة ثمانين كيلو متراً جنوب الاسكندرية فى المكان الذى يسمى نوبارية وذلك حتى يشاهد اى مسافر على الطريق هذا المشروع توجد ارض هناك وتوجد مياه وسيكون هناك مزارعون. اريد ان اوطن هناك خريجى كلية الزراعة مساعدى فؤاد ابو حطب سيرأس هذا المشروع يقوم البروفيسور فوهريلزبالتخطيط ويرسل لنا مستلزمات انتاج اسرائيل وخبير اسرائيلى واحد مثلما تفعلون فى جميزة « أ » ما كنا سنصل اليوم الى جميزة « ب » لولا جميزة « أ » تمويل هذا المشروع سنحصل عليه سوياً من الامريكيين بالضبط مثلما حصلنا على التمويل لمشروع جميزة « أ » من الهولنديين والعلم يقول لى الهولنديون ان انجح مشروع لتعاون دولى فى العالم اشترك فيه هو المشروع المشترك فى جميزة . وبذلك لن تكون هناك مشكلة تمويل لجميزة ب ولكن اذا حدثت مشكلة تمويل اعتقد ان الحكومة المصرية وايضاً حكومة اسرائيل تستطيع تحمل التمويل سوياً وتحمس فوهريلز وابديت ملاحظة بأنه من المهم للغايه ان

يحصل الطلبة المنتظر ان يعملوا فى المشروع على تدريب عملى فى اسرائيل ووافق الوزير فى الحال.

فى شهر اغسطس ١٩٨٦ وصل ميخال سيلع واسرته الى مصر . ميخال انسان رائع ومزارع اسرائيلى صاحب خبرة عظيمة فى الزراعة الصحراوية . وبدأ فؤاد ابو حطب المسئول عن الشركات الحكومية فى الاراضى الجديدة فى منطقة النوبارية احد المساعدين المقربين والمحنكين جداً لوزير الزراعة المصرى ، العمل بنشاط جبار خلال ثلاثة اشهر عاد الى الخزانه المصرية الاستثمار الاول كانت المحاصيل رائعة الجمال من حيث الكمية والنوعية ورويداً رويداً اصبح المكان مزاراً للاشخاص . جاء الجميع لمشاهدة الصحراء التى بدأت تزدهر تم احضار ضيوف اجانب الى هناك ضيوف كبار من بينهم مواطنون من دول عربية معينة عرف الجميع ان هذا مشروع مصرى اسرائيلى مشترك . عندما وصل وزير الزراعة الاسرائيلى الجديد - اربين نحماكين - لزيارة مصر استقبله الرئيس محمد حسنى مبارك واجرى معه محادثات بعد كلمات الترحيب المعتاده تحدث الوزير والى واطلع الرئيس على التقدم فى مشروع النوبارية اراد الرئيس ان يعرف كافة التفاصيل ووجه اسئلة كثيرة الى الوزير والى . بعد ذلك طلب الرئيس سماع انطباعات الوزير الاسرائيلى . وكان لزاماً على خلال تلك المحادثات ان اعمل مترجماً لان الوزير نحماكين تحدث بالعبرية وتحدث الرئيس بالعربية وخلال المحادثات التى استغرقت زمناً طويلاً قال الوزير نحماكين ان مصر تستطيع ان تصبح مخزن حبوب الشرق الاوسط كله تمتلك المعطيات الثلاثة التى تستطيع تحويل الصحراء الى جنه مزدهره ... مياه بوفره ، شمس رائعة وارض صحراوية ممتازة كان الرئيس متأثراً وهو يستمع الى هذه الكلمات وطلب منى ان اكرر مرات ومرات على مسامعه المعطيات الثلاثة » .

اثناء زيارته تجول الوزير نحماكين فى المزرعة ، وذهل عندما شاهد اسماء الانواع الاسرائيلية من الشمام مكتوبة بحروف عربية مع الحفاظ على الاسم العبرى « اردنا ان

يعرف المزارع من اين تصل الينا هذه البذور المحسنه التى تعطى محصولاً جميلاً للغاية، قال وزير الزراعة المصرى لزميله الاسرائيلى وكان الاستقبال الحماسى الذى قوبل به الوزير الاسرائيلى فى حقول النوبارية « جميزة ب » ظاهرة لم اشهد لها مثيلاً فى مصر . ويتضح ان الوفد الذى رافق الوزير نحماكين كان يضم ايضاً بعض المرشدين الاسرائيليين الذين قاموا بتدريب المزارعين المصريين اثناء زيارتهم لاسرائيل كان اللقاء بينهما لقاء اشقاء فى كل شئ. وامسك الوزير والى بيدى واخذنى جانباً وهمس فى اذنى : انظر هذا هو الجانب الانسانى فى الزراعة هذه هى اخوة فلاحين حقيقيين التى تحدثنا نحن الاثنين عنها كثيراً .

خلال الاعوام التى مضت منذ ذلك الوقت واصلت « جميزة » الازدهار ولكننا لم نتمكن من تنفيذ مشروع العشر قطع من الارض فى القرى المحيطة بجميزة . فى مقابل ذلك تركز الجهود الاساس في حقول النوبارية التى اخذت تزداد اتساعاً واصبحت نموذجاً حياً ومضيئاً للمشروع الهائل الذى يتم فى ايامنا فى مجال التنمية الزراعية النشطة فى الاراضى الصحراوية فى مصر.

خلال احد اللقاءات الاسبوعية التى كنت اقيمها مع ميخال سيلع والتى كان يطلعنى خلالها على التقدم فى العمل فى جميزة وعلى المشاكل التى تتطلب اهتمامى بها او تدخلى عند وزير الزراعة فى اسرائيل او فى مصر تحدثنا عن العلاقات الانسانية بيننا وبين المزارعين المصريين الذين يعملون معنا فى المزرعة ، فى ذلك اليوم قال ميخال ان جزءاً من العمال لم يشاهدوا اسرائيل ابداً والجزء الاخر وهو الجزء الاقل حقاً لم يعرف حتى ما هى اسرائيل واين تقع. يهتم المزارع المصرى بشيئين : اعالة اسرته واقامة منزل له . ولكن كان بين المزارعين ايضاً بعض المسرحين من الجيش الذى حارب اسرائيل فى ميدان القتال وهؤلاء استقبل جزء منهم ميخال فى البداية بتحفظ ظاهرة كان من الطبيعى ان تبقى بداخلهم رواسب وبالتدريج بدأ الجليد يذوب قال ميخال . ذات مرة جاء احدهم الى ميخال وهو يبحث عن طريق لفتح حديث معه .قام ميخال بدعوته لتناول فنجان قهوه ابن عمه قتل

فى حرب اكتوبر التى نطلق عليها حرب يوم الغفران وموضوع حضور الخبير الاسرائيلى سبب له ازمه وضيقاً وشعوراً غير طيب. ولولا حتمية اعالة اسرته لقام بترك المكان ولكن هكذا واصل الفلاح المصرى الشاب الحديث عن نفسه امام ميخال وكلما استمر فى العمل بصحبة ميخال حدث عنده تغيير داخلى ثورى حقاً فى نهاية الحديث قال المزارع المصرى على مسامع زميله الاسرائيلى : لقد علمتنى يا ميخال انه فى الامكان العيش معاً ويمكن ان نقوم معاً بتعمير هذه الارض الجرداء منذ ان خلق الله عظم اسمه هذا العالم . حقيقة اننا نعمل اليوم سوياً تعنى بالنسبة لى ان ابن عمى يرحمه الله لم يسقط هباء فى تلك الحرب التى مهدت الطريق للسلام .

مثل هذه الاحاديث هى التى تمنحنى قوه نفسية واراده قوية لمواصلة هذا العمل الذى لا يوجد اعظم منه والذى لا اعرف كيف اصبحت بداخله اختتم ميخال حكايته .

اسحاق يوم فى مزرعة الرئيس :

فى منتصف شهر يوليه ١٩٨١ بعد وصولى للقاهرة بحوالى شهرين زارنى صديقى اسحاق اورون المفوض المستشار بالسفارة ليحدثنى عن زيارة قام بها لمزرعة الرئيس السادات الموجودة فى قريته ميت ابو الكوم فى احد ايام شهر رمضان .

اصبح اسحاق رجل السفارة الاول المكلف بالاهتمام بالتعاون الزراعى بين اسرائيل ومصر بالاضافة الى منصبه الثانى السفارة ـ الذى لم يتمكن تقريباً من القيام بشئ فى هذا المنصب اقامة هيكل علاقات ثقافية بين الدولتين .

اسحاق هو مستشرق ولد فى المانيا تلقى تعليمه الصهيونى كصبى فى منزل والده وجاء الى اسرائيل مع هجرة الشباب عمل عامين فى مستعمرة فى كفادبيناس وبعد ذلك انضم الى الكيبوتس وكان حارس حقول فى النقب بعد ذلك وما ان اكمل تعليمه اقام اول معهد اسرائيلى لدراسات الشرق الاوسط « معهد شيلوّح » واداره بحكنه فنية منحته تقديراً كبيراً ليعد له « اوراق سياسية ومن حين لاخر كان يترك هذا العمل ويذهب الى العمل البدوى

الذى احبه وقد عثرت عليه فى مصنع معادن يقوم باعداد الواح رقيقة او فى ورشة لانتاج الكشافات. تواضعه ورقته وبساطته كانت صفاته الاساسية التى حملها معه الى اى مكان لقد جعل الفلاح البسيط فى مصر يشعر من اللحظات الاولى بالمساواة التامة كان اسحاق يتمتع بنظره حاده جداً ساعدته على تحديد وتمييز كل شئ اساسى كان قادراً على اجراء محادثات طويلة ليلاً مع الفلاحين ووزراء وشخصيات مصرية كبيرة اخرى ولكونه مستشرقاً ممتاز احب اسحاق المنطقة وسكانها وفوق كل هذا آمن تماماً بحتمية السلام عندما تم ارساله الى القاهرة اعتبر هذه المهمة فرصة لن تتكرر للمساهمة فى تحقيق حلمه ترسيخ السلام بواسطة دفع التعاون بين الشعبين .

وقد تعلمت الكثير من اسحاق مثلما تعلمت من زملاء ممتازين آخرين الذين عملوا معى فى السفارة وعاونونى فى مهمتى الصعبة فى القاهرة . قصة اسحاق عن زيارته لمزرعة الرئيس السادات كانت رائعة جداً سجلت كل كلمة صدرت عنها حقا يتمتع بقدره على رؤية الشئ الذى يتطلع له وان يهبط الى اعماق الظاهرة التى تحدث او توجد امامه .

اول امس هكذا بدأ اسحاق يضيف امامى احداث ذلك اليوم الذى قرر فيه ان يرتب لنفسه زيارة لمزرعة الرئيس ذهبت الى صديقنا نبية غنام فى مكتبه الموجود فى الجيزة. غنام هو رئيس المنظمة العامة للانتاج الزراعى التى تضم بداخلها كل المزارع الحكومية فى مصر ذهبت اليه كالمعتاد دون ميعاد سابق وذلك لأنه لا يوجد اتصال تليفونى بين حى الدقى الذى توجد فيه سفارتنا وبين حى الجيزة حوالى عشره دقائق بالسيارة يقع مكتب غنام فى منزل صغير ووحيد داخل محطة تجارب زراعية مزدهرة وعندما تتجه من الشارع القاهرى الملئ بالتراب والضوضاء وتدخل الى المزرعة تشعر وكأنك امام ابواب جنه صغيرة. الحقيقة هى اننى احب العمل مع غنام انسان متكامل روحاً وجسداً رجل عملى جداً موضوعى فعال ورقيق اصبحنا اصدقاء حقيقيين وحدث بيننا ذلك التفاعل منذ اللقاء الاول عند وزير الزراعة الدكتور محمود داود الذى كلف غنام بمسئولية تنفيذ مشروع الرى الذى قمنا به

في مزرعـة الرئيس.

عندما ذهبت الى مكتبه فى ذلك اليوم قلت لغنام انه كعادتى وتقليدى من حين لاخر اريد زيارة مزرعة الرئيس لارى ماذا حدث لمشروعنا وما الذى ينبغى اصلاحه فضلاً عن ان الرئيس كعادته سيتواجد فى قريته فى النصف الثانى من شهر رمضان ووافق غنام فوراً واختار مرافقاً لى واتفقنا على انه فى الساعة السابعة من صباح الغد اسافر بسيارة منظمة غنام . كنت اعتزم اجراء حديث صريح وشامل مع غنام حول التعاون الزراعى الذى تضاءل لحد ما فى اعقاب قصف المفاعل العراقى بواسطة جيش الدفاع الاسرائيلى ولكن الوقت لم يكن ملائماً لان مكتب غنام كان مزدحماً باشخاص يذهبون ويحضرون جلسوا بجوارنا او اجروا بجوارنا مناقشات خاصة بهم هناك وهناك مع الانصات لحديثنا . تلك ظاهره مألوفة فى المكاتب الحكومية « اسلوب الديوان » المألوف منذ ايام الامبراطورية العثمانية. وما ان بقينا بمفردنا للحظة وجيزة بعد ان صاح غنام وانب وحث وعاتب وامر العاملين بالانصراف نظر نحوى قائلاً : اريد كرباجاً من يعطينى كرباج كل ايام السنه ولكن بالذات فى شهر رمضان «الكرباج هو ذلك السوط الذى اعتاد المسئولون العثمانيون استخدامه لحث العمال وكان بالنسبة لهم « مصدر الحافز » . واصل اسحاق حديثه قائلاً فى صباح اليوم التالى وكما تم الاتفاق انتظرت امام السفارة الساعة السابعة صباحاً ولم تظهر السيارة وبعد مرور ثلاث ساعات وعشر دقائق وصلت السيارة قال لى المرافق ان السائق الذى كان من المقرر ان يقود السيارة قد اختفى وكان من الضرورى العثور على سائق آخر ولكن نظراً لان المكاتب الحكومية تعمل فى رمضان فى الساعة العاشرة فقط كان على المرافق ان ينتظر حتى ذلك الوقت ورغم تأخر الوقت قررت السفر وحينئذ قال السائق بأنه ليس لدية وقود وانه يجب عله ان يملأ الخزان فى محطة وقود شركة معينه، التى تتعامل معها المصالح الحكومية . وما ان وصلنا الى المحطة الكبيرة الموجودة فى حى الدقى لم يكن بها وقود. واطفأ السائق المحرك ووقف ينتظر حتى يقوموا بملأ الخزان . واستسلم المرافق للامر

الواقع. اما انا فلم استسلم لذلك قلت للسائق انه فى الطريق الى ميت ابو الكوم توجد محطات وقود تابعة لنفس الشركة ونملأ الخزان هناك وتضايق السائق وقال ان عداد الوقود فى سيارته لا يعمل ويخشى ان ينفد الوقود قبل ان نصل الى المحطة فى نهاية الامر تزودنا بالوقود فى محطة اخرى بعيدة عن طريق خروجنا من المدينة بعد ان انتظرنا فى طابور طويل فى الساعة الحادية عشرة اتجهنا فى النهاية شمالاً صوب محافظة المنوفية فى وقت جيد نسبياً.

فى وسط هذه المحافظة الخصيبة وفى الطريق الذى كان جزء صغير منه مرصوفاً ومعظمه ترابى وصلنا الى مشتل حكومى كبير مدير المشتل كمال عين بواسطة غنام مسئولاً عن عملية الرى التى اقمناها فى مزرعة الرئيس . وابتسم لنا الحظ ووجدناه فى المكان، رغم اننا لم نخبره مسبقاً بحضورنا ، وطلبنا منه ان يرافقنا الى المزرعة واجاب كمال على سؤالى عن حالة المزرعة قائلاً « خمسة ايام لا توجد مياه فى الترعة الموجودة بجوار مزرعة الرئيس التى نحصل منها على مياه للاجهزة التى قمنا بتركيبها وواصل كمال حديثه قائلاً: «صحيح لقد وعدوا عبد الغفار بأن المياه سوف تتدفق فى الترعة باستمرار ولكن هذا لم يحدث عبد الغفار عضو مجلس الشعب رئيس مجموعة اعضاء مجلس الشعب عن محافظة المنوفية والمسئول عن المزرعة من جانب الرئيس وحرمه . ومسئول ايضاً عن مشروعنا» حاولنا استخراج مياه فى الصباح ولكننا استخرجنا طمى . المياه القليلة فى الترعة يحصل عليها الفلاحون الموجودة حقولهم اعلى الترعة ولا يتبقى شئ لمزرعة الرئيس الموجودة اسفل الترعة « وسألت كمال وما العمل ؟ وقال لا اعرف من الضرورى ان نتحدث مع مفتش الرى ومتى سيوضع فى المزرعة شخص دائم يعرف تحت اشرافك بالطبع كيف يستخدم اجهزة الرى التى قمنا بتركيبها ويرعى المزرعة كما ينبغى ؟ سألت كمال الم نتفق جميعاً بان المشروع يمكن لاقدر الله ان يفشل ما لم يوضع فيه مثل هذا الشخص ؟ وتذكر دائماً ان وزير الزراعة نفسه اتفق معنا على ان ذلك حيوى وكان من المفروض ان يكون الرجل هناك

منذ اليوم الاول لعملنا فى المزرعة واين هو ؟ ومن المؤكد ان تعرف اننا تحدثنا حول ذلك ايضاً مع غنام ومع رئيسه، مساعد الوزير الدكتور يوسف والى . وطرحنا الموضوع مرة اخرى مع الوزير نفسه الدكتور داود الا تستطيع يا كمال ان تساعد فى العثور على مثل هذا الشخص ؟ قال كمال لا ليس لدى اقتراح وابديت ملاحظة انه منذ اربعة اشهر لم يتم العثور على مزارع فنى واحد فى كل انحاء مصر لمزرعة رئيس الجمهورية ورد كمال ضاحكاً الا توجد عندنا ديمقراطية وكل انسان حر وقال المرافق لى : ان هذا امر غير بسيط فمن يقبل العمل فى هذا المشتل بخمسة قروش فى اليوم سيطلب جنيهاً كاملاً فى مزرعة الرئيس ومن الذى سيدفع ؟ ما ان تقدمت سيارتنا صوب ميت ابو الكوم شاهدنا عربه نصف نقل تقف على جانب الطريق وقال كمال ابتسم لنا الحظ اليوم هذه العربة خاصة بمفتش الرى نفسه وقفنا وقال كمال لمفتش الرى لقد وعدتمونا بامداد مزرعة الرئيس بالماء بشكل دائم ولا توجد مياه منذ خمسة ايام وقال المفتش : اننى آسف تلك هى المياه المتوافرة لى التى تتدفق فى الترعة « القناه » واذا كان هذا لا يروق لكم اذهبوا لوزير الرى فى القاهرة » .

الحقيقة التى لابد من ذكرها هى : ظاهره نقص المياه لم تكن غير متوقعة وكان الحل الذى تم الاتفاق عليه هو حفر بئر يوفر الماء بشكل دائم وحقاً فانه منذ حوالى ثلاثة اسابيع اتفق الجميع على حفر هذا البئر « فوراً » وزارة الرى تحملت مسئولية حفر البئر هذا موضوع عادى فى هذه المنطقة لان المياه الجوفية موجودة فى الدلتا فى كل مكان بالقرب من سطح الارض وسألت كمال « وما العمل ؟ » وقال قابلت فى هذا الصباح اشخاصاً من وزارة الرى حضروا بشأن موضوع البئر وسألونى اين ماكينة الحفر وقلت لهم انه كان من الواجب عليهم ان يحضروها وسألت كمال « وماذا فعل هؤلاء الاشخاص ؟ عادوا الى القاهرة لمعرفة مصير ماكينة الحفر فى هذه النقطة توقف اسحاق سيل حديثه وقال لى: بعد إذنك يا موشى سوف استريح من اجل لحظة تمعن مثلما اعتدنا فى محادثاتنا معك امامنا شئ عرفته انت وعرفته انا ولكننا لم نفهمه بشكل ملموس للغاية ، وايضاً لم احتك به مثلما حدث

فى هذا اليوم من شهر رمضان : الرئيس السادات لا يخيف الشعب ان السادات دون شك حاكم وخبير ولكن بعكس دكتاتورية جمال عبد الناصر فانه غير مستبد انظر الى كلام كمال والى سلوك مفتش المياه ورجال وزارة الرى، انها تحوى قدراً غير هين من انعدام الخوف سمعت مؤخراً من صديق مصرى مثقف من الاسكندرية تعرفت عليه انت ايضاً ، حكمة: الخوف والحب نزلوا الى العالم مرتبطان معاً - قال ذلك الصديق - اما عبد الناصر فقد خافوا منه جداً ولذلك ايضاً احبوه اما السادات فانهم لم يخافوا منه ولم يحبوه، من الواجب ان نسجل ذلك امامنا نحن الذين نحاول ان نفهم جيداً ذلك الشعب وحكامه الذى نعيش معه ونعمل وسطهم.

ووصلنا الى مداخل ميت ابو الكوم منذ اليوم الاول الذى رأيت فيه تلك القرية تحددت فى ادراكى صورة لا تتغير انك تعرفت على ذلك المكان وكذلك انا لم احضر الا لاقص عليك كيف بدا فى نظرى : فى الجانب الاخر من الطريق الضيق الذى يمر بداخل القرية يوجد سور حجرى طويل يحمى مزرعة الرئيس بينما على الجانب الثانى من الطريق تلك المنازل الصغيرة المبنية من الطين والمظلمة والحوائط الايله للسقوط ، اكوام من القمامه جاموسة واقفة فى سكينه ، والاولاد يلعبون فى الحظيرة والفلاحات مشغولات بعملهن . باختصار قرية مثل سائر القرى . لا يبدو اى جهد لتغيير او لاصلاح او لتنظيف واخفاء العالم بل العكس امام السور الحجرى ومنزل رئيس الدولة الذى يطل من السور تبدو هذه القرية اسوأ من القرى الاخرى السيئة ايضاً وكأن سكانها يقولون للرئيس ابن قريتهم : نحن ميت ابو الكوم، وانت لم تغير منا نحن مصريين وانت لا، لا شأن لنا بك ولا شأن لك بنا واذا اردت ان تتباهى فليس عندنا . يبدو وكأن القرية تتحدى السور الموجود امامها واذا شئتم تستطيعون العثور هنا على رمز للتحدى اماماً مثلما تحدى فقراء ومظلومى مصر اثرياء الدولة ونظام الحكم الذين يعيشون تحت حمايته.

وصلنا الى حارس السور عند مدخل مزرعة الرئيس رجل الامن الضخم والهادئ الذى اعرفه من قبل اطل من الكشك الموجود داخل البوابة ابدى ملامح عدم ارتياح وهمس بشئ

ما فى اذن كمال .

وكان الامر واضحاً بالنسبة لى : لم يجهزوا تصاريح اجهزة الامن لزيارة المزرعة لقد قلت امس لغنام اننا قد نتعرض لموقف غير لطيف بسبب هذا التقصير ولكنه قال لى: لا انك صاحب بيت فى هذا المكان. خرجنا من البوابة بينما كمال مستمر فى الحديث مع رجل الامن. عرفت انه لن يتزحزح اى شخص عن التعليمات الموجودة لديه ولن نستطيع الدخول. وفى النهاية توصل الاثنان الى اتفاق ان ندخل المزرعة من الجانب الخلفى من الفتحة الموجودة فى السور فضلاً عن ان اجهزة الرى الخاصة بنا التى جئنا لفحصها موجودة بجوار الفتحة. هذا الحل الوسط يساعد الحارس على عدم تجاوز التعليمات الموجودة لديه وفى نفس الوقت نتمكن من الوصول الى المكان الذى نريد الذهاب اليه .

بعد ان عبرنا عن طريق الثغره الموجودة فى السور، توجهنا الى اجهزة الرى فى الطريق الممتد على طول الترعة « القناه » ، وقد وجدنا البستان مزدهراً ولكن حالة شتلات الشمام التى زرعت تحت اشراف مزارع اسرائيل كانت فى حالة سيئة وذلك لأن عمال المزرعة لم ينفذوا تعليمات الرى اليدوى فى حالة عدم وجود مياه فى الترعة . وما ان وصلنا الى المكان اكتشفنا ان الارضية الخرسانية لجهاز الرى لم يتم صبها بعد. عندما حضرنا الى المزرعة منذ حوالى اربعة اشهر طلبنا صب هذه الارضية لضمان ثبات خزانات التكرير الثقيلة وحتى لا تحدث بركة « وحل » فى المكان عند امتلاء الخزانات ، بعد مرور يومين ظهرت حقاً جماعة عمل من شركة عثمان احمد عثمان التى تنفذ مشروع ما بالقرب من المكان «شركة عثمان ـ اكبر شركة مقاولات فى مصر »وبعد مرور يومان قامت الشركة ببناء حاجز خرسانى حول اجهزه الرى ولكن الارضية لم يصبوها منذ ذلك الوقت وحتى اليوم. وقالوا: «غداً ان شاء الله »وفى اليوم التالى قالوا : عندما تعودون فى الاسبوع القادم ستجدون ان شاء الله الارضية مصبوبة وعندما عدنا بعد حوالى شهر سألونا: هل انتم متأكدون بان هذا الشئ ضرورى ، وانه من الممكن ايضاً ان تعمل منشأه الرى بدون ارضية

خرسان وقلت لهم « لا يمكن لفترة طويلة » ثم عادوا ووعدوا « اذن سنفعل ذلك « سألت كمال ومتى سيفعلون ذلك واجاب : معلش كان هادئاً ومتأكداً سيفعلون ذلك لا شك انهم سيفعلون ذلك ان شاء الله » وعدنا عن طريق الثغرة الموجودة فى السور. وركبنا السيارة واتجهنا جنوباً فى طريق ترابية صوب مدينة منوف ومن هناك فى طريق ممتد على طول ترعة واسعة الى القناطر الخيرية . تلك السدود الموجودة شمال القاهرة وكذلك القنوات الرئيسية للدلتا بناها محمد على عند تفرع مجرى النيل فى مدخل القاهرة .

وقام اسحاق وهو يواصل حديثه عن اعماله وبالتوقف كعادته واشركنى فى التفكير حول ما شاهده وعرفه: لقد رأيت يا موشى النظره الى مزرعة رئيس الجمهورية والان احكم على مشاريع مصر الاخرى التى لا تنطبق عليها هيبة الرئيس احياناً بدا لى ان مصر لم تعثر على بديل لذلك الكرباج العثمانى الذى اختفى من العالم والذى يشتاق اليه غنام للغاية: بدون عقاب وتخويف وبدون ايديولوجية، وبينما اخلاق العمل والتقدم المهنى ما تزال قيماً لافراد قلائل فقط وعندما يختفى الدافع للربح ولكنه قائم فى حد ذاته دون ارتباط حقيقى بمهنة سليمة كيف تتقدم مصر بالمعدل المطلوب لها بالمعدل الذى تريده ؟ .

واصل اسحاق حديثه قائلاً : اتذكر انه عندما بدأنا منذ فترة نناقش مع المصريين اشتراكنا فى مشاريع تنمية كبيرة لمست وخشيت من القدرة غير المحدودة لعناصر مصرية على الافشال ، وخاصة لهؤلاء الذين يعارضون التعاون معنا .

ماذا قال لى الدكتور داود وزير الزراعة بعد ان قدم الرئيس تأييده الكامل والحماس للمشروعات ؟ لقد قال : لا يكفى ان يقرر الرئيس القدرة على الافشال نابعة من طريق عمل الجهاز البيروقراطى الذى يعمل فى اطار نظريات قديمة يستطيع كل من يرد ذلك اغراق ودفن كل شئ تقريباً . والمشروع الذى اقيم فى مزرعة الرئيس لم يرغبوا فى افشاله بل العكس ، لقد ارادوا ان ينجح .

عندما تحركنا فى الصباح شمالاً ـ واصل اسحاق حكايته ـ غمرنى السائق باحساس

نسبى بالامن ولكن فى طريق عودتنا الى القاهرة بعد الظهر تحول سائقنا لشئ مرعب وكان السفر هو اخطر سفر عرفته حتى الآن . وكل ذلك لماذا ؟ لم اسأل ولم اتقصى لان ذلك كان مفهوماً من تلقاء نفسه : لأنه صائم ـ صوم رمضان ـ من الساعة الثالثة صباحاً صائم فى حرارة مصر المنهكة لاعصابه فضلاً عن انه كان فى اشد الشوق للافطار للوجبة المنقذة فى الساعة السابعة مساءً .

وقد صمت انا ايضاً فى ذلك اليوم وان كان فقط من الساعة السادسة صباحاً حيث اننى قد صممت فى قرارة نفسى بأنه ليس من اللائق ان يصوموا واشرب وآكل امامهم. فى الساعة السادسة والنصف بعد الظهر وصلت الى السفارة . ورويت عطشى وتناولت اوراقاً وقلت لنفسى « كان هذا يوماً طيباً قمت بالعمل الذى كنت اود القيام به يوم طيب عرفت فيه الكثير يوم دخول مزرعة رئيس الجمهورية فى رمضان عن طريق ثغرة فى السور وذلك لدفع عملية ـ بدون كرباج ـ بناء ارضية خرسانية .

عوفديا :

ولد لاسرة يهودية فى القاهرة . عندما كان فى سن الشباب تركت اسرته مصر وهاجرت الى اسرائيل فى عام ١٩٥٦ بعد الحرب التى تشبت فى نفس السنه بين اسرائيل ومصر والتحق عوفديا بمدرسة زراعية « اشل هانسيئ » بجوار بيع سبع وبعد تأدية الخدمة العسكرية انضم الى التعليم الزراعى فى الجامعة العبرية فى القدس فى رحوفوت عند الانتهاء من دراسته اشتغل بالتدريس فى البداية فى المدرسة الزراعية فى مكفاه اسرائيل وبعد ذلك فى اشل هانسيئ وبعد ذلك فى قسم علم الوراثة للنباتات فى معهد وايزمان وهنا اشتغل بتطوير انواع مناسبة من محاصيل الخروع من اجل سكان منطقة سيناء التى كانت آنذاك تحت سيطرة اسرائيل وبعد مرور فترة طويلة قرر العمل كضابط ارشاد زراعى لسكان شمال سيناء وقطاع غزه وعند انتهاء هذه الخدمة قرر الاقامة فى مشارف رفح واقامة مزرعة زراعية فى مستعمرة « نتيف هاعشراه » المامه الواسع بظروف المكان ساعده على

اقامة مزرعة ناجحة جداً كانت تقوم اساساً بزراعة زهور وصوبات الطماطم وفجاه وهو فى مزرعته فى نتيف ها عشراه زار الرئيس السادات القدس بعد ذلك تم التوقيع على اتفاقية سلام بين مصر واسرائيل بموجبها كان عوفديا ملزماً باخلاء مررعته واعادة ارضه الى مصر . عندما حال موعد الاخلاء اندهشت ابنته الصغيرة لماذا لا ينضم والدها الى حركة الاحتجاج والمظاهرات ضد الانسحاب .واوضح عوفديا انه كان هناك سبب لهذه المظاهرة طالما لم يتم التوقيع على اتفاقية السلام ولم يتم التصديق عليها فى الكنيست. واضاف عوفديا موضحاً لابنته الصغيرة والآن علينا جميعاً ان نعمل بموجب القانون، وليس فقط ان ينبغى علينا الاستجابة لتعليمات اخلاء مزرعتنا بل علينا ان نبذل كل ما نستطيع للمساهمة فى نجاح اتفاقية السلام مع مصر .

حتى ذلك اليوم رحل عوفديا من منزله مرتين : مرة كان عليه ترك منزله فى القاهرة فى اعقاب الحرب وفى المرة الثانية كان عليه اخلاء مزرعته الناجحة فى اعقاب اتفاقية السلام

واقام مزرعته الجديدة سوياً مع كل الاشخاص الذين تم اخلاؤهم من مستعمرة «نتيف هاعشراه فى الموقع الجديد للمستعمرة ، فى حولوت زبكم جوب نحال شكماه ، بالقرب من الحدود الدولية مع مصر. هنا ايضاً استوطن فى ارض رملية لم تصلحها يد بشر منذ القدم ولكن خبرته الغنية فى استصلاح رمال صحراء سيناء، وحبه للارض واحساسة العميق بشأن حتمية العيش فى حسن جوار مع جيرانه الجدد واثمروا وبدأت مزرعته الجديدة تزدهر وكان يأمل فى قرارة نفسه انه مع اقامة منزله الجديد فى « نتيف ها عشراه » الموجود فى حولوت ريكيم تنتهى فترة الترحال من حياته وانه تكون الايام القادمة ايام هدوء وعمل هادئ وطمأنينه.

ولكن لم تمر سنوات قليلة حتى وجد عوفديا نفسه امام تحد جديد ومختلف تماماً : شركة اجريدف التى كانت مسئولة عن تنفيذ التعاون الزراعى المصرى الاسرائيلى عرضت على عوفديا القيام بعملية الارشاد الزراعى وتنفيذ المشروع الزراعى الاسرائيلى فى مزرعة

جميزة الموجودة وسط الدلتا المصرية وكانت شركة اجريدف على حق فى ذلك : من الذى يمكن ان يكون مناسباً اكثر منه لمثل هذه المهمة ؟ لقد كان يتحدث العربية بلهجة مصرية ولد فى القاهرة وعاش بها ايام صباه وهذا فضلاً عن خبرته الفنية جداً فى الزراعة الصحراوية فى سيناء ونجاحه المذهل فى المزرعتين اللتين اقامهما لنفسه .

من ناحية اخرى فان اشتراكه الشخصى جداً فى خضم العلاقات مع مصر فى البداية ايام الحرب وبعد ذلك فى اعقاب السلام والاخلاء كانوا بالذات يمكن ان يمنعوه من قبل المنصب الجديد . فقد كان من الطبيعى جداً ان يرفض بأدب هذا العرض الجديد وان يواصل العمل من اجل مزرعته الجديدة والمثمرة . وقد اضيف جانباً آخر لجدة عوفديا: ازعجته جداً مسأله كيف سيستقبله المصريون هل سيعتبروه « مصرياً سابقاً »خان وانتقل الى المعسكر الاخر فى فترة الحرب ؟ هل سيعتبرونه بمثابة صالحية مهنية يمكن ان يتعلموا منها ام ان ذلك سيكون فى نظرهم بمثابة تقليل من كرامتهم ان يتعلموا من يهودى مصرى الذى كان مصرياً عادياً وعاد اليهم اليوم فجأة كإسرائيلى خبير وربما تجعله خبرته بمثابة خبير فى نظرهم او ربما يعتبروه واحداً منهم ومثلهم تماماً ؟ من ناحية اخرى كان عوفديا مقتنعاً فى قرارة نفسه انه قادر على تقديم مساهمة هامة لترسيخ السلام عن طريق تنمية هيكل علاقات جديد ومختلف تماماً : هيكل علاقات بين مزارعين مصريين ومزارعين اسرائيليين.

توصل عتوفديا خلال حديثه مع زوجته رونى الى استنتاج بانه ينبغى عليه عدم رفض اقتراح مدير اجريدف ولكن عندما اخبره بموافقته المبدئية قدم عوفديا شرطاً: قبل ان يقدم رده النهائى والملزم يريد ان يقوم بزيارة قصيرة لمصر للوقوف عن كثب على الوضع فى مزرعة جميزه المصرية التى كان عليه ان يرأسها وكان من المهم جداً له ان يقف على حقيقة مشاعره المتداخله وان يضعها فى اختبار الواقع وان يقف ايضاً على مدى استعداد المصريين - فى وزارة الزراعة المصرية وفى مزرعة جميزه لتقبله.

بعد ذلك بسنوات حكى لى عوفديا عن اللحظة المثيرة جداً فى حياته هذه اللحظة بدأت عندما صعد عوفديا فى مطار بن جوريون الى الطائرة المصرية التى ستقله لاول مرة منذ صباه الى القاهرة . الطيار المصرى المضيفة المصرية الصحف المصرية فى الطائرة العربية المصرية التى سمعت من الميكروفون فى الطائرة وبعد ذلك الهبوط فى مطار القاهرة الدولى .

فجأه وجد عوفديا نفسه محاطاً بعمال مطار مصريين وضباط امن مصريين بالزى وبدون زى. كانت هذه بالنسبة له قفزه جريئة سواء الماضى واهواله وسواء الى المستقبل المختلف تماماً والمجهول شعور بالتواجد هكذا وفجأه بين من كانوا اعداء ومن اصبحوا فجأه جيراناً حقيقيين ان المطار كان مكتظاً بجنود ورجال شرطة اثقلت جداً على احساسه هذا الاحساس تزايد كثيراً عندما ادرك انه على طول الطريق من المطار وحتى مشارف المدينة ينتشر ويقف اعداد كبيرة من الشرطة والجنود وما ان دخلت سيارته القاهرة كانت مختلفة للغاية كانت تختلف تماماً عن القاهرة التى غادرها وهو صبى كان بها آنذاك حوالى اثنين مليون ساكن وفجأه يجد نفسه فى القاهرة التى تضم حوالى تسعة او عشرة مليون ساكن اللاجئ الذى هاجر عام ١٩٥٦ يعود الآن لقاهرة ١٩٨٥ التى يرفرف بها علم اسرائيل .

عوفديا هو انسان هادئ الطباع عندما دخل الى حجرتى فى السفارة بعد ان وضع حاجياته فى الفندق كان هادئاً بصورة فريده على وجه الخصوص. رغم الطمأنينه الخارجية التى التى تشع من وجهه كان لدى انطباع فورى بأن الرجل الجالس امامى مازال فى حاله «شبه ذهول» وانه لا يصدق حتى الآن انه يجلس حقاً امام سفير اسرائيل فى القاهرة شعرت ان مفهوم « القاهرة تشوش جداً عند الرجل الذى يجلس امامى « قاهرته » لم تعد هى القاهرة الموجود بها اليوم والتى تختلف تماماً عن القاهرة التى عرفها طبيعياً وبشرياً وسياسياً ايضاً .

اثناء حديثى الاول مع عوفديا طلبت منه ان يقضى زيارته هذه ببساطة وبدون استعجال اقترحت عليه ان يزور القاهرة ومواقعها وان يلتقى مع اعضاء سلك السفارة وذلك ليلمس

مباشرة مغزى حياة مبعوث اسرائيلي فى القاهرة اليوم .

اقترحت عليه ان يقضى وقتاً كبيراً بقدر المستطاع مع الفلاحين الذين يعملون فى مزرعة جميزة وكذلك مع افراد وزارة الزراعة المسئولين عن المزرعة التجريبية وفى نهاية محادثات التعارف القصيرة هذه عرضت عليه مطلباً : قلت لعوفديا «سأقدر جداً لو اتخذت قرارك النهائى والملزم هنا فى القاهرة قبل ان تعود الى اسرائيل وتبلغنى به فى لقائنا الاخير عشية عودتك لاسرائيل .

وفى هذا اللقاء الختامى قبل عودته الى اسرائيل وجدت امامى عوفديا آخر: حكى لى بحماس عن الاستقبال الحار الذى لقيه من جانب الفلاحين فى جميزة حكى لى عن المعاملة الحارة والايجابية للغاية من ان رجال وزارة الزراعة المصرية الذين التقى بهم قال عوفديا كلهم تغمرهم توقعات منا ـ واسم اسرائيل وانجازاتها فى الزراعة يسبقونها اننى مقتنع واضاف قائلاً انه من الممكن ايضاً القيام بشئ ما جاء فى هذا المجال . من الواضح لى انه من الممكن زيادة المحاصيل بصورة كبيرة جداً والاشخاص سواء الفلاحين او رجال وزارة الزراعة هم اشخاص محبوبون ويتسمون باللطف صحيح ان العمل لن يكون سهلاً وعلى ما يبدو سيكون من الصعب تحريك الامور الي الامام ولكننى مقتنع بانه من الممكن رفع جميزة لوضع نتائجه تضفى احتراماً لاسرائيل وخير لمصر وبعد راحة قصيرة اضاف عوفديا قائلاً وكأنه يتحدث مع نفسه : حقيقة سيكون فى اسرائيل من سيقول لى ماذا جرى تذهب لتعلم المصريين بعد كل ما فعلوه لنا هل جننت يا عوفديا ؟ ولكن بالتأكيد اننى سأتغلب على ذلك. ليست هذه هى المشكلة هى انه اذا بدأت لابد وان انجح لان اسم اسرائيل الطيب فى مصر على كفه الميزان .

فى ذلك اليون تعهد عوفديا امامى بالخدمة فى مزرعة جميزة سنه كاملة انهى عوفديا خدمته فى القاهرة بعد خمس سنوات عمل رائع فى نهايته اصبحت جميزة على كل لسان فى مصر.

الشيخ عبد الرازق :

ذات صباح دخلت سكرتيرتى المخلصة ليفنا الى حجرتى واخبرتنى ان شيخ مصرى وصل الى السفارة ويطلب مقابلة السفير . لم يكن الشيخ مستعداً لان يخبر لا لافراد الامن ولا للسكرتيره بما يريده منى وقالت لفنا « انه مستعد لذكر هدف حضوره الى السفارة لك فقط » مثل هذه الحالات غير لطيفة بشكل عام وتثير مشاكل تبدو ظاهرياً بسيطة ولكنها معقدة للغاية من الناحية الانسانية وخاصة بشأن ترتيبات الامن امرت لفنا ان نخبر الحراس بالسماح له بالحضور الى غرفتى مع الحرص على اتباع القواعد التى يفرضها الوضع ، ولكننى طلبت مرة اخرى منها بأن تؤكد امام رجالنا بأنه ينبغى عليهم القيام بعلمهم بلطف والتعامل باحترام مع رجل دين وبشكل لائق لمكانته وسنه ملابسه .

دخل الشيخ عبد الرازق الى حجرتى يرتدى جلابية سوداء وعمامة وحزاما ابيض تدل على مكانته وعمله . انسان فى سن ناضج نسبياً . مد يده ليصافحنى وابتسامه خفيفة على وجهه يبدو انه يحاول اخفاء تأثره جلس وسألنى عن صحتى وقلت له « الحمد لله » وسألته عن صحته فى تلك الاثناء احضرت سكرتيرتى فنجانين من القهوة . تذوق القهوة ودعا لمضيفة بدوام العز « يجعله عامر » وبدأ حكايته لانه يعرف هكذا قال عن نفسه مدى انشغال سعادة السفير ولا يريد ان يأخذ كثيراً من وقته .

فى البداية قدم الشيخ نفسه وقال انه مسئول عن مسجد صغير فى مصر القديمة هناك يلقى مواعظ « خطبة » ويرعى المسجد وكل ما يحضرون اليه عندما قرر انور السادات الصلح مع اسرائيل كان ومازال من بين هؤلاء الذين ايدوا تماماً الخطوه الجريئة للرئيس رحمه الله وهو يتابع بالطبع المقالات المفزعة فى الصحافة وخاصة ما تنشرها الدوائر الدينية فى مصر ويتحفظ من هذه المقالات التى ليست سوى ابواق غريبة لاصحاب مصالح .

لو انه انضم الى هذه الدوائر . لقاموا باعطائه كل ما ينقصه وحلوا كل مشاكله فى ثوان. لا ينقصهم التمويل لان كل ما يحتاجونه للقيام بنشاطهم يأتى من الخارج، من جيوب

من يضمرون السوء لمصر ، ابتداء من زعيم ليبيا الذى نجد ان جيبه ودفتر شيكاته مفتوحين على مصراعيهم وانتهاء بحكام دول بترول معينه الذين يشترون مؤيدين لهم ليس بالاقناع بل باموال البترول انه لن يبيع قيمه التى توجهه. الجميع فى مسجده وفى الحى الذى يقيم فيه وكذلك فى مزرعته يعرفون وجهة نظره السياسية وتأييده للسلام مع اسرائيل وها هو عنوانه وها هو اسمه بالكامل « ويستطيع السفير ان يتحرى عن صدق كل كلمة خرجت من فمه والله - القادر - شاهد على ذلك . ولكن الآن يواجه مشكلة ولحلها يحتاج الى رأى وربما ايضاً معاونه - السفير ابنه البكر انهى الآن تعليمه فى المدرسة الثانوية وبسبب درجاته المنخفضة لم يقبل فى الجامعة وامنية وحلم الاب اذا كان ابنه لن يكمل دراسته وذلك رغبة الابن ان يكمل دراسته فى مجال الزراعة . واذا كانت الزراعة فلماذا لا يسافر الى اسرائيل ويكمل دراسته بها وعندما ينتهى من دراسته هناك يعود الى القرية ويدير مزرعة والده ؟ يوجد حقاً احتمال ضعيف ان يقبل الابن فى جامعة الاسكندرية ولكن اذا كانت تلك الابواب ايضاً مغلقة فى وجهه - لم تتبقى امامه سوى اسرائيل المجاوره والمشهوره للغاية بانجازاتها الرائعة فى الزراعة لا انه لا يخشى مما سيردده جيرانه او الدوائر الدينية التى جعلته مسئولاً عن المسجد الموجود فى مصر القديمة « القاهرة القديمة » الجميع يعرفون وجهات نظره والجميع يستمعون الى مواعظه التى يعبر فيها عن تأييده للسلام وفضلاً عن ذلك فان ارسلا ابن شيخ مسلم مؤمن وتقى الى اسرائيل لاكمال دراسته بها سيصبح سابقة هامة ونموذجاً لكل هؤلاء الذين يحولون الدين الى فأس للحفر به سألته اذا كان يعرف الدكتور يوسف والى نائب رئيس الوزراء ووزير الزراعة او احد معاونيه المقربين واجاب انه يعرف الوزير شخصياً وانه مقتنع بأن الوزير سيوصى عنه عند السفير .

وقد قلت له انه مبدئياً يستطيع الاعتماد على معاونتى ولكن الموضوع معقد وعلينا ان ندرسه معاً بكل تفاصيله . المشكله الاساسية هى ان ابنه لا يعرف اى لغة اخرى، عدا العربية. تعليم اللغة العبرية او الانجليزية سوف يستغرق زمناً طويلاً للغاية وقلت له ان

اقتراحى العملى هو ان اقدم له الخبير الزراعى فى سفارتنا ذلك الرجل الذى يتحدث العربية المصرية بطلاقة ، يستطيع ان يسافر معاً مع الشيخ الى المزرعة لجمع البيانات حالة المزرعة نوع الارض المستصلحة انواع الزراعات الحالية وحالتها ، ربما نستطيع بهذه الطريقة ان نحصر المطلوب ونطرح خطة لتطوير سريع لافرع معينه ويستطيع الابن ان يكمل دراسته فى دورات خاصة لهذه الزراعات . الدراسة فى مثل هذه الدورات مفيدة جداً وسريعة جداً وربما لا تتطلب تعلم لغة اجنبية وذلك لأن لدينا مرشدين للدورات مثل عوفديا رجل الزراعة فى سفارتنا من الذين يعرفون العربية بطلاقة . وكان رد فعل الشيخ حماسياً . وان كنت قد شعرت بتردد بسيط لم افهم سببه فى ذلك الصباح افترقنا « ودعته » وهو يمتدحنى ويمتدح دولتى. واعربت انا عن تقديرى لتلك الخطوة التى لم يسبق لها مثيل التى قام بها ذلك الشيخ من مصر القديمة سافر عوفديا معاً مع الشيخ الى القرية لزيارة المزرعة الاستقبال الذى نظمه الشيخ لعوفديا برهن عن تفتح وبساطة ومودة كل افراد الاسرة حضروا وقدم لهم الشيخ عوفديا على انه احد كبار خبراء الزراعة فى جارتنا اسرائيل وبسرعة اتضح ان ذلك هو اول لقاء لهم مع اسرائيلى . لقد اندهشوا وهم يرون انساناً لطيفاً ومهذباً. وحقيقة ان عوفديا يتكلم العربية المصرية بطلاقة اذهلتهم حكى الشيخ للاسره عن لقائه مع السفير وابدت صاحبة المنزل ملاحظة قائلة : انكم تختلفون للغاية عن صورة الاسرائيلى الذى تكتب عنه الصحافة المصرية وشئ لا يصدق باب منزل الشيخ كان مفتوحاً وجاء الجيران فى مجموعات كانوا يريدون ان يشاهدوا بأعينهم اسرائيلياً، وقد اندهشوا عندما وجدوا انه ليس مخلوقاً متوحشاً .

فى طريقه الى القرية انتبه عوفديا لحقيقة انهم يمرون على افران حرق الطوب «القمائن» هذا الطوب يتم الحصول عليه من الارض الحمراء الخصبة للغاية الموجودة على جانبى النيل يوجد قانون يحظر انتاج الطوب من تلك الارض انتبه عوفديا ايضاً الى ذلك ان الطريق الذى ساروا عليه متعرج وضيق وعلى جانبيه كانت الارض منخفضة جداً نتيجة

بيع الاراضى الخصبة لاصحاب القمائن.

الطريق فقط لانه ملك الدولة بقى كما هو لانه لا يمكن حفره وبيعه عندما وصل عوفديا الى المزرعة ذهل مما شاهده اتضح انه فى هذه المزرعة لا توجد ارض على الاطلاق كل الارض تقريباً تم حفرها وبيعها قال الشيخ لقد تم بيعها « قبل صدور القانون الذى يحظر بيعها لصناعة الطوب فى ركن فقط يوجد بستان عنب صغير وفى مكان ما فى هذه الارض المحفورة اقام الشيخ حظيره طيور لاعالة نفسه واسرته ولم يتبق امام عوفديا سوى القيام بعملية فحص صارمة لبستان العنب الصغير والقاء نظره على اسلوب تربية الطيور الذى تتبعه اسرة الشيخ. بعد الزيارة الميدانية عادوا الى منزل الشيخ ومرة اخرى ظهرت فناجين القهوة والحديث الدافئ والمشجع فى هذه المرة تشجع المضيفون وخاصة الشباب وطرحوا اسئلة كثيرة عن اسرائيل « كيف يعيش الاشخاص هناك ؟وما هو الكيبوتس الذى قرأوا عنه ؟ وهل العيش فى الكيبوتس ـ حياه جماعية ـ لا يعتبر كفراً ؟ واسئلة كثيرة اخرى ومتنوعة. وعندما قام لوداعهم رافق كل افراد اسرة الشيخ وجيرانهم عوفديا حتى مشارف القرية كما ينبغى نحو ضيف عظيم « شرفتنا بحضورك لنا . « المكان نور بوجودك » ورد عليهم عوفديا قائلاً «المكان منور باصحابه».

لم تمض اسبوعان حتى قام الشيخ وزوجته بزيارة عوفديا واسرته لقد ذهلوا من عدد الحراس المصريين الذين يحرسون المنزل هذا الامر زاد من قيمة عوفديا فى نظرهم همست زوجة الشيخ فى اذن زوجها قائله : « ليس هذا الا لانه شخصية هامة جداً . لذلك الحراس المصريين بدت عليه الدهشة : ما شأن هذا الشيخ الوقور بملابسه التقليدية وزوجته بخبير اسرائيلى فى الزراعة ؟ ثم جاء دور الاولاد الاسرائيليين : لاول مرة يقابلون عن قرب شيخاً مسلماً فى اول الامر سأل الشيخ عن صحة السفير قائلاً « اطال الله عمره » ولم يمتنع عن مدحه لانه جعلهم يلتقون مع عوفديا وزوجته بعد هذه الزيارة الودية اصبح الطريق ممهداً وتمت عدة لقاءات عائلية خلال احدى الزيارات التى قام بها عوفديا لمنزل الشيخ شعر

عوفديا بأن صاحبة المنزل تعانى من ضيق معين ولم تمض لحظات قليلة حتى قالت انه فى احدى الجرائد الدينية المتطرفة تعرض الشيخ لعمليات تشهير عنيفة بسبب علاقاته مع الاسرائيليين قالت جريدة : « من الافضل ان يربى ابنه ويهتم بتفوقه فى دراسته فى مصر بدلاً من الحاجة الى تعليم ابنه عند الكفار اليهود »وحتى الكفار اليهود لم يسلموا من هذا المقال: ذهب الاسرائيليون وعثروا على ابن تافه لشيخ مصرى واغروه بالتعليم عندهم. يجب على كل مسلم مؤن ان يحذر مؤامرات واغراءات اليهود واعداء الاسلام . فى احدى مقابلاتى مع الدكتور يوسف والى وزير الزراعة المصرى حكيت له عن مبادرة الشيخ واتضح ان الوزير يعرف الشيخ ورحب الوزير مثلى بتلك المبادرة قالى الوزير: من المهم جداً ان تنجح هذه المحاولة اقترحت ان يقابل الشيخ ويتحدث معه ووافق الوزير لم يتوقف الشيخ عن الحديث عن هذه المقابلة بين الاثنين اشهر طويلة . من جانبى اردت للغاية ان اعاون الشيخ دون تخطى الجهاز الحكومى. يوجد ما يدعو للقيام بذلك فقط اذا تم بعلم الحكومة. وقد شجعتنى الحكومة لانها ايضاً اعتبرت هذه الحالة التى لم يسبق لها مثيل بمثابة طفره صحيح انها طفرة صغيرة ووحيدة ولكنهاهامة فى حد ذاتها وبناء على مشورة عوفديا اتفقت مع الوزير على ضم الشيخ الى قائمة القرى العشر التى اعتزمنا ان ننفذ بها محاولات تطبيق الدروس التى خرجنا بها ضمن مررعة التجارب التى اقمناها فى جميزة . من بين تلك القرى العشرة كانت هناك اربع قرى بها بساتين عنب وافق الوزير ايضاً على الحاق ابن الشيخ باحدى الدورات التى اعتزمنا تنظيمها والتى كانت حول تربية الطيور .

كانت نهاية القصة مثل بدايتها فريدة وغير متوقعة ابتسم الحظ للابن وقبل فى كلية الزراعة جامعة الاسكندرية ، وبذلك تم حل المشكلة الرئيسية التى بسببها حضر الىّ الشيخ. وفى احد اللقاءات مع عوفديا حكى الشيخ ان زوجته اصيبت بمرض شديد وفقدت بصرها، واضطر الى بيع مزرعته الصغيرة لتغطية مصاريف علاجها هكذا ضاعت ايضاً تلك المزرعةالزراعية التى لا توجد بها ارض.

ولكن الصداقة بين اسره عوفديا واسره الشيخ تعمقت طوال فترة اقامة عوفديا فى القاهرة. تلقى الشيخ ايضاً دعوة مزدوجة منا لزيارة اسرائيل واحضار زوجته لفحصها وعلاجها ولكن ذلك لم يتحقق : فى فترة العلاقات الفاترة لا تشجع الحكومة المصرية زيارات من هذا القبيل حتى اليوم يستطيع ابن الشيخ ان يكمل دراسته فى اسرائيل اذا اراد ذلك.

انتهاء المهمة :

قرار انهاء خدمتى فى القاهرة والعودة الى الوطن الى القدس تبلور عندى عندما تركنى ابنى روفى وزوجتى طوفا ورحلا من العالم خلال فترة زمنية قصيرة ثلاثة اشهر فى اكتوبر ١٩٨٧ وفى يناير ١٩٨٨ .

ابنتى اورنا وزوجها بيجال واحفادى طال وشاحر اطال الله عمرهم، هم الوحيدان الذين تبقوا لى واردت ان اكون بجوارهم كان لهذا القرار ذى الدوافع الشخصية والخاصة خلفية سياسية ايضاً : مع الموافقة بين اسرائيل ومصر على تحويل النزاع حول طابا الى محكمين دوليين ، ومع اعادة وضع سفير على رأس السفارة المصرية فى اسرائيل ، انتهت فى المجال المتبادل المصرى الاسرائيلى الخلافات عدا موضوع التطبيع وكان من الواضح لى ان الجهود المبذولة لملء العلاقات بمضامين يومية طبيعية متعلقة من الآن فصاعداً بدفع مسيرة السلام .

وكان من الواضح لى ايضاً انه لتحقيق هذا التقدم لم تكن لسفير اسرائيل فى القاهرة اية امكانية تأثير حقيقية على حكومة مصر او عل حكومة اسرائيل بالنسبة لى شخصياً وصل اذن التحدى الذى واجهته عند حضورى الى القاهرة الى نهايته ولم اجد سبباً للاستمرار فى الخدمة فى القاهرة . لذلك حددت موعداً لانتهاء خدمتى - فى نهاية يوليو ١٩٨٨ - وطلبت موافقة وزير الخارجية شمعون بيريز ورئيس الوزراء اسحاق شامير الذين اظهروا فى هذه المره تفهماً لضائقتى الشخصية ولموقفى السياسى ، ووافقوا على طلبى .

وداع « الرئيس » :

فى الثانى عشر من يولية ١٩٨٨ ، وفى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر استقبلنى الرئيس محمد حسنى مبارك ، لوداعه .

تم اللقاء فى قصر العروبة فى نفس القصر وفى نفس الحجرة التى التقيت فيها معه لاول مرة للتعارف وكان آنذاك نائباً للرئيس. وجلسنا على نفس المقعدين اللذين جلسنا عليهما منذ سبع سنوات على المائدة الصغيرة الموجودة بين المقعدين كانت نظارة الطيار الخاصة بمبارك فى مكانها منذ ذلك اليوم .

كنا بمفردنا ـ بدون سكرتير وبدون مستشار ـ قبل دخولى حجرة الرئيس سألت رجل المراسم ما هو الوقت الذى خصصه لى الرئيس ، وقال لى رجل المراسم « لم يتم تحديد وقت» لم يحدد الرئيس لقاءات اخرى فى هذا الصباح وترك الامر مفتوحاً . « خذ راحتك يا سيد ساسون » قال رجل المراسم .

استقبلنى الرئيس على باب الحجرة قائلاً « ها انت تتركنا يا ساسون » ، « لكل شئ بداية ونهاية » وقلت له تلك مشيئة الله .

جلسنا على المقعدين وقلت للرئيس « هل تتذكر سيدى الرئيس اول لقاء لنا الذى كان فى هذه الحجرة، على نفس المقاعد ؟ مياه كثيرة تدفقت فى النيل منذ ذلك الوقت » بالتأكيد اننى اتذكر جيداً اول حديث معك اتذكر ايضاً ما قلته لك خلال ذلك الحديث ياليتنى استطيع التحدث هكذا بالعربية مع كل السفراء ... »

وبعد تقديم القهوه قال الرئيس انه يرغب ان يؤكد مرة اخرى امامى شئ اعرفه بالطبع «السلام بيننا قائم وهو حقيقة مفروغ منها ولكن ينبغى علينا وعليكم ان نتقدم الى ما هو ابعد من ذلك ، الى السلام الشامل فى المنطقة هذه هى الغاية التالية لنا ولكم » .

وخلال حديثه طلب منى ان ابلغ رئيس الوزراء السيد شامير انه يعتقد انه ينبغى الذهاب الى مؤتمر دولى ، دون تخوف ان يضطر للتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية ، وبدون خوف من الروس « ستتفاوض اسرائيل مع وفد اردنى فلسطينى مشترك وكرر هذه الكلمات عدة مرات .

وواصل الرئيس حديثه بعد توقف قصير بلّغ تحياتى الحارة جداً الى شمعون بيريز انت تعرف اننى اقدره للغاية اننى اقدر المرونة والاعتدال التى ابداهما فى رأس التين « فى الاسكندرية » لن انسى له ذلك ، ابلغه من فضلك ان العالم العربى باستثناء سوريا وليبيا بالطبع يوافق على مسيرة السلام التى تحدثنا عنها فى الاسكندرية كذلك ايضاً السعوديين الذين تحدثت معهم وايضاً حكام دول الخليج .

اننى احب عزرا وايزمان . انه رجل طيار . ابلغه اننى ساكون صبوراً بناء على طلبه ساكو ن طويل البال عليه الا يقلق انه يريد ان اكون صبوراً ؟ ساكون صبوراً اننى اعرف ما ينتظرنا وما ينتظركم .

عندما انتهى الرئيس من ابلاغى بتلك الرسائل الثلاثة ، استند الى ظهر المقعد واشار لى بأنه انهى حديثه وجاء دورى فى الحديث قلت للرئيس « انه فى الايام الاخيرة « قمت بعملية دراسة للدروس المستفادة التى اخرج بها بعد سبع سنوات من الخدمة فى مصر والتى كان معظمها فى فترة خدمته كرئيس وقلت انه من المهم ان اشركه علانيه وبإخلاص فى بعض تلك الدروس المستفادة وربما كانت تلك هى مساهمتى الاخيرة بجهد فى تحسين علاقات اسرائيل ومصر ورد الرئيس فى الحال بالايجاب واضاف بأنه فى امكانى القيام بذلك فى هدوء « لان لدينا كل الوقت المطلوب » .

وقلت بعد اذن الرئيس « سأبدأ بنفس الملحوظة التى بدأ بها حديثه اليوم ابدا بنفس الشئ المفهوم من تلقاء نفسه المتفق عليه بيننا وهو الاساس : على الرغم من انه قد انقضت حوالى احدى عشرة سنه فإن السلام بيننا قائم وقوى ومستقر وانا لا اقصد السلام اليومى الذى نعانى جداً من نقصه والذى سأتناوله خلال حديثى ، بل اقصد ما اسميه«السلام الاستراتيجى » الذى يعنى ان لن تكون هناك حرب اخرى »وهز الرئيس رأسه وواصلت حديثى قائلاً تستطيع مصر واسرائيل اليوم ان تقول بأن السلام بينهما اصبح حقيقة قوية ومقبولة سواء فى اسرائيل وسواء فى مصر وفى معظم الدول العربية .

لقد نجح هو كرئيس لمصر سوياً مع زعماء اسرائيل فى قيادة سفينة السلام الاستراتيجى بين الدولتين بصورة تدعو الى تقديره واود ان اعبر عن تقديرى هذا امامه فى بداية حديثى بعد حضورى اليوم لوداعة .

خلال حديثى اعربت عن خيبة املى وخيبة امل الجمهور فى اسرائيل من المضمون الضحل للسلام اليومى بين دولتينا ، من ذلك ان حكومه مصر تمنع السياحة المصرية عن اسرائيل والتبادل التجارى والعلاقات الثقافية بين الدولتين .

واوضحت انه من جراء ذلك تحطم لحد ما ايمان الاسرائيلى البسيط « رجل الشارع » بهذا السلام .

اننى ادرك بالطبع حقيقة ان الاحداث فى المنطقة لا تجعل مهمة مصر سهله ولكن هذا مصير الريادى انه يقوم بالمهمة حتى ولو كانت صعبة . يحتاج الرجل البسيط سواء فى اسرائيل وسواء فى مصر وفى الدول العربية الى نموذج جذاب جداً لسلام يومى غنى بجانب السلام الاستراتيجى القوى القائم وقبل مغادرتى مصر اود دعوة الرئيس لاعادة التفكير فى الموضوع، موضوع آخر اجد ان من واجبى ان اطرحه فى هذا الحديث الختامى واصلت حديثى وهو الموضوع الذى تحدثت حوله معه وكذلك مع وزير الخارجية ومع وزير الاعلام مرات كثيرة اقصد الصوره المشوهه جداً لاسرائيل فى اجهزة الاعلام المصرية لقد وصلت الامور لحد بث كراهية تجاه اسرائيل واليهود حتى فى التليفزيون والراديو الرسميين . وبعد اذن الرئيس اود ان اقدم له اليوم نموذجاً بسبب حساسيته لم اطرحه حتى اليوم امامه او امام وزير الخارجية : فى التليفزيون الحكومى الرسمى وخاصة فى المواعظ الدينية الاسلامية فى ايام الجمعة ، توجد دعاية وتحريض شديد جداً ضد اليهود ، هذه ظاهرة خطيرة ولا يوجد اخطر منها ، اننى مندهش ما الذى تصبو اليه اجهزة الاعلام الرسمية التى تقوم بشكل شبة دائم بهذا التحرض الدينى .

فى هذه النقطة قاطعنى الرئيس وقال : انك محق فى ذلك . سأصدر فوراً امراً الى

صفوت الشريف وزير الاعلام بألا يمسوا اموراً اسلامية يهودية لا فى التليفزيون ولا فى الراديو ، هذا الشئ الخطير جداً على حد قولك سيتوقف .

ضغط الرئيس على الزرار الموجود على المائدة الصغيرة بجوار مقعده ودخل سكرتيره الشخصى الفقى وشرح له الرئيس المطلوب باختصار وامره بالاتصال بوزير الاعلام وابلاغه بأن يوقف فوراً تلك البرامج وسجل السكرتير امر الرئيس وخرج .

وما ان بقينا بمفردنا واصل الرئيس كلامه قائلاً : « للعلم عندما طرحت الموضوع الدينى ودون علاقة بالامر الذى ارسلته الآن الى صفوت الشريف ذكرتنى بنقطه عندى اريد جداً ان تنتبهوا اليها هذه نقطة حساسة جداً فى العالم الاسلامى والتى تتطلب يقظة واهتماماً كبيراً ودائماً منكم. اننى اقصد الوضع فى القدس، الاشاعات عن تلك الانفاق، التى بموجب ما ينشر تحفرونها بجوار المسجد . ارجوكم لا تقوموا بإجراءات تفسر فى العالم الاسلامى بصورة غير سليمة سواء عن قصد او دون قصد ارجو ان تكونوا حساسين تجاه هذه النقطة اننى اعتزم ارسال وفد لزيارة المسجد الاقصى للوقوف على حالته . اذا كانت هناك ضرورة للقيام بعمليات اصلاح سأقدم لهم العون .

واصلنا الحدث لفترة طويلة دار الحوار بصورة مريحة وهادئه للغاية تحدثنا عن سوريا وعن العراق « اعرف انكم تلقيتم رسالة من صدام حسين بواسطة صحفية اجنبية معينه لن يجرؤ على مهاجمتكم انه منهك من الحروب » تحدثنا عن الانتفاضة « قلت للرئيس انها لا تهدد اسرائيل انها مجرد ازعاج ليس الا . الشئ الخطير فيها على المدى البعيد هو فى الحقيقة انها تولد كراهيتين اولادنا واولادهم تحدثنا عن منظمة التحرير الفلسطينية « لم يذكر ذلك ولكننى علمت انه قد اغضبته جداً حقيقة ان عرفات دخل اليه يحمل طبنجة فى حزامه» وتحدثنا ايضاً عن بعض الامور الاخرى .عندما خرجت من عند الرئيس مبارك بعد حوالى ساعة ونصف فكرت فى الطريق الطويل للغاية الذى قطعه هذا الزعيم منذ السادس من اكتوبر ١٩٨١ الذى وجد نفسه فيه فجأه يرأس اكبر دولة عربية وحتى هذا اليوم بعد

مرور حوالى ست سنوات ونصف .

ذلك الرجل الذى ودعته الآن اذهلنى كإنسان بدأ طريقه كشخصية غير معروفة وتطور واصبح زعيماً مذهلاً ناضجاً سياسياً يتمتع بثقة بالنفس وكفاءة زعامة .

انسان استطاع الحفاظ على السلام الاساسى مع اسرائيل ونجح مع الحفاظ على السلام مع اسرائيل فى حث الزعماء العرب لالغاء المقاطعة والعزلة التى فرضوها على مصر فى مؤتمر بغداد بعد اتفاقية السلام مع اسرائيل بل وجعل تلك الدول العربية تعود الى القاهرة كما هى، ان العودة الى مصر، بسلامها مع اسرائيل وكذلك نجح فى جعل معظم الدول العربية تتخلى عن مفهوم القوة كطريقة لحل النزاع مع اسرائيل وتتبنى بشكل مبدئى طريق المفاوضات عندما عدت بذاكرتى الى الوراء الى ذلك اليوم الذى ودعت فيه الرئيس ضايقتنى الازمة الشخصية التى كانت بينه وبين رئيس وزراء اسرائيل وكذلك تصميم الرئيس غير المفهوم بأن يكون مضمون علاقات السلام اليومى بين مصر واسرائيل ضحلاً للغاية .

ما الذى دفع الرئيس الى ان يصمم بحزم على ذلك بالا تكون العلاقات بين الانسان الاسرائيلى دافئة جداً . انسانية وطبيعية جداً ؟ هل حقاً كان هؤلاء على حق الذين اوضحوا لى ان الحفاظ على تلك المسافة بين المصريين والاسرائيليين كان مطلوباً له ، للرئيس من اجل دفع علاقاته مع العرب مع ان هؤلاء سلموا بحقيقة وجود السلام بين اسرائيل ومصر فى ذلك اليوم شعرت ان انعدام قدرة الرئيس على اقناع المواطن العادى فى اسرائيل بصدق سياسته هذه اضر بشده بمشاعر الاسرائيلى تجاه السلام كطريق لحل النزاع وكذلك بصوره الرئيس مبارك نفسه فى نظر الكثير من الاسرائيليين فى تلك اللحظات لم استطع مواساة نفسى سوى بكلمة واحدة : وأسفاه .

ولكن بعد ذلك مباشرة ، حل احساس آخر فجأه مكان تلك الكلمة احساس مختلف تماماً بشكل غريب شعرت بمشاعر تقدير عميق لهذا الرجل وما يقوم به : كنت مقتنعاً آنذاك

كما انا مقتنع اليوم ان السلام بين اسرائيل ومصر صمدا ايضاً بعد اغتيال السادات وهو قائم حتى هذا اليوم بفضل شخص واحد : محمد حسنى مبارك . لانه لو اراد الرئيس مبارك، لكان فى مقدوره - بعد اغتيال السادات مباشرة - ان يلغى بكلمة واحدة اتفاقية السلام بين مصر واسرائيل ، وذلك دون الكثير من المعترضين فى الداخل ووسط هتافات العالم العربى كله . ولكن مبارك لم يكن فقط شريكاً كاملاً فى خطوات السلام التى قام بها الرئيس السادات ، جاء من مدرسته وخدم كنائب له طوال ست سنوات بل كان يعرف جيداً ان قرار الغاء اتفاقية السلام مع اسرائيل كان من شأنه ان يحدث كارثة حقيقية لمصر: بذلك كانت مصر ستعود لعصر المغامرة السياسية والعسكرية كانت ستتخلى عن استعادة سيناء وكانت ستفقد التبعية السياسية للولايات المتحدة الامريكية « السير سياسياً فى فلك الولايات المتحدة «بكل ما يترتب عن ذلك وكانت ستتخلى ايضاً عن الدخول السنوية الدائمة والهائلة التى كانت ستتدفق على خزانتها نتيجة اتفاقية السلام مع اسرائيل. بعد ذلك بفترة طويلة اتضح ان تلك الدخول وصلت الى اكثر من خمسة مليارات دولار كل سنه لقد كان من الطبيعى ان يفضل الرئيس مبارك الذى اعطى اولوية لعملية التنمية فى مصر، استمرار بقاء اتفاقية السلام مع اسرائيل وترسيخ الهدوء الداخلى فى مصر لكونهما من العوامل الاولوية والحتمية لتنفيذ خططه لتنمية الدولة. وحقاً لحسن حظ مصر واسرائيل وسائر دول المنطقة تصرف الرئيس مبارك على هذا النحو حيث وضع مثل السادات صالح الدولة والشعب فوق اى اعتبار آخر يمكن الرد على هذا النحو على كل هؤلاء الذين يسألون من حين لاخر « كم من الوقت سيصمد ذلك السلام المنفرد مع مصر ؟ » طالما لن يحدث فى المنطقة شئ خطير جداً سيكون عمر اتفاقية السلام على الاقل مثل عمر الفترة التى سيظل فيها الرئيس مبارك جالساً على مقعد الرئاسة . ماذا سيكون قرار السيد الرئيس الجديد فضلاً عن انه نظراً لعدم وجود نائب للرئيس الحالى وهوية هذا النائب غير معروفة لا نستطيع ان نعرف مقدماً واى « تقدير » فى هذا الشأن لن يكون سوى « تخمين » وبالطبع فإن عمر اتفاقية السلام مع مصر سيتغير للافضل « بشكل تام فى اللحظة التى لن يكون فيها السلام الوحيد فى

المنطقة .

لم يكن الرئيس الراحل السادات يستطيع ان يختار لنفسه الطريق ولشعبه - هذا ما فكرت فيه عند خروجي بعد حديث الوداع مع الرئيس المصرى - وريث ومكملاً لطريقة افضل لمفهومه الاستراتيجي وللشعب المصرى ولشعوب المنطقة من قائد سلاح الطيران المصرى السابق ، محمد حسنى مبارك .

امام قبرين :

بعد حديثى مع الرئيس مبارك بثلاثة ايام وقفت امام قبر الجندى المجهول المصرى وقبر الرئيس السادات . قمت بزيارة القبرين فى مراسم رسمية وضعت اكاليل زهور على القبرين كان معى فى ذلك الوقت المفوض فى السفارة دافيد اباك الذى كان من المقرر ان يرأس السفارة مؤقتاً من يوم رحيلى من مصر ولحين حضور السفير الجديد، السفير الثالث لاسرائيل فى مصر البروفيسور شيمعون شامير .

وضع اكليل على قبر الجندى المصرى المجهول يرمز الى نهاية عصر الحروب مع مصر

ووضع اكليل على قبر الرئيس انور السادات كان بالنسبة لى بمثابة تعبيراً رمزياً عن التقدير العميق للغاية الذى اكنه لزعيم عظيم شجاع ذى تصميم ، الذى غيّر بقراراته مجرى التاريخ فى منطقتنا .

عندما وقفت امام قبره كانت افكارى تنصب عليه وعلى قرينه الاسرائيلى السيد مناحم بيجن الذى استجاب له فى الحال وحققا معاً اول سلام اسرائيلى عربى اكبر انجاز سياسى بعد قيام اسرائيلى .

سألت نفسى فى الوقت الذى وضعت الاكليل على قبره كيف كانت الامور ستبدو اليوم لو لم تنله رصاصات القتله وهو يقف على المنصة فى السادس من اكتوبر ١٩٨١ ، فكرت ولم

اعثر على اجابة لهذه الافكار « لقد سبق عصره » تذكرت الملاحظة التى رددتها على مسامعى شخصية مصرية هامة « لا » اجبت آنذاك على تلك الشخصية : لو كان الرئيس السادات قد فشل فى مبادرة السلام التى قام بها حينئذ كان من الممكن ان نقول عنه ربما سبق عصره . العكس هو الصحيح .

لقد جاء بالضبط فى الموعد المناسب وعظمته تكمن فى ذلك انه عرف كيف يستغل اللحظة التاريخية التى صادفته فى طريقه .

كان السادات زعيماً لم يتقوقع . كل حياته الخاصة والعامة على السواء ، كانت سلسلة طويلة لتغيير الاتجاه تحولات ومفاجآت بنظرته الثاقبة وبخياله تمكن من رؤية المتغيرات التى ستحدث فى عالمنا واستطاع بشجاعة فائقة ان يعيد دراسة مسلمات وان يستغل تلك المتغيرات استغلالاً تاماً .

حقاً لا يمكن ان نعرف كيف كانت الامور اليوم لو لم تنله رصاصات القتله لا توجْد اجابة على هذا السؤال، عندما يتعلق بزعيم من هذا النوع .

وداع « على كوب شاى » :

بموجب التقليد الديبلوماسى فان السفير الذى ينهى خدمته يقيم استقبالاً يدعو اليه معارفه المحليين والاجانب لوداعهم وبالطبع : فان الشئ العادى والمعتاد فى كل انحاء العالم وفى مصر ايضاً ليس عادياً بالنسبة لسفير اسرائيلى فى القاهرة بعد التغيب المصرى الظاهر من الاستقبال الذى اقمته من قبل بمناسبة الذكرى الاربعين لاستقلال دولة اسرائيل من الذى يضمن لى انه عشية الاستقبال الذى سأقيمه لوداع اصدقائى المصريين لن يقع فجأة حادث فريد ويدفع المصريين الى مقاطعة حفل الوداع ايضاً وفكرت لحظة بأننى لا استحق مقاطعة لهذه ولذلك قررت قلب الامور رأساً على عقب: اعددت قائمة تضم حوالى

مائة شخص ومعارف مصريين واجانب وقررت زيارة كل واحد منهم لوداعه وقد اتضح لى بعد ذلك ان هذا الاسلوب غامض فى حد ذاته، ظهر كأسلوب رائع ومدهش لقاءات شخصية متتالية بمعدل اربعة او خمسة لقاءات فى اليوم والتى استغرقت شهراً او شهراً ونصفاً ساعدتنى على ان استمع بصورة مركزه لاراء وتقديرات مجموعة كبيرة من الاشخاص صنعت من الفسيخ شربات وخرجت من تلك اللقاءات بانطباعات عظيمة، توقعات ونصائح وتقديرات وحصلت على معلومات هامة ستساعدنى على بلورة رأى خاص بى .

اوضحت لكل الاصدقاء بوضوح واخلاص دوافعى ولكن بعضهم لم يتنازلوا : بدلاً الحضور عندى لوداعى ، قرروا اقامة حفل وداع لتكريمى، يتضمن مأدبة عشاء يشترك فيها الكثير من الاشخاص عند زميلى وصديقى فرانك ويزنر سفير الولايات المتحدة الامريكية فى القاهرة وحفل مفاجأه فريد من نوعه اعده لى صديقى وزميلى الدكتور يوسف والى . وما حدث كان على النحو التالى :

قبل انتهاء فترة خدمتى فى القاهرة بحوالى عشرة ايام اتصلت سكرتيرتى لفنا بمكتب وزير الزراعة وطلبت تحديد موعد لى للذهاب وتوديع الوزير بعد مرور حوالى نصف ساعة اخبرها رئيس المكتب ان الوزير سيقابلنى فى يوم الجمعة الخامس عشر من يوليه اى قبل مغادرتى القاهرة باربعة ايام . فى الساعة الثامنة مساء فى مكتبه لتناول كوب شاى معاً، اندهشت من التوقيت واليوم الغريبين « لشرب كوب شاى » ولكننى ارجعت ذلك الى السلوك الخاص جداً للدكتور يوسف والى . لم يمض ربع ساعة على اتصال مكتب الوزير حتى اخبرتنى لفنا ان السفير الامريكى فرانك ويزنر يريد الحديث معى تليفونياً وسألنى فرانك ما موضوع تناول الشاى فى الساعة الثامنة مساء يوم الجمعة بعد هذه المكالمة التليفونية بدقائق معدودة اخبرتنى سكرتيرتى ان عميد السلك الديبلوماسى فى القاهرة على الخط رئيس جمعية مالطة الامير كارلو مسيمو لانشلوتى ، وسألنى نفس السؤال الذى استفسر

عنه على التو السفير ويزنر ...

لم يكن من الصعب التخمين بأن صديقنا وزير الزراعة قد وجه الدعوة ايضاً لمجموعة من السفراء وذلك لاضفاء نوع من الاحتفال على لقائى معه لوداعه .

وبناء على طلبى سألت سكرتيرتى مكتب الوزير هل استطيع حضور اللقاء معاً مع ابنتى اورنا التى حرصت على ان تكون معى فى الاسابيع الاخيرة فى القاهرة . عرفت اورناه انه منذ سبع سنوات عند حضورى الى القاهرة حضرت معى زوجتى طوفا وابنى روفى طيب الله ثراهم وانه سيكون صعباً على ان اخرج من القاهرة بمفردى وصممت على ان تكون معى فى رحلة العودة الصعبة . رحلة صعبة من الناحية الشخصية وصعبة لسفير يودع المكان الذى عاش وعمل فيه وتعامل مع اكبر تحد واجهه طوال حياته .

عندما دخلنا يوم الجمعة فى الوقت المحدد - اورناه وانا - وكذلك بعض افراد طاقمى فى السفارة - الى قاعة الانتظار الكبيرة الموجودة بجوار مكتب وزير الزراعة اصابنا الذهول عندما شاهدنا مجموعة تضم حوالى اربعين او خمسين شخصاً من كبار العاملين فى وزارة الزراعة وبينهم حوالى عشرة سفراء اجانب وكذلك اثنان من افضل اصدقائى فى الحكومة المصرية وزير الطاقة ماهر اباظة ووزير البترول عبد الهادى قنديل . لمحت ايضاً مصوراً محترفاً حضر بناء على طلب المضيف. ووسط دهشتى بحثت ولم اعثر على مائده من المفروض ان تكون عليها اكواب الشاى تقدم نحوى وزير الزراعة د. يوسف والى متأثراً على غير العادة طلب من الحاضرين الصمت وبدأ يلقى خطاباً فى البداية بالانجليزية وبعد ذلك بالعربية . وقال انه لحفل الوداع هذا قام بدعوة مجموعة مختاره - عينه فقط - لمزارعين مصريين من بين هؤلاء الذين زاروا اسرائيل خلال السبع سنوات الماضية التى خدمت فيها فى القاهرة ، وعملوا من اجل التعاون الزراعى بين الدولتين - قال الوزير المضيف - «اننا نودع اليوم السفير الذى عمل دون توقف من اجل التآخى بين الفلاح المصرى والفلاح الاسرائيلى - وليس هناك اجمل واقوى من تآخى الفلاحين الذين يعملون فى الارض عندما

انتهى من تلك المقدمة التى كررها بالعربية صفق بكف يده مثل اعمال السحره وانفتح احد الابواب المؤدية الى قاعة الانتظار على مصراعيه والتى كنا موجودين بها وبدأ فلاحون مصريون يدخلون الواحد تلو الاخر « حوالى ٢٢٠ حسب الاحصاء الصارم الذى قامت به اورناه» كلهم يرتدون الجلاليب الرمادية اصطفوا فى طابور خلفى طويل واقتربو منى ومن الوزير وصافحونا فقام كل شخص منهم بتقديم التحية ومصافحتنا .

بل كان بينهم من صافحوا وزيرهم لاول مرة وذلك بفضل السفير الاسرائيلى كلما ازداد عدد الداخلين ازداد تأثرى ، وما ان امتلأت القاعة وسط دهشة السفراء الاجانب وسرور الفلاحين المصريين واصل الوزير خطابه ولكن فى هذه المرة تكلم بالعربية وكان كلامه موجهاً الى مزارعيه . لقد اراد ان يلخص فى بضع كلمات مجهود التعاون المثمر الذى آمن به منذ اليوم الاول كان هذا هو يوم عامل الارض« المصرى الجميل » والاسرائيلى الجميل».

وعندما فرغ من كلامه قدم لى بعض الهدايا الرمزية : اوراق البردى عليها صور مزراعين فراعنة ، مجموعة شرائط عليها اغان شعبية مصرية وعلبة بها ستة [illegible]اجين واطباق مصنوعة من رخام مصرى .

وعندما حان دورى لإلقاء كلمتى تصرفت مثل مضيفى : بعض كلمات بالانجليزية على مسامع زملائى السفراء وكلمات وداع لصديق عزيز ورجاله بلغتهم بالعربية . خلال كل سنوات خدمتى فى القاهرة امتنعت عن الاستعانة بآيات من القرآن اعتقدت انه من العيب ان يصدر ذلك من شخص غير مسلم . ولكن فى هذه المرة قررت المجازفة والخروج عن هذا العرف: قلت « لقد سألت نفسى كثيراً لماذا خدمت لمدة سبع سنوات فى القاهرة وليس ثمانى سنوات وليس ست او خمس سنوات ؟ وعندمما لم اعثر على اجابة اردت العودة الى المصادر «المنابع» مصادركم . وفى هذه الحالة لجأت الى الكتاب المقدس للمسلمين ـ الى القرآن ـ بحثت ووجدت انه العدد سبعة ورد فى القرآن اربع وعشرين مرة فى اربع وعشرين آية مختلفة . احدى عشرة آية من تلك الآيات وردت فى سورة « يوسف » قصة يوسف : «سبع

بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر واخر يابسات» «تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فدروه فى سنبله الا قليلاً مما تأكلون » ثم يأتى بعد ذلك «سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلاً مما تحصنون » ولكننى لم اعثر فى كل هذه الآيات على آيه اشاره او ايه اجابة للسؤال الذى سألته لنفسى. وفى النهاية عثرت فى سورة لقمان «قصة لقمان» آية واحدة ورد فيها « ولو انما فى الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحُرٍ » ما هذه الاية ـ آية السبعة بحور ـ : رأيت اشارة لعملى فى مصر طوال سبع سنوات: عندما تنظر الى البحرمن مسافة ترى امامك مسطحاً ازرق هادئاً يمتد فى الافق فى خط مباشر رائع . هذا بحر اقوياء ، قوى ومستقر «ذلك هو السلام الاستراتيجى بيننا وبين مصر» قلت لنفسى . ولكن عندما تقترب من حافة البحر تشاهد امواجه العاصفة والصاخبة الصاعدة والهابطة ، الهادرة والجارفة التى تحدث رغوة وقطرات ماء وهذا بالضبط هو السلام اليومى على التأرجحات وعلى المشاكل الصعبة. وعن الانجازات صادفتنى فى مصر الكثير جداً من الايام العصيبة ، ولكننى كنت اقول دائماً لنفسى حتى فى لحظات الازمة ، إننا نقف اساساً امام خط الافق المستقيم مثل المسطرة وامام القدره الايجابية للسلام الاستراتيجى يقول المثل المصرى ـ واصلت حديثى امام الوزير وطاقم وزارته والمزارعين « ان كل من يشرب ماء النيل مرة واحده يعود مرة اخرى الى مصر » اننى اودع مصر واصدقائى بها وعند عودتى اليها سأجدها بالتأكيد تواصل الازدهار والنمو والتقدم ... مع اطيب امنياتى . انهيت كلامى « باستمرار نجاح جهود ادخال مصر الى عصر القرن الحادى والعشرين » .

جهزت من قبل هدية خاصة للدكتور يوسف والى قدمتها اليه فى تلك المناسبة : ميدالية رسمية صدرت فى اسرائيل خصيصاً يوم التوقيع على اتفاقية السلام بين مصر واسرائيل

قوبل خطابى الملئ بآيات كثيرة من القرآن بعاصفة متكرره من التصفيق الحاد من جانب الفلاحين الحاضرين . عندما انتهيت من القاء كلامى انفتحت ابواب القاعة على مصراعيها . امسك د. والى بيدى وخرجنا الى الشرفة الكبيرة المجاورة لمكتب الوزير : وبدلاً

من اكواب الشاى كانت تنتظرنا هناك مائده مكدسه بكل ما لذ وطاب ووسطها تورته ، طولها
حوالى متر على شكل علم اسرائيل . قال لى يوسف والى: « هذه التورته ستقطعها انت يا
موشيه وتقدم لضيوفنا المزارعين المصريين والسفراء الاجانب رمزاً للسلام بين شعوبنا
والعاملين فى الارض عندنا » . عندما قدمت قطعة تورته لسفير شيلى فى القاهرة كارلوس
ميرلس مولر قال لى السفير : فى هذا المساء فقط ادركت حجم الخطأ الذى وقعت فيه
بتقييم السلام الفاتر ليس هناك اجمل للسلام من تآخى المزارعين من هذا القبيل الذى كنت
فى هذا المساء شاهداً لثماره .

فى الطريق الى المطار :

التاسع عشر من يوليه ١٩٨٨ فى هذا المساء سأعود على طائرة شركة العال الرحلة
رقم ٤٤٤ من القاهرة الى مطار بن جوريون ، مع ابنتى اورناه فى الثامنه صباحاً دق جرس
التليفون مرتين : مره من السيده جيهان السادات والمرة الثانية من كمال حسن على. اقترحت
السيدة جيهان السادات التى عادت من الخارج منذ ساعات قليلة ان امر فى طريقى الى
مطار القاهرة الدولى بمنزلها حتى تستطيع توديعى بينما اخبرنى كمال حسن على انه امر
الآن سلطات المطار بعدم السماح لى بمغادرة مصر الا اذا كنت احمل تأشيرة خروج موقعة
منه شخصياً . وقال كمال حسن على « فى طريقك الى المطار ، ستضطر الى المرور بمنزلى
لتأخذ منى هذه التأشيرة ... » اريد ان اكون آخر انسان فى القاهرة يصافحك ويودعك » .

وبالطبع ذهبت الى هذين اللقاءين الاخيرين لى فى القاهرة . معاً انا واورناه . السيدة
جيهان السادات اصيلة وحنونه كعادتها فرحت جداً لحضور اورناه عانقتها وقبلتها بحرارة
وسردت امامنا تفاصيل عن ذكرياتها مع زوجتى طوفا ارادت السيدة جيهان السادات ان
تسمع منى كيف انظر الى السبع سنوات التى قضيتها فى القاهرة . « قلت لها سبع
سنوات وشهرين ويوم واحد » هذه السنوات الخصها فى جملة قصيرة واحدة : لو عرضوا

علّى ان اوقع اليوم على اتفاقية سلام مع جيراننا الاخرين ، حتى لو كانت العلاقات معهم
فاترة لوقعت عليها بكلتا يداى. السلام مع مصر يعانى من نقص ولكنه سلام وعلينا جميعاً
ان نحافظ عليه تماماً » .

طلبت السيدة جيهان السادات ابلاغ سلامها الحار الى السيد مناحم بيجن « اخبره
انه يجب عليه ان يبدأ فى الكتابة » واضافت السيدة جيهان السادات : لن انسى اليوم الذى
جاء ليعزينى وان يشترك فى جنازة انور ولن انسى ما قاله آنذاك السيد بيجن لابنى جمال،
بحضورك يا موشيه انه يريد من جمال ان يعتبره من ذلك اليوم فصاعداً فى مكانة والده ،
وان يعتبرك انت ممثلاً له ايضاً لهذا الغرض » ...

استقبلنا كمال حسن على فى منزله المتواضع فى حى الضباط القريب جداً لمطار
القاهرة يرتدى بدلته الصيفى الرمادية وحذاء منزلى - كان يستند على عصا اثناء سيره .
العمال يقومون بإصلاح حجرة الضيوف ، وجلسنا فى الصالة شرب هو ينسون
وشربت انا واورناه القهوه .

قال لى كمال حسن على « كنت جنرالاً فى الجيش وبعد ذلك كنت رئيساً للمخابرات
العامة المصرية ووزيراً للدفاع ثم نائباً لرئيس الوزراء ووزير للخارجية . وفى النهاية رئيساً
للوزراء .طوال حياتى كلها كنت اعمل بجد ليل نهار وكان راتبى يكفى بصعوبة معيشتى
والآن انا مدير بنك اعمل فقط بضع ساعات قبل الظهر واكسب اضعاف اضعاف ما
احتاجه .. استمع الى نصيحتى يا موشيه ، بعد عملك الصعب فى مصر فمن حقك ان تكون
مديراً لبنك ...

افتح فى اسرائيل بنك « مصر - اسرائيل » وكن رئيساً له ... قلت له « لا يا كمال « ما
كنت اريده جداً هو ان اكون اول سفير لاسرائيل فى دمشق » .

قدم لى كمال بروازين صغيرين من الفضة كهدية قائلاً اريد ان تضع هذين البروازين

على مكتبك وتضع فيهما صورتين لاصدقائك فى مصر وآمل ان تضع صورتى فى احد البروازين وعليك ان تعرف ان منزلى هو منزلك نحن لا نفترق الى اللقاء والله معك دائماً ».

فى المطار وجدت رجال السفارة ، رجل المراسم المصرى وكذلك صديقى وزير الطاقة ماهر اباظة . بعد حوالى ساعة هبطت طائرتنا فى مطار بن جوريون .

الفهرس

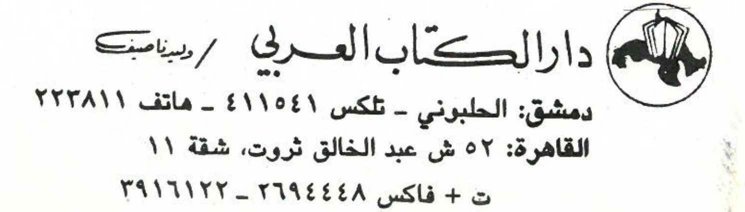
مذكرات موشيه ساسون

بالاسرار والوثائق المثيرة يقدم « موشيه ساسون » ثانى سفير إسرائيلى بالقاهرة مذكراته المعنونة بـ « سبع سنوات فى بلاد المصريين » والتى تغطى الفترة من « ١٩٨١ - ١٩٨٧ » وعاش وشهد غفيها احداثاً جساماً مرت بمصر منها إغتيال السادات وغزو جنوب لبنان وضرب المفاعل النووى العراقى. وفى هذه السنوات السبع حاول «ساسون» ان يقيم ركائز قوية للعلاقات المصرية - الاسرائيلية عبر وسائل سياسية وإقتصادية عديدة من صدقات مع الوزراء والكتاب والفنانين الى عقد اتفاقات عديدة وصلت الى ما يقارب المائة إتفاقية إقتصادية وسياسية، الى لقاءات مع مواطنين مصريين عاديين... ورغم كل هذه المحاولات، تكشف المذكرات عن رفض قطاعات عريضة من الشعب المصرى للتطبيع وبخاصة النقابات المهنية على إختلافها.

إن المذكرات التى ننفرد بنشر نصها المترجم عن اللغة العبرية التى تقدم سرداً وثائقياً لمرحلة هامة من تاريخ مصر والعرب من وجهة نظر إسرائيلية ولمسئول إسرائيلى هام.

إنه كتاب يستحق القراءة والإقتناء فوراً....

الناشـــر



دمشق: الحلبوني - تلكس ٤١١٥٤١ - هاتف ٢٢٣٨١١
القاهرة: ٥٢ ش عبد الخالق ثروت، شقة ١١
ت + فاكس ٢٦٩٤٤٤٨ - ٣٩١٦١٢٢